عاصمة للثقافة العربية 2009

د. عبد الله معروف عمر

المدخل إلى دراسة

المسجد الأقصى المبارك

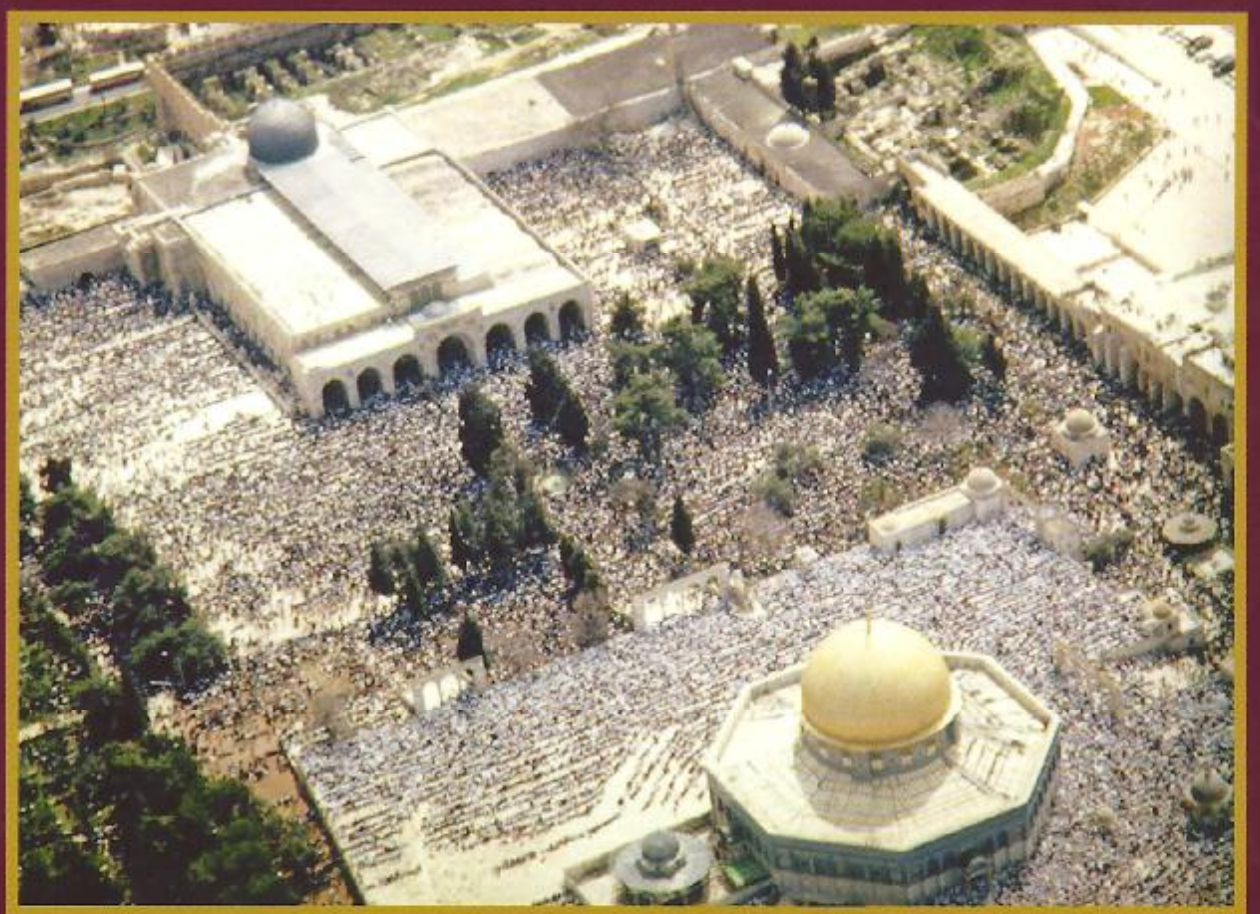

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

دار العلم للملايين

المدخل إلى دراسة

المسجد الأقصى المبارك

تأليف:

د. عبدالله معروف عمر

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

شارع مار الياس ـ بناية متكو ـ الطابق الثاني

هاتف: 306666 1 (961) + ـ فاكس: 701657 1 (961) +

ص.ب.: 1085 ـ 11 بيروت 8402 2045 ـ لبنان

internet site: www.malayin.com
e-mail: info@malayin.com

الطبعة الأولى 2009

جميع الحقوق محفوظة: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطّي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © 2009 by
Dar El Ilm Lilmalayin,
Mar Elias street, Mazraa
P.O.Box: 11-1085
Beirut 2045 8402 LEBANON
First published **2009**

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن أفكار المؤلف، وتعبِّر الآراء
الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبِّر عن آراء المؤسسة.

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

برنامج «اكتب»

أطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم برنامج «اكتب» لرفد النتاج المعرفي في الوطن العربي، وتدارك ما أصابه من تراجع؛ إذ إن العرب، الذين يشهد لهم تاريخهم الماضي بالريادة في إنتاج المعرفة، يصدرون اليوم أقل من 0,8 ٪ من إجمالي الإصدارات العالمية.

وقد أولت المؤسسة اهتمامًا منقطع النظير لحل إشكاليات الواقع الراهن بجميع تحدّياته، فانطلقت لتجاوز كل معوقاته وحواجزه، لتحقيق ما ترنو إليه الأجيال الواعدة، وتنبع ثقة المؤسسة بأن المستقبل العربي، بإذن الله، سيحفل بأسماء جديدة في عالم الكتابة والتأليف من الإقبال الكبير على المشاركة في البرنامج من قبل الكتّاب الشباب منذ الإعلان عن انطلاقه، فقد لبّى هؤلاء الكتّاب الواعدون دعوة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بكل حماس وإيمان بالتغيير وبالعمل لخدمة مشروع النهضة المعرفية العربية.

ومع كل كتاب جديد، تتعهّد المؤسسة غرسة تشق طريقها بكل ثقة، وتتفتح زهوًا لتنثر ورودًا في كل الدروب، وتجدِّد الأمل في نهضة ثقافية عربية واعدة، تشرع نوافذها لمستقبل الإبداع.

ولا بد للغراس أن تؤتي ثمارها، لا بد لها من أن تورق وتزدان لتلوّن الدنيا بألوانها بهاءً وسحرًا.

ومؤسسة محمد بن راشد لن تألو جهدًا لترسيخ خطى أصحاب المواهب الإبداعية وتعزيز ثقتهم بقدراتهم وإبداعاتهم، والأخذ بيدهم ليشاركوا الأمّة في مسيرتها نحو الريادة.

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت – الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموِّه، فقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد إل مكتوم، كما أراد لها مؤسِّسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحدّيات التي تواجه مجتمعاتهم.

الإهداء

- إلى سيدي ومعلمي الغالي الأول: رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم...
- إلى أمي وأبي...
- وزوجتي وولدَيَّ...
- وجميع أساتذتي وطلبتي وإخواني وأخواتي...
- وإلى المسجد الأقصى المبارك الحبيب... وأرض بيت المقدس التي أحبها الله وبحب الله لها أحببتها....

أهدي هذا الكتاب

جدول المحتويات

المقدمة 15

خلفية 16

قضية الكتاب 17

منهجية الكتاب 17

شكل الكتاب 18

تمهيد: دراسة المسجد الأقصى المبارك 20

المحور الأول: المفاهيم والأحكام

1- المفاهيم العامة 25

المسجد في الإسلام 25

المسجد الأقصى المبارك 26

أولاً: المفهوم 26

ثانيًا: التسمية 28

ثالثًا: الموقع والمساحة 32

رابعًا: شكل المسجد الأقصى واتجاه بنائه 34

2- الأحكام 34

الصخرة المشرفة 34

تسمية الأقصى المبارك (الحرم) 37

3- الفضائل والعلاقة مع المساجد الأخرى 40

فضائل الأقصى المبارك 40

المسجد الأقصى المبارك في السُّنّة النبوية الشريفة 41

المساجد الثلاثة الأهم في الإسلام 43

جوانب العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى المبارك 46

أولاً: بناء المسجدين وطابعهما المعماري 46

بناء المسجدين في النصوص الإسلامية 46

شكل البناء والطابع المعماري في الكعبة والأقصى 48

ثانيًا: القسم في القرآن الكريم 53

ثالثًا: رحلة الإسراء 54

رابعًا: جمع المسجدين في الصلاة 57

خامسًا: الحج والعمرة 59

سادسًا: الأرض الحرام والأرض التي بارك الله فيها 60

المحور الثاني: التاريخ

الباني الأول والفترة اليبوسية 67

الحكم الهكسوسي.. والفراعنة.. وحكم العمالقة 69

رسالة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وحكم بني إسرائيل 71

البابليون والفرس وعودة اليهود 75

اليونانيون 76
الرومان والمسيح عليه الصلاة والسلام 76
البيزنطيون..... 81
الفتح الأول.. الإسراء والمعراج..... 83
أولاً: دخول النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأقصى وربط البراق..... 85
ثانيًا: صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في الأقصى .. 86
ثالثًا: مكان المعراج 87
خطة النبي صلى الله عليه وسلم لفتح بيت المقدس... 88
الفتح العمري والعصر الراشدي 90
العصر الأموي..... 97
عبدالملك بن مروان وبناء قبة الصخرة..... 97
قبة الصخرة المشرفة وجمالياتها..... 100
الخلاف في باني القبة..... 102
الوليد بن عبدالملك وبناء الجامع القبلي 102
اليعقوبي وفريته على الأمويين 104
مميزات العصر العباسي والفاطمي 105
أهم الترميمات في الأقصى المبارك في تلك الفترة..... 105
ترميم قبة الصخرة المشرفة..... 105
ترميم الجامع القبلي 106
أهم الآثار 107
الاحتلال الصليبي 108
تعديلات الصليبيين في الأقصى 111
الدولة الزنكية.....112
الدولة الأيوبية..... 118
العصر الأيوبي فيما بعد السلطان الناصر صلاح الدين 121
العصر المملوكي..... 124
العصر العثماني..... 126
الاحتلال البريطاني ودور المجلس الإسلامي الأعلى 128
الحكم والترميم الأردني..... 131
الاحتلال الصهيوني..... 131
الترميمات في عصر الاحتلال الصهيوني..... 133

المحور الثالث: الأقصى عند غير المسلمين

تمهيد..... 137
اليهود والقدس 137
ماذا بالنسبة إلى الأقصى 140
عقيدة اليهود في المعبد الثاني..... 144
عقيدة اليهود في المعابد الثلاثة ومناقشتها 145
النصارى والأقصى 147
باب الرحمة في النصوص اليهودية والنصرانية المقدسة 149
الخاتمة 150
المصادر والمراجع..... 153

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ملء السماوات والأرض وما بينهما وملء ما شاء ربنا من شيء كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه حتى يرضى، وإذا رضي وبعد الرضى، والصلاة والسلام على الهادي البشير الرحمة المهداة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن استنّ بسنّته واهتدى بهدْيِه إلى يوم الدين .. أمّا بعد،

فلكل دين من الأديان، سواء أكان سماويًّا أم غير سماوي ، مواقعه المقدّسة، فمنها ما يكون جبلاً أو نهرًا أو مبنى، وهذه الأماكن المقدّسة هي من علامات الديانات المختلفة على مر العصور، عليها يجتمع المؤمنون بقدسيّتها، وفيها تتجلى المقدّسة التي تحاط بالدين، وهي بذلك ليست أمرًا غريبًا على أيّ دين. إلا أنّ هذا يختلف تمامًا عن تكييف هذه الأماكن المقدسة، فمنها ما يكون مكيَّفًا لعبادة المكان نفسه، أو عبادة شخص أو روح حلّت فيه، ومنها ما يكون تذكارًا لحادثة معيّنة أو شخص معيّن يحمل نوعًا من القدسيّة في هذا الدين أو ذاك.

وفي الإسلام ثلاثة أماكن مقدّسة رئيسية يَشُدّ إليها المؤمنون الرحال لعبادة الله عزّ وجلّ، ولكن المميّز في حالة الإسلام – باعتباره دينًا عالميًّا كما ينصّ على ذلك القرآن الكريم والرسول محمد صلى الله عليه وسلم – هو تخصيص هذه الأماكن الثلاثة لعبادة الله وحده، وارتباطها بالبشريّة جمعاء لا بالأمّة التي ظهرت مع ظهور النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم، وهو بحدِّ ذاته أمر مميّز ينبغي الالتفات إليه ودراسته.

هذه الأماكن المقدّسة الثلاثة: المسجد الحرام في مكة المكرّمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، والمسجد الأقصى في بيت المَقْدِس، ترتبط كلها بعالميّة الإسلام على اعتبار أقدميّة البناء، كما هي الحالة في المسجدَيْن الحرام والأقصى، وعلى اعتبار عالميّة الرسالة، كما هي الحالة في المسجد النبوي الشريف.

وإذا ذكرْتَ بالذات البركة في الأرض، فلعلّ من أول ما يخطر في ذهنك تلك الأرض التي زيّنها ربُّنا عزّ وجلّ بالبركة بحبِّه لها سبحانه، بل لم تكن بركتها فيها فقط وإنما تعدَّتها لتنطلق إلى أرجاء المعمورة وتشعّ بين الأمم

جميعًا. إنها الأرض المقدّسة، الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، والتي جعلها مهبط الرسالات ومعرج الأنبياء ومهد الصلوات وبوّابة السماء، إنها بيت المقدس الشريف، ولا نشطُّ إن قلنا إنها درّة الأَرَضين التي جُعلت للبشرية جمعاء مجمعًا للبركات، وهي بهذا تختلف عن حرم الله عزّ وجلّ في مكة وحرم الرسول الكريم في المدينة، فبركتها ليست فيها فقط وإنما تمتدّ منها إلى البعيد من الأَرَضين، وبالتالي لقد كانت، ولم تزل، وستبقى على الدوام مفتاحًا للبشرية جمعاء للتلاقي والتعارف والألفة، كما كانت ولم تزل، وفي الوقت نفسه، مفتاح التنازع والحروب والخلاف.

ودرّة هذه الأرض المباركة المسجد الأقصى المبارك.. الذي يكفيه شرفًا أنّ ربّه سبحانه وتعالى تكفّل بوصفه وصفًا عامًّا تامًّا كاملاً لا نقص فيه، فهو ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

خلفيّة:

منذ العام 2003 م، كنت قد بدأت سلسلة من المحاضرات والدورات المختلفة التي تمّ تنظيمها من قِبَل عدّة هيئات وشخصيّات، وفي عدّة أماكن ودول حول العالم، وعلى شبكة الإنترنت، وكانت تلك الجهود المباركة من مجموعة طيّبة من الهيئات والإخوة والأخوات قد أنتجت عدة دورات وفعاليات كان أولها دورة علوم الأقصى الأولى عام 2003، ودورة علوم الأقصى الثانية عام 2006، وبينهما وحولهما عدد من الدورات المختلفة، التي تناولت موضوعًا كبيرًا وهامًّا وهو قضية المسجد الأقصى المبارك من الناحية العلمية لا العاطفية ولا السياسية.

وخلال تلك الدورات المختلفة، كان أحد أكثر الأسئلة التي تكررت من كثير من الحاضرين سؤالاً يتعلق بكيفيّة الحصول على مادّة علميّة سليمة وصحيحة قدر الإمكان وماهيّة المراجع التي يمكن الرجوع إليها للحصول على مادّة ملخّصة ومفيدة وسليمة علميًّا في موضوع المسجد الأقصى المبارك. ولمّا كانت الإجابة في كثير من الأحيان بنفي وجود مرجع ملخّص وبسيط للدارسين في المستوى الأساسي لدراسة المسجد الأقصى المبارك. كان الكثير من الإخوة والأخوات يقترحون تصنيف كتاب يتمّ فيه تلخيص أهم مبادئ دراسة المسجد الأقصى المبارك ليكون مرجعًا أساسيًّا ومدخلاً علميًّا لمن يرغب في دراسة المسجد الأقصى المبارك من البداية بأسلوب علمي سليم وبسيط جدًّا ومع التّدقيق في الموادّ والمعلومات الواردة فيه قدر الإمكان، وكنت قد بدأت بتحضير موادّ بسيطة لمن يرغب في دراسة المسجد الأقصى المبارك منذ العام 2003، وبدأت منذ تلك الفترة بتنقيحها وتعديلها كلما ظهر أمر جديد أو تغيّر شيء بناءً على البحث والتحرّي، خاصة بعد أن منَّ الله عزّ وجلّ عليَّ بأن أتابع دراستي العليا في حقل دراسات بيت المقدس، وبالتالي أكرمني الله عزّ وجلّ بالاطلاع على أبحاث

مميّزة ومصادر تاريخية مختلفة ما غيّر لديّ بعض القناعات وأظهر عندي بعض الأمور وحلَّ بعض الإشكاليّات. ورأيت أنّ الوقت قد حان الآن ليظهر هذا الكتاب ليكون مرجعًا أساسيًّا ومبسّطًا ومختصَرًا لكل من يرغب بالولوج علميًّا في مجال دراسة المسجد الأقصى المبارك ومن ثَمّ حقل دراسات بيت المقدس كمبتدئ في هذا المجال.

قضيّة الكتاب

هذا الكتاب يبحث أساسًا في إحدى أخطر قضايا العصر الحديث بين المسلمين، وهي قضية المسجد الأقصى المبارك ومعرفته ودراسته العلميّة السليمة البعيدة عن العاطفيّة التي تغلّف في أيامنا علاقة المسلمين بالأقصى وتذهب بهم بعيدًا عند الحديث عنه إلى الفضاء السياسي لا العلمي أو الأكاديمي. فلو وقفتَ في الشارع وسألتَ أيًّا من المسلمين حولك: هل تحبّ المسجد الأقصى المبارك؟ لأجابك على الفور مستغربًا من سؤالك: (بالطبع) أو على الأقلّ (نعم).. ولكنّ الإجابة لا يصحّ أن تتوقف هنا.. فإن كنت تحبُّ المسجد الأقصى المبارك فعلاً، فما دليلك على ذلك؟ هل تعرف الأقصى المبارك؟ هل تعرف تاريخه؟ بل حتى هل تعرف أين هو الأقصى وما هو؟ وصدق الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حين قال لأحد الصحابة: «إنّ لكل قولٍ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» وكم كانت هناك لقاءات مع إخوة وأخوات كانوا جميعًا يظنّون أنهم يعلمون حقيقة المسجد الأقصى المبارك، فعرفوا بعد ذلك أنهم لم يكونوا يعرفونه على الحقيقة. ولهذا يأتي هذا الكتاب ليتحدث عن المسجد الأقصى المبارك من الناحية العلمية فيكون مدخلاً علميًّا لدراسة المسجد الأقصى المبارك وفهم حقيقته ودوره في تاريخ هذه الأمة.

منهجيّة الكتاب

من اللازم هنا التأكيد على أنّ دراسة المسجد الأقصى المبارك يمكن أن تعدّ فرعًا أصيلاً من دراسات أوسع للأرض المقدّسة المحدّدة والمؤصّلة في مصادر المسلمين التاريخيّة. إلاّ أنّ التركيز في هذا الكتاب لن يكون على أوسع من حدود المسجد الأقصى المبارك التي سنهتمّ بتحديدها ودراستها أولاً، ذلك أنّ دراسات الأرض المقدّسة يوجد بينها الآن دراسات أكاديميّة هامّة بدأت تنتشر وتظهر في العالم العربي والإسلامي وحول العالم، لكنّ تخصيص المسجد الأقصى المبارك بدراسة أكاديميّة تربطه بمفاهيم الأرض المقدّسة والأرض المباركة لم تظهر بالشكل المطلوب إلى الآن.

إنّ مثل هذا الكتاب قد يحتاج للمزاوجة بين مناهج بحثيّة مختلفة أهمّها المنهج التاريخي في البحث، الذي

يمكن أن يشكّل الأساس للأرضيّة المنهجيّة لهذا الكتاب. إلا أنّ وجود بعض المواقع التي قد تحتاج إلى دراسات منهجيّة أخرى، كمنهج الحديث والتفسير ومنهج البحث الأثري، قد تلقي بظلالها وتؤدّي بنا إلى المزاوجة بين هذه الأنماط والأشكال المختلفة من المناهج البحثيّة. وهو ما يمكن أن يثري البحث في هذا الكتاب بوسائل استكشاف جديدة.

وسنبدأ بإذن الله دراسة أيّ نقطة بالنظر إلى المصادر الإسلامية الأصليّة، أي القرآن الكريم والحديث الشريف، في محاولة لفهم الروابط التي تظهرها هذه المصادر بين المسجدَين الهامَّين. ذلك بالإضافة إلى الآثار الأخرى التي توضّح أجزاء من الموضوع، بالإضافة للسيرة النبوية الشريفة. كما سنذكر آراء العلماء والمؤرخين في بعض المسائل ونرجّح بعضها على بعض بناء على النظر في الأدلة والظروف المحيطة بكل واحد من هذه الآراء.

شكل الكتاب

من الواجب في بداية هذا الكتاب أن يتمّ البدء بتعريف موضوع البحث الرئيس، أي المسجد الأقصى المبارك الذي يخفى مفهومه على الكثير من أبناء الأمة للأسف، ومن ثَمَّ نبدأ بدراسة مجالات دراسة المسجد الأقصى المبارك الثلاثة وأقسامها، وهي المفاهيم، والتاريخ، والعلاقة مع الغير.

وقد تمّ تقسيم هذا الكتاب إلى ثلاثة محاور: المحور الأول منها يهتمّ بدراسة مفاهيم المسجد الأقصى المبارك وأحكامه. والمفاهيم هنا تنقسم إلى مفاهيم عامة ميدانية تشمل الأحكام الفقهية، ومفاهيم روحانية تشمل الفضائل والعلاقة مع المسجدَين: الحرام والنبوي. والمفاهيم العامّة هنا تشمل مفهوم المسجد الأقصى الحقيقي وتسميته وشكله وجغرافيّته وشكله واتجاه بنائه. ومن ثم ندرس بعض الأحكام الفقهيّة الهامّة المتعلقة به مثل فضيلة الصخرة وتسمية الأقصى حَرَمًا. وأما المفاهيم الروحانية فندرس فيها فضائل المسجد الأقصى المبارك في القرآن الكريم والسّنّة النبويّة الشريفة، وندرس بعدها علاقة الأقصى بأخَوَيْه: المسجد الحرام والمسجد النبوي، ونركز هنا بالذات على روابط المسجد الأقصى والمسجد الحرام بالذات، وذلك لقرب فترة بنائهما، وندرس جوانب هذه العلاقة من حيث البناء العمراني، والقسَم في القرآن الكريم ورحلة الإسراء والصلاة والحج والعمرة ومفاهيم الأرض الحرام والأرض المباركة.

ثم ندرس المحور الثاني: محور التاريخ، ونجول هنا في محطات التاريخ المختلفة التي مر بها المسجد الأقصى المبارك منذ بنائه إلى اليوم. وندرس خلال هذه الجولة عدة قضايا ونظريات تاريخية متعلقة بالمسجد

الأقصى المبارك مثل مسألة الباني الأول، وعلاقة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بالأقصى، ومسائل متعلقة برحلة الإسراء والمعراج، والحروب الصليبية وغيرها من القضايا. على أننا لن نطنب في هذه الدراسة وإنما سنبحث في قضايا تاريخ المسجد الأقصى المبارك المختلفة باختصار ودون إطالة مراعاة للاختصار المتناسب مع فكرة هذا الكتاب كمدخل أساسي لدراسة المسجد الأقصى المبارك.

وعند دراسة المحور الثالث نبحث في قضايا تتعلق بعلاقة غير المسلمين بالمسجد الأقصى المبارك من الناحية الدينية والعَقَدِيّة، ونخصّ بالذكر هنا اليهود والنصارى وعلاقتهم بالأقصى، وذلك في سعي لفهم طبيعة الخلاف وحقيقة الصراع الذي ضاع في أيامنا هذه بين ركام المصالح السياسية والمصطلحات العاطفية المختلفة. فتحرير أصل المشكل واجب لفهم طبيعة العلاقة والخلاف، وبالتالي فهم طبيعة حركة التاريخ.

وهنا يجدر التأكيد مرة أخرى على أنّ هذا الكتاب موجّه أساسًا لمن يرغب بالبدء في الدخول في مجال دراسة المسجد الأقصى المبارك أو بيت المقدس أو التعرّف به ابتداءً، وليس موجّهًا للضّالعين في هذا المجال والخبراء، ولذلك سيجد القارئ أنّ المادة فيه مسهَّلة ميسَّرة بإذن الله رب العالمين لكلِّ مَن أحب أن يبدأ مشواره المبارك في هذا المجال الجليل، سائلاً المولى عزّ وجلّ أن يكون هذا الكتاب خالصًا لوجهه الكريم.

اللهمّ تقبَّل مِنَّا وأعِنَّا وأكرِمْنا بفضلك ومَنِّك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم آمـيــن.

عبد الله معروف عمر

تمهيد

دراسة المسجد الأقصى المبارك

ماذا تعني دراسة المسجد الأقصى المبارك؟؟

ربما كان هذا هو السؤال الذي يتبادر للذهن عندما يسمع المرء بأنّ للمسجد الأقصى المبارك دراسات خاصة به.. فيسأل: وهل للأقصى دراسات؟ أَوَليس الأقصى المبارك مسجدًا؟ فكيف يكون لمسجد – وهو بقعة من الأرض – دراسات تتخصص فيه؟ وهل دراسة المسجد الأقصى المبارك تعني باختصار دراسة الاحتلال الصهيوني الذي يجثم عليه اليوم؟ أم هي فرع من الدراسات الفلسطينية المنتشرة في أيامنا هذه؟

ينبغي في البداية لفت نظر المسلمين في كل الأرض إلى أنّ هناك كنوزًا يجب أن تُكتشف بين طيّات صفحات التاريخ المشرق للمسجد الأقصى المبارك، ولدى تفحّصنا لهذه الكنوز سنرى أنّ هناك عالمًا كبيرًا ينبني على دراسات وتمحيصات في مسألة المسجد الأقصى المبارك، ويتمخض عن ذلك دراسات متكاملة تتعلق بالبشر كلهم انطلاقًا من المسجد الأقصى المبارك والأرض التي تحيط به.

ما هي دراسة المسجد الأقصى؟

إنّ من يرغب في أن يلج هذا البحر الخضمّ ينبغي له أن يدرس مجموعة من المفاهيم الخاصة بالمسجد الأقصى المبارك.. والتي تصبّ في الختام في بوتقة فهم طبيعة دور المسجد الأقصى المبارك في حياة المرء والإنسانية.

ودراسة المسجد الأقصى المبارك هي فرع من مساق علميّ وحقل معرفيّ أكاديميّ كبير يتعلق بالأرض المقدّسة التي حدّدها الله عزّ وجلّ، وهو حقل دراسات بيت المقدس، وبيت المقدس هنا تعبير عن الأرض المقدّسة التي تحيط بالمسجد الأقصى المبارك وتُعتبر إقليمًا كبيرًا يختلف في حدوده عن الحدود السياسية المعروفة اليوم. وبالتالي فإنّ دراسة المسجد الأقصى المبارك باعتباره جزءًا من حقل دراسات بيت المقدس ليست فرعًا من الدراسات الفلسطينية التي تتعلق بالقضية الفلسطينية التي ظهرت مطلع القرن العشرين ولا تزال حتى أيامنا هذه، ذلك أنّ الدراسات الفلسطينية اليوم محددة بحدود سياسية وُضعت من قِبَل سلطات الانتداب البريطاني في مطلع القرن العشرين[1].

(1) وهنا بالمناسبة أرغب في تأكيد نقطة منهجيّة هامّة، وهي أنّ الكثير من السياسيّين والدُّعاة، بل وبعض العلماء في أيامنا هذه يتكلمون عن فلسطين الانتدابية باسم (فلسطين التاريخية). وهذا خلل واضح في الفهم، فالأصل أنّ الحدود التاريخية لفلسطين مختلفة تمامًا عمّا يُقصد به اليوم، أمّا ما يُسمَّى اليوم بفلسطين (التاريخية) فليس أكثر من مجرد حدود انتدابية اصطنعها البريطانيون وليس من حدود فلسطين التاريخية في شيء.

لدى دراسة ما يتعلق بالمسجد الأقصى المبارك، يمكن أن تقسم الدراسات المتعلقة به إلى ثلاثة محاور نظرية رئيسية، ومحور واحد عملي... وكل ما يدور حول المسجد الأقصى المبارك يتعلق بأحد هذه المحاور، أما المحاور النظرية الثلاثة فهي:

الأول – محور المفاهيم: ويتعلق بفهم مبادئ المسجد الأقصى المبارك ومعرفتها مثل الموقع والمساحة والجغرافيا والمفاهيم الإسلامية المتعلقة به، ومنها الأحكام الفقهية والتمييز بين أجزائه الرئيسية الحالية المختلفة مثل قبة الصخرة والجامع القبلي وغيرها وعلاقته بالمسجدَين: الحرام والنبوي، وعلاقته بمفاهيم الأرض المقدّسة والأرض التي بارك الله فيها وغير ذلك من المفاهيم النظرية.

الثاني – محور التاريخ: ولعلّ هذا المحور أكثرها بحثًا واهتمامًا بين العلماء والدّارسين، ويتمّ في العادة تقسيمه إلى فترة ما قبل الإسلام وفترة ما بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام.

الثالث – محور العقائد: وهو الذي يتناول قضية المسجد الأقصى المبارك في الإسلام أولاً.. ولدى غير المسلمين، وعلاقة المسلمين بغيرهم، ولا يدخل ضمن هذا المحور الوضع السياسي للأقصى.. لأن السياسة في نظري الشخصي محلّها التاريخ بالدرجة الأولى لأنها تصبح جزءًا منه، أمّا ما نتكلم عنه هنا فهو نظرة اليهود والنصارى للمسجد الأقصى المبارك من ناحية إيمانيّة عقديّة... والعلاقة بينهم وبين المسلمين في هذه الناحية.

وأمّا المحور العمليّ الوحيد فهو معرفة أجزاء المسجد الأقصى المبارك وتاريخها واحدًا واحدًا.. وهذا المحور العملي يتصل بالمحاور الثلاثة النظرية.. حيث إنه لمعرفة أيّ جزء من المائتي مَعْلَم (تقريبًا) الواقعة داخل المسجد الأقصى المبارك لا بدّ لك أن تتعرف موقعَه وجِهَتَه وتاريخه وما إذا كان له علاقة بغير المسلمين في عقيدتهم مثلاً (باب الرحمة) وهذا المحور لن يكون له مكان في هذا الكتاب، ذلك أننا نرجو الاختصار هنا، كما أن عددًا طيبًا من الباحثين قد غطى هذا المحور مثل د. محمد هاشم غوشة، والأستاذ أحمد فتحي خليفة وغيرهما.

1

المحور الأول

المفاهيم

1 - المفاهيم العامة

المسجِد في الإسلام

المسجِد لغةً: موضع السجود، وهو كلّ موضع يُتَعَبَّد فيه كما قال الزجّاج[2]، أي أنه مكان العبادة، ويوضّحه ما ورد في الحديث النبوي الشريف الذي رواه البخاري وغير واحد من كتب السنن: «وجُعِلَت ليَ الأرضُ مَسْجِدًا وطَهورًا.»[3] إلا أنّ الكلام هنا ليس عن أيّ موضع للصلاة، وإنما عن الموضع المبني المخصّص للصلوات والذي تقام فيه الصلوات الخمس تامّةً. وهنا تجدر الإشارة إلى دراسة قَيِّمة قام بها الدكتور رسلان محمد نور من ماليزيا، والتي توصّل خلالها إلى أنّ مفهوم بناء المسجد في الإسلام يحتاج إلى ثلاثة عوامل رئيسية:

- أرض
- حدود واضحة
- قِبلة للمسجد

هذه العوامل الثلاثة إذا توفّرت في أيّ مكان فإنه يسمّى مسجدًا[4] ويكون مَن أقامه قد بنى مسجدًا لله. وأتفق تمامًا مع هذا التحديد، حيث إن البناء نفسه في الإسلام غير مقدّس، ولا يُستثنى من ذلك إلا الكعبة المشرَّفة التي بيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه حرُمة مبناها نفسه بقوله حول فِتَن آخر الزمان: «كأنِّي به أسودَ أفحج يقلعها حجرًا حجرًا.»[5] فدلَّ بهذا الحديث على حرمة مبنى الكعبة نفسها لأنه اعتبر نقض البناء من فتن آخر الزمان، ولا يخفى أيضًا أحاديث وآثار أخرى حول حرمة دم المسلم ومقارنتها بنقض الكعبة حجرًا حجرًا وغير ذلك من النصوص.

(2) انظر لسان العرب، ج: 6، ص: 175–176.

(3) صحيح البخاري، ج: 1، ص: 90.

(4) See The Significance of Islamicjerusalem In Islam: Quranic and Hadith Perspectives, p: 178.

(5) صحيح البخاري، ج: 1، ص: 302.

المسجد الأقصى المبارك

ربما لم تَلْقَ مدينةٌ في العالم أجمع ما لقيَت مدينة القدس من اهتمام بالغ لدى الباحثين والعلماء والعامّة والمحبّين وغيرهم، وما ذلك إلا لأهمِّيَّتِها الكبيرةِ لدى أتباع الكثير من أبناء الديانات السماوية. ولعله لم يحظ موقع داخل هذه المدينة على الإطلاق بما حَظِيَ به المسجد الأقصى المبارك من اهتمام ومحبّة وصلت إلى حدّ الصراعات الدمويّة التي اصطبغت بها صفحات كثيرة من تاريخ هذه المنطقة الجليلة على مرّ الزمان. وهذا الأمر ليس غريبًا، فأرض الأقصى أرض كرّمها ربّ العزة سبحانه من فوق سبع سماوات منذ قديم الدهر، ولعل هذا ما لفت نظر المحبين إليها على الدوام.

إلا أن هذا الاهتمام بالمسجد الأقصى المبارك صاحَبه خَلْطٌ خطيرٌ في مفهوم المسجد الأقصى المبارك، وهو ما أدّى إلى عدم معرفة الكثير من المسلمين بالمقصود أصلاً من المسجد الأقصى بناءً ومفهومًا[6]. فعندما نقول (المسجد الأقصى المبارك)، تختلط الأمور في أذهان المسلمين في هذه الأيام، فمنهم من يعتبر أن الأقصى هو ذلك البناء ذو القبّة الذهبية، وبعضهم الآخر يظنّ أنّ الأقصى المبارك هو ذلك البناء ذو القبّة الرصاصيّة السوداء. ولكنّ مفهوم الأقصى المبارك الحقيقي أوسع من هذا وذاك.

أولاً - المفهوم

المسجد الأقصى المبارك هو كامل المساحة المسوَّرة الواقعة داخل البلدة القديمة بالقدس بشكل شبه مستطيل، وهو الذي يعرفه معظمهم في هذه الأيام (خطأً) باسم (الحرم القدسي الشريف)، مع العلم بأن هذه التسمية غير صحيحة شرعًا كما سنبيّن لاحقًا بإذن الله تعالى.

وبالتالي يدخل في هذا المفهوم كلا القبّتين: (الذهبيّة، والرصاصيّة).

ويتكوّن المسجد الأقصى المبارك من مجموعة من الأبنية والقِباب والمحاريب والمساطب والسُبل والآبار عدَّها الأخ الأستاذ أحمد فتحي خليفة حوالى (200) مَعلَم تاريخي، وأهمها على الإطلاق:

- **قبّة الصخرة المشرَّفة:** وهي المبنى الثُّماني ذو القبة الذهبية، وتقع في موقع القلب بالضبط بالنسبة إلى

(6) لفتت هذه النقطة نظر مجموعة من الباحثين منذ عدة سنوات، فتمّ البدء بعدّة حملات ودورات مختلفة بالتعاون مع الكثير من الإخوة على مختلف الصّعد من أجل العمل على تصحيح هذا المفهوم لدى أبناء الأمّة الإسلامية، وخاصة أنه بدأ يؤثّر سلبًا في استجابة الكثير من المسلمين للاعتداءات التي حدثت، وما زالت تحدث بحقّ المسجد الأقصى المبارك، وذلك بسبب عدم معرفة الكثير من المسلمين لمفهوم الأقصى الحقيقي العلمي.

المسجد الأقصى المبارك هو كل ما داخل السور ويشمل المبنيين الرئيسيين

المصدر: موقع أقصانا: http://www.ouraqsa.com/?action=aqsa

المسجد الأقصى المبارك، أي أنها تقع في وسطه مائلةً إلى اليسار قليلاً، وسُمِّيَت بهذا الاسم نسبةً للصخرة المشرَّفة التي تقع داخل المبنى، وتُعتبر حاليًّا مصلّى النساء في المسجد الأقصى المبارك.

- **الجامع القِبْلِي:** (بكسر القاف وتسكين الباء) وهو المسجد الذي يطلق عليه معظم الناس في هذه الأيام (خطأً) اسم (المسجد الأقصى المبارك).. وتسمية (الجَامع القِبْلي) هي تسميته الأدقُّ، ويسمّى بهذا الاسم لأنه يقع في الناحية الجنوبية من المسجد الأقصى المبارك أي ناحية (القِبلة)، ويُعتبر المصلّى الرئيسي لصلاة الرجال في المسجد الأقصى المبارك في هذه الأيام، ومكان صلاة الإمام.

- **المصلّى المرواني:** الواقع تحت أرضيّة المسجد الأقصى المبارك في الجهة الجنوبية الشرقية، وبُني في الأساس ليكون أساسًا لتسوية الأرض واستُعمل بعد ذلك مستودعًا، وهو المكان الذي حوّله الصليبيون إلى إسطبل للخيول.

- **الأقصى القديم:** ويقع تمامًا تحت الجامع القِبْلي، وبُني في العهد الأموي ليكون في الأساس مدخلاً (ملكيًّا) للمسجد الأقصى المبارك من القصور الأمويّة التي كانت تقع خارج حدود المسجد الأقصى المبارك من الجهة الجنوبية.

- **مسجد البُراق:** الواقع عند حائط البراق تحت أرضيّة المسجد الأقصى المبارك.

- **سبيل قايتْباي:** أشهر السبل والآبار الكثيرة حول الأقصى المبارك.

- **المدرسة الأشرفيّة:** وهي أشهر المدارس الكثيرة المنتشرة حول الأقصى المبارك.

- وغير ذلك من المعالم الكثيرة المتنوّعة من قِباب ومحاريب وآبار ومآذن وغيرها، إلا أنّ المجال لا يتسع للحديث عنها بالتفصيل.

ثانيًا - التسمية

للمسجد الأقصى المبارك عدة أسماء، أهمّها ثلاثة:

- **(المسجد الأقصى):** والذي سمَّى المسجد الأقصى المبارك بهذا الاسم هو ربّ العزَّة والجلال سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم، وذلك في الآية المعروفة: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:1].

وكلمة (الأقصى) تعني (الأبعد).. وإذا لاحظنا أنّ ذكر (المسجد الأقصى) في الآية الكريمة جاء بعد ذكر (المسجد الحرام) لَعَرَفْنا أنّ المقصود هو تسمية المسجد الأقصى بمعنى الأبعد نسبة لبعده عن المسجد الحرام.. ولبعض علماء التفسير آراء أخرى في هذا الأمر حيث يذكر بعضهم أنّ المعنى (الأبعد عن الدّنَس) أو (الأبعد عن الذنوب) وغير ذلك من الآراء، ولكني أقول إن المعنى الأوضح في الآية الكريمة كما يبدو جليًّا هو تبيان البعد المكاني للأقصى بالنسبة للمسجد الحرام، ولا أرى داعيًا للابتعاد عن ظاهر الآية الكريمة في هذا الأمر.

وهنا قد يسأل سائل: لماذا لم يقل سبحانه وتعالى (المسجد القصيّ) أي (المسجد البعيد) بدلاً من (الأقصى) بمعنى (الأبعد)، حيث إن المقارنة المطلقة بهذه الصيغة توحي بالمقارنة بين أكثر من اثنين... وهنا لا بدّ أن نتذكر أن هناك مسجدًا ثالثًا في الإسلام هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولم يكن قد بُني وقتَ نزول هذه الآية الكريمة لأنها مكّيّة)، وهنا يظهر المعنى واضحًا عند المقارنة بين المساجد الثلاثة الكريمة، فمركز الأرض هو المسجد الحرام، وبعده المسجد النبوي الشريف، أمّا المسجد الأبعد فهو المسجد الأقصى المبارك وليس بعده مسجد آخر له مكانة خاصة في الإسلام غير هذه المساجد الثلاثة، ولو وصلْتَ بين مواقع المساجد الثلاثة على الخريطة لتَشَكَّل لديك مثلّث غير متساوي الأضلاع، حَيث تكون قاعدته الواصلة بين المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف قصيرة جدًّا بالنسبة للمسافة بينهما وبين المسجد الأقصى المبارك، وهو ما يبين لك الأمر بشكل عملي.

- **(البيت المُقَدَّس):** هو اسم آخر للمسجد، ومقصوده تبيان الميزة الكبرى لهذا المسجد، فكما أن اسم (المسجد الحرام) في مكة المكرّمة يبين ميزته الأساسية وهي (الحرمة)، فإن هذا الاسم يبين ميزة أساسية لهذا المسجد المبارك وهي (القدسيّة). والتقديس هو التطهير ورفع المنزلة. ولذلك فهو مسجد طاهر رفيع المنزلة بدرجة كبيرة جدًّا عند رب العزة سبحانه وتعالى.

وذكر هذا الاسم الشعراء كثيرًا، ورحم الله الإمام العسقلاني الذي ذكره في بيتين من الشعر قالهما عند زيارته للمسجد الأقصى المبارك:

إلى البيت المقدَّس قد أتينا ... جِنانَ الخُلدِ نُزُلاً من كريـــمِ

قَطَعْنـا في محبَّتِـه عِقـابًـا ... وما بعد العِقابِ سوى النعيـمِ[7]

كما ذكره الشاعر الذي كان من أهل دمشق أسيرًا لدى الصليبيّين، في ندائه للسلطان الناصر صلاح الدين رحمه الله تعالى في أبياته الشهيرة إبّان الاحتلال الصليبي:

يـا أيها الملكُ الـذي ... لمعالمِ الصُّلبان نَكَّـسْ

جاءت إليك ظلامـةٌ ... تسعَى من البيتِ المقدَّسْ

كلُّ المساجد طُهِّـرَتْ ... وأنـا على شرَفي أُدَنَّسْ[8]

- **(بيت المَقْدِس):** وهذا الاسم هو الاسم الذي كان متعارَفًا عليه قبل أن تطلق عليه التسمية القرآنية المعروفة اليوم، وفي معظم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ذكر فيها المسجد كان يقول: (بيت المَقْدِس)، ومن ذلك مثلاً ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في حديث الإسراء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُتِيتُ بالبُراقِ وهو دابّة، أبيضُ فوقَ الحمار ودون البغل، يضع حافرَه عند منتهى طرْفِه فركِبْتُهُ فسارَ بي حتى أتيتُ - بيتَ المَقدِس - فربطتُ الدابَّة بالحلقةِ التي يَربِطُ فيها الأنبياءُ ثم دخلتُ فصلّيْتُ فيه ركعتين ثم خرجتُ...» إلى آخر الحديث.[9]

لاحِظ الضمير في كلمة (فيه) فهي عائدة إلى كلمة (بيت المقدس)، وبالتالي فالمقصود من كلمة (بيت

(7) نقل هذين البيتين عن الإمام العسقلاني رحمه الله تعالى الشيخ عبد الغني النابلسي خلال الفترة العثمانية في كتابه: الحضرة الأنسيّة في الرحلة القدسيّة، ص: 95.

(8) نقلها صاحب إتحاف الأخصا، ورقة: 151.

(9) مسند أحمد بن حنبل، ج: 10، ص: 480.

المقدس) في الحديث الشريف هو المسجد الأقصى المبارك، وليس المدينة أو منطقة بيت المقدس التي حول مدينة القدس، لأن كلمة (المدينة) مؤنثة، وكذلك لو قصد ببيت المقدس المنطقة لكان لا بدّ أن تكون مؤنّثة، فلمّا كانت الإشارة إلى (بيت المقدس) بالتذكير، علمنا مباشرة أنّ المقصود هو أنّ بيت المقدس هو المسجد الأقصى المبارك.

كذلك انظر إلى حديث بناء سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام للأقصى المبارك: فقد روى النسائي وابن ماجه في سننهما عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنّ سليمانَ بن داود صلّى الله عليه وسلّم لمَّا بنى بيت المقدِس سأل اللهَ عزّ وجلّ خِلالاً ثَلاثًا: سأل الله عزّ وجلّ حُكمًا يصادِفُ حُكمَهُ فأوتِيَهُ، وسأل الله عزّ وجلّ مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدِهِ فأوتِيَه، وسأل الله عزّ وجلّ حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا يَنهَزُهُ إلا الصلاة فيه أن يُخرجَه من خطيئَته كيوم وَلَدَتْهُ أمُّه. وفي رواية ابن ماجه: لمَّا فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثًا: حُكمًا يصادف حُكمَهُ ومُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده وألاّ يأتي هذا المسجدَ أحدٌ لا يريد إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدَتْهُ أمُّه، فقال النبي صلّى الله عليه وسلم: «أما اثنتان فقد أعطِيَهما وأرجو أن يكون قد أعطِيَ الثالثة.»[10]

والواضح من الحديث أن الكلام هو عن (المسجد) وليس المدينة، لأن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام لم يَبْنِ مدينة القدس ولم يُعِد بناءها، وإنما أعاد بناء المسجد الأقصى المبارك، ومدينة القدس كانت موجودة قبل أن يكون سيدنا سليمان عليه السلام ملكًا، بل حتى قبل سيدنا داود عليه السلام، لأنها يبوسيّة البناء منذ البداية، ولا يصحّ أن يقصد بكلمة (بيت المقدس) منطقة بيت المقدس التي تحيط بمدينة القدس، لأنها منطقة إقليمية كبرى، والمنطقة الإقليمية لا تبنى، لأن فيها الأرض الفارغة والمدن والقرى وما إلى ذلك.

كما أن حديث الإمام أحمد التالي يبين ذلك أيضًا، فقد روى أحمد في مُسنده عَنْ ذِي الأَصَابِعِ قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِ ابْتُلِينَا بَعْدَكَ بِالْبَقَاءِ أَيْنَ تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: عَلَيْكَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَنْشَأَ لَكَ ذُرِّيَّةٌ يَغْدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ وَيَرُوحُونَ.»[11] ولاحظ إسم الإشارة (ذلك المسجد) فهو عائد إلى ما ذُكر سابقًا وهو (بيت المقدس)، كما أنّ اسم القدس أيام النبي عليه الصلاة والسلام في تلك الفترة كان (إيلياء) كما هو معروف. والمحصّلة أنّ هذا الاسم كان قديمًا، وأُطلق من بعدُ أيضًا على مدينة القدس كاملةً.

هذه أشهَر الأسماء لهذا المسجد المبارك، وكلُّها يدلُّ على مدى عظَمته وقدسيّته وعلوّ منزلته عند الله رب العالمين.. وليتذكَّرَ أولو الألباب.

(10) سنن النسائي، ج: 1، ص: 112، وسنن ابن ماجه، ص: 206.

(11) مسند أحمد بن حنبل، ج: 13، ص: 99.

ملاحظة على تسمية (بيت المقدس)

لا بد هنا من التنبيه إلى أنّ تسمية (بيت المقدس) فيها اختلاف في المعاني بين العلماء في معظم الأحوال. فهناك ثلاثة معانٍ قد تفضي إليها هذه التسمية وقد استُعملت عدة مرات في عدة أحوال، وفي كلّ مرة لتبين معنىً معيّنًا من هذه المعاني الثلاثة، وهي:

أ ـ بيت المقدس = المسجد الأقصى المبارك

وقد ذكرنا لك ذلك سابقًا عند الحديث عن تسمية المسجد الأقصى المبارك ببيت المقدس، واللافت للنظر أننا لو طبّقنا هذه التسمية على أحاديث النبي صلى الله عليه وسلّم لوجدنا أن النبيّ عليه الصلاة والسلام استعملها بكثرة للدلالة على المسجد الأقصى المبارك، وهذا ما أميل إليه بعد استقراء أحاديث النبيّ عليه الصلاة والسلام الخاصة بـ(بيت المقدس) كما لاحظنا سابقًا، والمجال هنا ضيّق لذكر جميع الأحاديث التي ذكر النبيّ عليه السلام فيها بيت المقدس لأدلّل على أنه عنى المسجد الأقصى المبارك، وكان هذا الأمر قد دُرِس بتوسّع سابقًا، وقَدَّم كاتب هذه السطور من خلال الدراسة فيه ورقة للمؤتمر الدولي لدراسات بيت المقدس في المملكة المتحدة عام 2005م، ولكننا قلنا هنا (بكثرة) وليس (في جميع) أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك تحرّيًا للدقة والأمانة العلمية.

ب ـ بيت المقدس = مدينة القدس

في العادة يطلق هذا الاسم في كتب التاريخ التي كتبها المسلمون على مدينة القدس المعروفة في زمانهم وهي المدينة المسوّرة، أو ما يطلق عليه اليوم اسم (البلدة القديمة) مع ملاحظة أن سور القدس تغيَّر وتمدّد وتقلّص عِبْر التاريخ عدة مرات.

وهذه التسمية لم تكن موجودة (باعتبار إشارتها للمدينة المسوّرة) على نطاق واسع في بداية الفتح الإسلامي كما يبدو من الكتابات والتأريخ الإسلامي الذي ذكر مدينة القدس في تلك الفترة، ومن ذلك مثلاً العهدة العمريّة وأوّل نقد سكّه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في القدس، والذي حمل اسم (إيلياء) وليس القدس، بينما ظهر اسم (القدس) في زمن الخليفة العباسي المأمون ومن بعده ظهرت تسمية (بيت المقدس) للمدينة نفسها لاحقًا، وانتشر هذا الاسم بكثرة في فترة الحروب الصليبية وما بعدها.

ج ـ بيت المقدس = المنطقة الإقليمية الجغرافية المحيطة بالمدينة المقدّسة

وقد بدأ البحث في هذا المعنى لتسمية (بيت المقدس) حديثًا، ومن علمائنا الأجلّاء الذين استعملوا هذه

التسمية للدلالة على منطقة محيطة بالمدينة المقدّسة الإمام شمس الدين المَقدِسي الذي ذكرها باسم (القدس)كمنطقة، وليس كمدينة، ومن الباحثين المحدثين الذين حاولوا بجهد طيّب أن يحدّدوا حدود منطقة بيت المقدس الأخ الدكتور عثمان الطل والأخ الدكتور خالد العويسي، وقد قدم د. خالد مشكورًا في ذلك بحثًا طويلاً ومميزًا بعنوان Mapping Islamicjerusalem [12] ولكنّ بحثنا في هذا الكتاب لن يكون كبيرًا في هذا الموضوع طلبًا للاختصار بإذن الله رب العالمين.

كما أن ممّن اهتمّ بهذا المعنى لتسمية بيت المقدس (أي كونها إقليمًا) الأستاذ الدكتور عبد الفتاح العويسي ، والذي خرج في أواسط عام 2005 بتعريف مطوّل لمنطقة إقليم بيت المقدس وسجّل ذلك في كتابه Introducing Islamicjerusalem، الذي ترجمه فيما بعد إلى اللغة العربية في كتاب بعنوان (تقديم بيت المقدس)، صدر عن دار الفكر العربي في القاهرة عام 2006، وأعيدت طباعته وصدر مرة أخرى عن مؤسسة فلسطين للثقافة في دمشق عام 2008.

ولكي لا يحصل خلل لدى القارئ العزيز، فإننا في هذه الدراسة سنشير إلى المقصود بكلمة (بيت المقدس) سواء أكان المسجد أم المدينة أم المنطقة في حال الحاجة إلى ذلك بإذن الله.

ثالثًا - الموقع والمساحة

يتشكّل المسجد الأقصى المبارك من هضبةٍ تسمى هضبة (موريا) وتنخفض المنطقة الجنوبية فيه كثيرًا عن المنطقة الوسطى والشمالية، ثم تنتهي الهضبة في نهاية ساحة الصخرة المشرّفة، ويبدأ المكان بالارتفاع التدريجي باتجاه منطقة الساهرة خارج المسجد والبلدة القديمة. وأما تضاريس المسجد الأقصى المبارك والمدينة المقدسة من الشرق إلى الغرب، فإنه محاط بواديَيْن: من الشرق وادي جهنم (وادي قدرون) قبل جبل الزيتون (الطور)، ومن الغرب وادي الربابة وما جاوره قِبَل جبل صهيون.

يقع المسجد الأقصى المبارك في الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة القدس المسوَّرة، والتي تسمّى حاليًّا (البلدة القديمة)، ويشكّل حوالي سدس مساحة البلدة القديمة، وتبلغ مساحته حوالي 144 دونمًا (الدونم = 1000 متر مربع) أي 144 ألف متر مربع.

(12) تعبير Islamicjerusalem هو التعبير المختار للدلالة على منطقة إقليم بيت المقدس، وهناك حاليًّا مساقات ودراسات موسّعة في هذا المجال في جامعة أبردين في المملكة المتحدة، ونأمل بأن يتطور هذا المجال الأكاديمي وينتقل إلى العالم العربي والإسلامي لأهميته الكبرى في دراسة تاريخ هذه المنطقة في الفترة الإسلامية بالذات وفي المصادر الإسلامية الرئيسة: القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة.

وهو يشكّل في الحقيقة هضبة موريا (Moria) نفسها، وأعلى نقطة فيه هي الصخرة المشرّفة الواقعة في موقع القلب بالنسبة للمسجد الأقصى المبارك.

ولا بد هنا من أن نذكر أنّ هناك خلافًا بين العلماء والدارسين للمسجد الأقصى المبارك في تعريف الصخرة نفسها، فنجد أنّ بعض العلماء ينصّ على أنّ هضبة موريا كلها هي عبارة عن صخرة بيت المقدِس، وهناك آخرون ينصّون على أن الصخرة هي المنطقة التي تقع عليها اليوم ساحة الصخرة المشرّفة كلها (أي المنطقة العليا من المسجد الأقصى المبارك فقط).

كما نجد رأيًا ثالثًا ينص على أن الصخرة هي فقط الجزء الذي يقع تحت القبة الذهبية وأبعادها حوالى 13 – 18 مترًا بِسِمْك حوالي مترين. وأنا شخصيًّا أميل إلى هذا الرأي بعد استقراء الكثير من آراء العلماء هنا وهناك في حديثهم عن الصخرة وفضائلها، والكثير من الروايات المستفيضة بين المسلمين مثل رواية دخول عمر بن الخطاب المسجد الأقصى المبارك واستشارته لكعب الأحبار في أنسب مكان لبناء المصلّى، فكانت إشارته أن يكون البناء خلف الصخرة كما سيأتي معنا لاحقًا عند دراسة هذه النقطة، ولم يكن اعتراض عمر على المكان بسبب موقع الصخرة بل بسبب جمع قبلة اليهود والمسلمين معًا كما سيأتي معنا لاحقًا، وبالتالي لو كانت الصخرة هي كل هضبة موريا وافترضنا أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وافق إشارة كعب وبنى المصلّى خلف الصخرة لكان مصلّى عمر خارج المسجد الأقصى المبارك لأن هضبة موريا كلها (التي هي الصخرة نفسها بناء على هذا الرأي) هي كل أرض المسجد الأقصى المبارك! وهذا مستحيل بالطبع...! كما أن هضبة موريا تتشكل من طبقات صخرية رسوبية متعددة، والصخرة الموجودة تحت القبة الذهبية تتكون من طبقة صخرية واحدة كما فحصْتُها ورأيتُها بنفسي، حيث يمكن فحص مقطع في الصخرة من خلال الحفرة التي تخترقها والطبقات الصخرية التي تقع داخل المغارة التي تسمّى (مغارة الأرواح) والتي تقع في جوف الصخرة أو تحت جزء صغير منها، وهو المعقول في نظري بالنسبة للصخرة، وبالتالي تكون الصخرة جزءًا من هضبة موريا يقع في أعلاها وليس كل الهضبة.

وأما بالنسبة للرأي الثاني وهو أن الصخرة هي كامل المساحة التي تسمى اليوم (ساحة الصخرة المشرّفة) ففيه إشكالية أنّ هذه المنطقة أيضًا تتشكل من عدة طبقات رسوبية منفصلة متمايزة بعضها عن بعض، كما أنّ اتصالها بباقي أجزاء هضبة موريا مختلف عن اتصال الجزء الأعلى منها (الصخرة الواقعة تحت القبة الذهبية) بها.

ولدى استقرائنا لمقولات العلماء حول الصخرة المشرَّفة ووصفهم لها نجد أن الكثير منهم يتكلم عن

الصخرة على أساس أنها الجزء الواقع تحت القبّة الذهبية فقط. وسنرى ذلك في البند الذي يتحدث عن حقيقة الصخرة المشرَّفة والخُزَعْبلات التي انتشرت عنها بين المسلمين وردّ العلماء عليها بإذن الله. ويَتبيَّن لنا إذن أنّ الصخرة هي التي تقع مباشرة تحت القبّة الذهبية في المسجد الأقصى المبارك.

رابعًا - شكل المسجد الأقصى المبارك واتجاه بنائه

في الحقيقة فأنّ هذا البند لم يكن قد بُحث سابقًا بالتفصيل فيما أعلم، حيث لم يسبق لأحد أن تساءل عن شكل المسجد الأقصى المبارك وهيئته التي لا هي مستطيلة ولا مربعة، وأمّا اتجاه بنائه فإنّ العجيب فيه أنه جاء طبيعيًّا باتجاه مكة المكرّمة، وكأن الله عزّ وجلّ قد هيّأه ليكون متّجهًا إلى قِبلة الأمّة الخاتمة، وسبحان الله رب العالمين، وهذا الأمر كنت قد لاحظته في اتجاه سور المسجد الشرقي والجنوبي بالذات وظننت أنه لم ينتبه إليه أحد، وكنت أتمنى لو يتم بحث هذا الأمر بالتفصيل، حتى وجدت أحد الأساتذة الكرام وهو الأخ الدكتور هيثم الرطروط[13] قد بحث هذا الأمر بالتفصيل في أطروحته لنيْل درجة الدكتوراه، وأخرجه في كتاب متميز باللغة الإنجليزية، وسيتم الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن علاقة الأقصى بالمسجد الحرام.

والأجمل من ذلك كان إثبات أمر آخر لا يقلّ عن ذلك الذي قلناه أهميّة، بل له ما له من العظمة والرفعة في بناء المسجد الأقصى المبارك، حيث أثبت الأخ د. هيثم باستقراء وصف البناء الأصلي للكعبة المشرّفة أيام آدم عليه السلام ومن بعده أيام إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن شكل المسجد الأقصى والكعبة المشرّفة واحد..!! وهو ما سنفصّل فيه بعض التفصيل عند الحديث عن العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى المبارك بإذن الله.

2 - الأحكام

الصخرة المشرَّفة

الصخرة المشرَّفة هي صخرة طبيعية غير منتظمة الشكل تقع في أعلى نقطة من المسجد الأقصى المبارك في موقع قلب المسجد بالضبط، وهي صخرة طبيعية تتراوح أبعادها بين حوالي 13 مترًا و18 مترًا، ويبلغ ارتفاعها

(13) الأخ المهندس الدكتور هيثم الرطروط محاضر حاليًّا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس بفلسطين، وقد نال درجة الماجستير عن بحث بعنوان: نظرية جديدة في تفسير بناء قبة الصخرة المشرّفة، كما نال درجة الدكتوراة عن بحث بعنوان: تطور بناء المسجد الأقصى المبارك نال عنها جائزة مجمع البحوث الإسلامية للعلماء الشبان في دراسات بيت المقدس، وله عدة أبحاث أخرى، وكلٌّ من رسالتيه للماجستير (باللغة العربية) والدكتوراه (باللغة الإنجليزية) تمّت طباعتهما في كتابين، كما أنّ له أكثر من بحث حول تطوّرات بناء المسجد الأقصى المبارك أثريًّا وهندسيًّا.

الصخرة المشرّفة (المصدر: الشبكة الدولية)

حوالي المترين تقريبًا، وقد دارت حولها القصص الخيالية غير الصحيحة بشكل كبير، فمن قائل إنها طائرة في الهواء، ومن قائل إنها طارت خلف النبي عليه السلام، ومن قائل إن لها نورًا، وغير ذلك.. والحقيقة أنها صخرة عاديّة ليس فيها أيّ ميزة إلا أنها كانت قِبلة أنبياء بني إسرائيل قبل النبي عليه الصلاة والسلام، وقيل إن النبي عليه الصلاة والسلام عرج من فوقها للسماء ليلة الإسراء والمعراج، وفيها مغارة صغيرة تسمّى (مغارة الأرواح) وهي تجويف طبيعي أيضًا وليس فيه أيّ ميزة خارقة للعادة. وقد بُنيت قبّة الصخرة المشرَّفة فوق الصخرة، وهي ظاهرة للعيان إلى اليوم.

وحاكت القصص الشعبية خيالات وخُزَعْبلات كثيرة حول الصخرة المشرَّفة، ذكرها الكثير من العلماء، وجمعها الأخ الأستاذ عيسى القدومي في كتابه (المسجد الأقصى: الحقيقة والتاريخ)، فمن هذه الخُزَعْبَلات والأكاذيب التي جمعها أ. القدومي:

- أنها من صخور الجنّة.
- تحوّل صخرة بيت المقدس مرجانة بيضاء.
- سيّدة الصخور.
- مياه الأرض كلها تخرج من تحت الصخرةّ.
- صخرة معلّقة من كلّ الجهات.
- عليها موضع قدم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.
- وعليها أثر أصابع الملائكة.
- الماء الذي يخرج من أصل الصخرة.
- أنها على نهر من أنهار الجنّة.
- المياه العذبة والرياح اللواقح من تحت صخرة ببيت المقدس.

- عرش الله الأدنى، ومن تحتها بسطت الأرض.
- الصخرة وسط الدنيا، وأوسط الأرض كلها.
- لها مكانة الحجر الأسود في الكعبة.

وقد أنكر العلماء هذا التعلق بالصخرة، وبيّنوا أنها صخرة طبيعية وجزء من المسجد الأقصى، وليس لها أيّة ميزة خاصّة.

فقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى / كتاب الزيارة فقال : «أما أهل العلم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فلم يكونوا يعظّمون الصخرة، وما يذكره بعض الجهّال فيها من أنّ هناك أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم وأثر عمامته، وغير ذلك، فكلّه كذب، وأكذب منه من يظن أنه موضع قدم الرب.»

أمّا الإمام ابن قيّم الجوزيّة رحمه الله، تلميذ الإمام ابن تيمية، فقد ذكر ضعف كل الأحاديث الواردة في فضل الصخرة وكذّبها ، فقال في كتابه (المنار المنيف): «وكل حديث في الصخرة فهو كذب مفترى، والقدم التي فيها كذب موضوع مما عملَتْه أيدي المزوّرين، الذين يروّجون لها ليكثر سواد الزائرين، وأرفع شيء في الصخرة أنها كانت قِبلة اليهود، وهي في المكان كيوم السبت في الزمان، أبدل الله بها هذه الأمّة المحمديّة الكعبة البيت الحرام».

وأمّا عبد الله بن هشام صاحب كتاب (تحصيل الأنس لزائر القدس) فيقول: «قد بلغني أنّ قومًا من الجهلاء يجتمعون يوم عَرفة بالمسجد، وأنّ منهم من يطوف بالصخرة، وأنهم ينفرون عند غروب الشمس، وكلّ ذلك ضلال وأضغاث أحلام.»

ويقول القدومي: «وقد برّر البعض ممن كتب في فضائل بيت المقدس التساهل في التدقيق بالأحاديث الواردة من باب أنه في فضائل الأعمال يُعْمل بالأحاديث الضعيفة، وقد تجاوز البعض حتى نقل المكذوب والموضوع، وأخذ من كلام القُصّاص مما لا ينبغي ذكره.» والبعض يسرد تلك الأحاديث، ولا يشير أدنى إشارة إلى ضعفها ووهنها، بل ويروونها وكأنها من الصحاح التي لا خلاف فيها.

وتنبيه الناس على أمر صخرة بيت المقدس لا يقلل من فضائل المسجد الأقصى وبيت المقدس بالبركة والفضيلة، وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتب الصحاح والسنن الكثير من الأحاديث التي نصّت على ما حباه الله تعالى من الخير والبركة، وبيّنت الخصائص التي تميّز بها المسجد الأقصى وأرضه لما لها من مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة في الشرع الإسلامي. فبركة المسجد الأقصى ثابتة بالكتاب والسنّة، ولنا غِنىً في الصحيح منها عن الموضوع والمكذوب.

وخلاصة الأمر أنّ كل ما قيل في هذه الصخرة أصله من الإسرائيليّات، وليس له أصل في المصادر الإسلامية الأساسيّة سواء القرآن الكريم أو الصحيح من حديث النبي صلى الله عليه وسلم[14]. وما التركيز على هذا الأمر إلا بسبب انتشار كبير لبعض هذه الخُزَعْبلات بين المسلمين في هذه الأيام، وخاصة مسألة تعليق الصخرة في الهواء! وحدثت مع كاتب هذه السطور عدة قصص طريفة في هذا الموضوع، وعجبًا لهذا الأمر كيف تسيطر الخرافة أحيانًا على العقل فيُكَذّب المرءُ بصرَه وحواسَّه لأجل خرافة لا تقدّم ولا تؤخّر في إيماننا بالله عزّ وجلّ. والله سبحانه وتعالى خلق لنا عقولاً لنفكّر ونبني ونستنتج، واللازم أن نستخدم العقل في محلّه ولا تغرينا غرابة القصة أو لطف أحداثها أن نتمعنّ ونتفكّر ونحاكمها إلى العقل.

تسمية الأقصى المبارك (الحرَم)

يخطر في أذهان الكثيرين سؤال ملحّ عن المسجد الأقصى: أليس هو الحرَم القدسي الشريف..؟! هذا السؤال يظهر ملحًّا لدى كثير من الدارسين والمهتمّين بالمسجد الأقصى المبارك.. خاصة عندما يفاجأ المرء بأنّ الحكم الشرعي عدم جواز هذه التسمية، والواجب أوّلاً في هذه النقطة معرفة أنّ المسجد الأقصى المذكور في القرآن الكريم ليس هو الجامع القِبلي ذا القبّة السوداء الذي أصبح معظم الناس يظنّه هو المسجد الأقصى المبارك كما أسلفنا، وإنما منطقة المسجد الأقصى المبارك الحقيقي تشمل كل ما يسمّى الآن (خطأً) اسم (الحَرَم القدسي الشريف)، شاملة قبّة الصخرة المشرَّفة وغيرها..!! وكلمة (الحَرَم) لا يصحّ أن تُطلَق على المسجد الأقصى المبارك لأنه ليس حَرَمًا ولا تسري عليه أحكام الحَرَم، ولا حَرَمَ في الإسلام إلا مكّة والمدينة فقط..!!

ومنبع الحكم بخطأ تسمية (الحَرَم) هنا ليس في تقديس الأقصى المبارك أو المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف أو الحطّ من قيمتهم، وإنما لأنّ لفظة (حَرَم) في ذاتها ينبني عليها أحكام فقهيّة معيّنة، فعلى سبيل المثال: لا يجوز الصيد في الحَرَم، ولا يجوز قطْع الشجر، ولا يجوز التقاط اللقطة (أي المال أو الحوائج الصغيرة الضائعة) إلا لباحث عن صاحبها، إلى غير ذلك من الأحكام الفقهيّة المتعلّقة بالحَرَم. وهذه الأحكام غير مطبّقة في المسجد الأقصى المبارك ولا يصحّ ادعاء ضرورة تسمية الأقصى حَرَمًا لأنك في هذه الحالة تدّعي أنّ الأقصى يجب أن تسري عليه أحكام الحرَم التي ذكرها الفقهاء، وهذا الأمر غير محقَّق هناك ولا يصحّ.

(14) هذا الموضوع منقول بتصرّف عن كتاب (المسجد الأقصى: الحقيقة والتاريخ)، حَيث قام المؤلف مشكورًا بجمع أهمّ هذه الخُزَعْبَلات وأهم الردود التي وردت عليها من العلماء الأجلاّء بدلاً من أن يتمّ إعادة البحث في هذه النقاط من جديد وجمعها من بطون الكتب . فجزاه الله تعالى خيرًا.

وقد شاعت تسمية المسجد الأقصى المبارك بالحَرَم عند عامّة الناس في ديار فلسطين وعند بعض الكاتبين المعاصرين، وكان ذلك منذ العصر الأيوبي المتأخر والعصر المملوكي وامتدّ إلى اليوم، فنجدهم يطلقون على المسجد الأقصى اسم (الحَرَم القدسي الشريف) حتى لقد استُحدث في تلك العصور منصبٌ سُمِّيَ (ناظر الحَرَمَيْن) والمقصود بالحَرَمَين هنا لم يكن حَرَمي مكة والمدينة وإنما ما سُمِّي (الحَرَم القدسي الشريف) وهو المسجد الأقصى المبارك في مدينة القدس، وما سُمِّي (الحرم الإبراهيمي الشريف) وهو المسجد الإبراهيمي في مدينة الخليل.

ومن المؤسف أنّ هذه التسمية شائعة حتى بين بعض من كبار علماء عصرنا الحالي ودعاته ولا يدري أحد خطرَها الشديد على حقيقة الأقصى المبارك. فهذه التسمية غير صحيحة لأن المعلوم عند أهل العلم أنه لا يوجد عند المسلمين إلا حرَمان وهما حرَم مكة وحرَم المدينة وهذا باتفاق أكثر العلماء، وأضاف الشافعيّة حرَمًا ثالثًا وهو وادي (وج) قرب الطائف ولكن دليلهم في ذلك ضعيف.

وهنا ينبغي تأكيد أنه لا يصحّ إطلاق اسم الحرَم إلا على الحرَمين: حرَم مكة وحرَم المدينة، ولا يصحّ شرعًا إطلاق اسم الحرَم على المسجد الأقصى المبارك ولا على المسجد الإبراهيمي في الخليل، وليس لهذه التسمية فيهما أيّ أصل من كتاب أو سنّة أو حتّى من غيرهما . وذكر ذلك شمس الدين السيوطي في إتحاف الأخصا فقال: (ولا يقال له الحرَم)[15]. وممن تحدث في هذا الموضوع بإسهاب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين قال في مجموع الفتاوى: «وليس ببيت المقدس مكان يسمّى حَرَمًا ولا بتربة الخليل ولا بغير ذلك من البقاع إلا ثلاثة أماكن، أحدها : هو حرَم باتفاق المسلمين وهو حرَم مكة شرَّفها الله تعالى، والثاني: حرَم عند جمهور العلماء وهو حرم النبي صلى الله عليه وسلم من عير إلى ثور بريد في بريد، فإنّ هذا حرَم عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد، وفيه أحاديث صحيحة مستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم، والثالث: «وج»، وهو وادٍ بالطائف، فإنّ هذا رُوِيَ فيه حديث رواه أحمد في المسند وليس في الصحاح، وهذا حرَم عند الشافعي لاعتقاده صحّة الحديث، وليس حرمًا عند أكثر العلماء، وأحمد ضعّف الحديث المروي فيه فلم يأخذ به. وأما ما سوى هذه الأماكن الثلاثة فليس حرَمًا عند أحد من علماء المسلمين فإنّ الحرَم ما حرّم الله صيْدَه ونباتَه، ولم يحرِّم اللهُ صيْدَ مكانٍ ونباتِه خارجًا عن هذه الأماكن الثلاثة.»[16]

كما ينبغي أن ننبّه إلى أنّ لفظ (حرم) الذي يطلق اليوم على المسجد الأقصى المبارك لم يذكره أحد من

(15) إتحاف الأخصا، ورقة: 16 .

(16) مجموع الفتاوى، ج: 27/14، ص: 13 .

العلماء والمؤرّخين المحقّقين المعتبَرين مثل الإمام بدر الدين الزركشي ومجير الدين العليمي وعبد الغني النابلسي وغيرهم.

والمشكلة في هذه التسمية في أيامنا هذه في الحقيقة تتعدى الخلل الفقهي أو اللغوي إلى الخطر على ماهية المسجد الأقصى المبارك نفسه و كينونته، ذلك أنّ إطلاق لفظ (الحرَم القدسي الشريف) على المساحة الكاملة للمسجد الأقصى المبارك توحي بأنّ هذا (الحرَم) يختلف تمامًا عن المسجد الأقصى المبارك الذي تمّ تقزيمه إلى مجرد مساحة صغيرة هي مساحة الجامع القبلي..!! وصار المسلمون في أغلبهم يظنون أنّ المسجد الأقصى شيء و(الحرَم القدسي) شيء آخر..! وعلى المسلمين أن يدركوا الخطر الشديد في هذه التسمية، حيث إن سلطات الاحتلال الحاليّة استفادت من هذا الخلل في فهم ماهيّة الأقصى المبارك وكينونته في أذهان المسلمين لتقسم الأقصى المبارك إلى أماكن ثلاثة: (المسجد الأقصى) ويقصدون به الجامع القبلي فقط، و(قبّة الصخرة) كما هي معروفة، و(ساحات جبل المعبد) التي هي في الحقيقة باقي مساحة المسجد الأقصى المبارك الحقيقي! وتسري في القانون الإسرائيلي الحالي أحكام الساحات العامّة على جميع ساحات المسجد الأقصى المبارك ، بينما يعترف القانونيّون الإسرائيليون بالجامع القبلي وقبّة الصخرة باعتبارهما مكانين مقدَّسَين للمسلمين على أساس أن الجامع القبلي هو فقط (المسجد الأقصى).

وأدلّل على الخطر الذي أراه محدقًا بالأقصى المبارك كله بموقفين حدث أحدهما معي، وحدث الآخر أمامي على شاشة التلفاز. أمّا الأول، فقد حدث أثناء محاضرة كنت أُلْقيها أنّي ذكرت قصة دخول رئيس الحكومة الإسرائيلية السابق أرئيل شارون إلى المسجد الأقصى المبارك في بداية انتفاضة الأقصى عام 2000م، إذ فاجأني سؤال من أحد الحضور: «هل حقًّا دخل شارون إلى الأقصى؟» قلت: «نعم»، قال: «ودخل بحذائه؟» قلت: «بالطبع»، قال: «هل تعني أنه داس على السجّاد؟»، فقلت: «لا بالطبع، لأنه دخل الساحات ولم يدخل الجامع»، فقال السائل متعجبًا: «إذن هو لم يدخل المسجد الأقصى..!! فعلامَ إذن كانت كل تلك الضجة؟؟». ويبدو جليًّا أن فهم السائل لمفهوم المسجد الأقصى المبارَك باعتباره شيئًا غير (الحرَم القدسي) قد أثّر كثيرًا في تقديره لخطورة حادثة اقتحام أرئيل شارون للأقصى فظنّ أن الأقصى كان معافىً ولم يحدث فيه شيء..!

وأمّا القصة الثانية فقد حدثت أمامي على التلفاز عام 2007م، عندما اقتحمت قوات الاحتلال ساحات المسجد الأقصى المبارك، فاستضافت قناة الجزيرة الفضائية متحدثًا باسم الشرطة الإسرائيلية، الذي حاول أن يهدّئ الخواطر فإذا به يقول: «قوّات الشرطة لم تقتحم المسجد الأقصى، بل اقتحمت ساحات جبل المعبد ولم يدخل شرطيّ واحد إلى داخل المسجد الأقصى.» وأظنه يبدو جليًّا لديك الآن ما كان يقصده المتحدث باسم الشرطة، إذ كان يفرّق بوضوح بين الساحات وبين المسجد اعتمادًا على لفظة (الحرَم القدسي) التي تختلف في فهمه عن لفظة (المسجد الأقصى). ولهذا نؤكد على خطورة هذه النقطة.

3 - الفضائل والعلاقة مع المساجد الأخرى

فضائل الأقصى المبارك

تحدّث الكثير من العلماء عن فضل المسجد الأقصى المبارك ومدينة القدس والأرض المقدسة، وأغلب تلك الكتب كُتِبَ عمومًا في فترة ما بعد الاحتلال الصليبي، وهذا ما أدّى إلى بروز بعض التيارات لدى المستشرقين تنفي قدسيّة المسجد الأقصى وبيت المقدس لدى المسلمين وتوهّم الدارسين أنّ هذه القدسيّة إنمّا نبعت حقًّا فيما بعد فترة الحروب الصليبية، وهذا الأمر منتفٍ جملة وتفصيلاً بعد النظر في النصوص الأصلية في الإسلام، أي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وقد كتب في هذا المجال مجموعة طيّبة من الباحثين المحدثين، ومن الكتب المحدثة اللطيفة جدًّا في تأصيل قدسيّة بيت المقدس في الإسلام والتي أنصح بها الدارسين كتاب (مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان) للأخ الأستاذ جواد بحر النتشة من مدينة الخليل بفلسطين، وهذا الكتاب عني بتأصيل المسألة نصًّا وتاريخًا وأنصح بقراءته للتّوسّع في هذا الأمر. ولسنا هنا في معرض دراسة الأمر تفصيلاً كما بيّنْتُ في بداية الكتاب، وإنما نعطي هنا لمحات أساسيّة مختصَرة تصلح مدخلاً لمن يرغب في التوسع في هذا المجال المبارك.

إن التعبير القرآني ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يعدّ أبلغ وأعظم تعبير عن بركة المسجد الأقصى المبارك وشرفه العظيم، حيث ذكْر البركة (حوله) يدلّ على أنه هو أصل تلك البركة و منبعها، والتي طفت وعمّت وتوسّعت لتصل إلى ما حوله دون تحديد لحدود«الحول» في هذه الآيات الكريمة، ولسيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) كلام لطيف في هذا المعنى عند تفسير هذه الآية[17].

ومعظم العلماء على أنّ البركة تشمل منطقة الشام بشكل عامّ، على تفاضل بالطبع حسب القرب من المسجد الأقصى المبارك، وبعضهم ضمّ إليها مصر مثل أ. عبد الفتاح العويسي، الذي لم يكتفِ بذلك، بل توسّع في الأمر حتى عمّت البركةُ العالمَ كلَّه فيما يطلق عليه اليوم (نظرية دوائر بركة بيت المقدس) التي قدّمها العويسي في كتاب (تقديم بيت المقدس)، وتقضي بأنّ البركة تنتشر حول الأقصى المبارك كالدوائر لتشمل الأرض كلها على اختلاف بالطبع في درجة البركة فهي تقلّ كلما ابتعدنا عن الأقصى وتزداد كلما اقتربنا منه[18]. وهذا ما عرفه عن الأقصى العلماء والزهّاد والعبّاد والصالحون فأحيوه بالعبادة دائمًا ومدحوه، فقد ذكر سهل بن حاتم نقلاً عن رجل من أهل الإسكندرية اسمه أبو سعيد قال: «كنت أبيت في بيت المقدس، وكان قَلَّما يخلو من

(17) انظر في ظلال القرآن، ج: 4، ص: 2212.

(18) انظر تقديم بيت المقدس، ص: 41– 47.

المتهجّدين»[19] فكان هذا مما يدلّ على إعماره بالعابدين ليلاً، واسمع إلى هذين القولين اللطيفَيْن في وصف فضيلة البيت المقدّس:

1 – يذكر ابن عَساكر أن معاوية بن أبي سفيان قال في خطبة له بالمسجد الأقصى المبارك: «ما بين حائطَي هذا المسجد أحَبّ إلى الله تعالى من سائر الأرضين.»[20]

2 – وكان بِشْر الحافي يقول: «ما بقي عندي من لذّات الدنيا إلا أن أستلقي على جنبي تحت السماء بجامع بيت المقدِس»، وسئل مرة: «لمَ يفرح الصالحون ببيت المقدس؟» فقال: «لأنّها تُذْهب الهمَّ ولا تشتغل النفس بها.»[21]

المسجد الأقصى المبارك في السُنَّة النبويّة الشريفة

ذُكر المسجد الأقصى المبارك والقدس وأرض بيت المقدس كثيرًا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن المفيد أن نلفت النظر هنا إلى أنّ الكثير من المستشرقين والكتّاب الذين يدَّعون أن القدس والأقصى لم يكن لهما أيّ أهمية في الإسلام لم يعتمدوا إلا على نظرتهم غير الدقيقة في سورة الإسراء فقط، ولم يراعوا باقي الآيات التي تحدثت عن الأرض المقدسة. بالإضافة إلى ذلك، فمن الهامّ جدًّا أن نلاحظ أنه لا يمكن الأخذ بالقرآن وحده دون نظر في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وللعلماء كلام كثير لطيف في هذا المجال لا يمكننا التوسع فيه حاليًّا. وإذا نظرت ومحّصْتَ في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وجدت مئات الأحاديث التي تتكلم عن المسجد الأقصى المبارك وفضله أو تتكلم عن فضله مقرونًا بفضل الأرض المقدّسة أو الشّام حيث تقع الأرض المقدّسة نفسها. والفضيلة إنما تكون في هذه الحالة للأقصى باعتباره جزءًا مركزيًّا بل هو المركز نفسه للأرض المقدسة وقلبها.

لذلك لا يمكن تجاهل دور الحديث النبوي الشريف في تأكيد أهمية الأرض المقدسة والمسجد الأقصى

(19) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج: 1، ص: 416.

(20) نقل هذه المقولة الباحث عبد الرحيم العمد في أطروحة لدرجة الماجستير بعنوان (مكانة الأقصى في العقيدة الإسلامية) ص: 32، وقال إنه نقلها عن ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق الكبير، تهذيب وترتيب عبد القادر بدران، طبعة دار إحياء التراث العربي في بيروت (دون تاريخ)، ج: 1، ص: 445، ولكني للأسف لم أجد الطبعة التي نقل الباحث منها هذه العبارة، كما لم أجد هذه العبارة في كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر علمًا بأنني فتشت في طبعتين من الكتاب.

(21) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج: 1، ص: 431.

المبارك بالذات، بحيث يعدّ هذا التجاهل خطأً علميًّا منهجيًّا خطيرًا في التعامل مع المصادر الإسلامية الأساسية وخلطًا – ربما يكون مقصودًا في بعض الأحيان لدى بعض المستشرقين – قد يضرّ بصورة الأقصى المبارك ومكانته في الإسلام.

وفي هذا المجال نضع بين يديك مجموعة صغيرة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن فضل المسجد الأقصى المبارك والأرض المقدّسة والشام، وأنوّه بجهد مميّز قام به الأخ الشيخ سعيد بن عبدالرحمن القزقي الذي جمع هذه الاحاديث وخرّجها وصنّفها عام 2003م في كتابه (بيت المقدس في الحديث النبوي الشريف)، وكذلك فعل الأخ الأستاذ هشام فهمي العارف الذي جمع أغلب هذه الأحاديث وخَرَّجها تخريجًا علميًّا طيّبًا، وأصدرها عام 2004م في كتاب اسمه (إتحاف الأنام بفضائل المسجد الأقصى والشام)، وإليك هذه النماذج من الأحاديث النبويّة الشريفة في موضوعنا:

– روى البخاري ومسلم عن أبي ذَرّ رضي الله عنه أنه قال: «قلتُ: يا رسول الله، أيّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أوّلاً؟ قال: المسجد الحرام. قال: قُلت: ثمّ أيّ؟ قال: المسجد الأقصى. قُلت: كم كان بينهما؟ قال: أَرْبَعُونَ سَنة... الحديث.»

– وروى البخاري عن أبي هُريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثَة مساجد: المسجد الحَرام، ومسجد الرَّسول ـ صَلَّى اللَّه عليه وسلم ـ ومَسجدِ الأقصى.»

– وروى البخاري عن عوفِ بن مالك رضي الله عنه قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قبّة من أدم، فقال: اعدُدْ ستًّا بين يَدَي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتانٌ يأخذ فيكم كقُعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يُعطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دَخَلَتْه، ثم هدنةٌ تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا.»

– وروى أبو داود عن أم المؤمنين أمِّ سَلَمة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: «مَن أَهَلَّ بِحجّةٍ أو عُمرةٍ من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غُفِرَ له ما تَقَدَّم من ذنبه وما تأخَّر، أو وجبت له الجنَّة.»

– كما روى أبو داود أيضًا عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ستكون هجرةٌ بعدَ هجرةٍ، فخِيارُ أهلِ الأرضِ ألزَمُهُم مُهاجَرَ إبراهيم، ويبقَى في الأرض شِرارُ أهلها.»

– وروى ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنّ سليمان بن داود صلى الله عليه وسلم لمَّا بنى بيت المقدِس سأل الله عزّ وجلّ خِلالاً ثَلاثًا: سأل الله عزّ وجلّ حكمًا يصادِفُ حُكمَهُ فأوتِيَه، وسأل الله عزّ وجلّ مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتِيَه، وسأل الله عزّ وجلّ حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيَه أحدٌ لا يَنهَزُهُ إلا الصلاة فيه أن يُخرِجَه من خطيئَته كيومِ ولدَتْه أمُّه.»

– وروى أحمد في مُسنده عن عبد الله بن الدَّيْلمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ سليمان بن داود عليه السلام سأل الله ثلاثًا، أعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون له الثالثة: فسأله حُكمًا يُصادِفُ حُكمَهُ فأعطاه الله إيّاه، وسألهُ مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيُّما رجل خرج من بيْتِه لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمُّه، فنحن نرجو أن يكون اللهُ عزّ وجلّ قد أعطاه إياه.»

– وروى أحمد في مُسنده أيضًا عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفةٌ من أُمّتي على الحق ظاهرين لعدوّهم قاهرين لا يضرُّهم مَن خالَفَهُم ولا ما أصابهم من لأْواء حتى يأتيَهم أمرُ الله وهم كذلك« قالوا:«يا رسول الله وأين هم؟» قال: «ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس.»

– وروى أحمد في مُسنده عن ذي الأصابع رضي الله عنه قال: «قلت: «يا رسول الله، إن ابتُلِينا بالبقاء بعدك أين تأمرنا؟«قال: «عليك ببيت المقدس، فلعله أن ينشأ لك ذرية يَغدُون إلَى ذلك المسجد ويَرُوحون.»

– وروى الترمذي في سننه عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمّتي منصورين لا يضرّهم مَن خذَلَهم حتى تقوم الساعة.»

– وروى الترمذي أيضًا في سننه عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه قال: «قلت: «يا رسول الله، أين تأمرُني؟» قال: «ها هنا.» ونَحا بيده نحو الشام.»

– وروى الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه قولَ النبي صلى الله عليه وسلم: «الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة»، وهذا الحديث الأخير في صحّته نظر.

المساجد الثلاثة الأهمّ في الإسلام

من المعروف أنّ أهمّ المساجد بل أقدس البقاع على وجه الأرض في الإسلام هي المسجد الحرام بمكة المكرّمة، والمسجد النبوي في المدينة المنوّرة، والمسجد الأقصى المبارك ببيت المَقْدِس. وهنا قد يسأل سائل عن سبب اعتبار هذه المساجد الثلاثة الأقدس والأكثر أهمية في الإسلام، فلِمَ لَم يكونا مسجدين فقط أو مسجدًا واحدًا على سبيل المثال؟

وهنا نشير إلى الحديث الشريف الذي ذكره الإمام البخاري في صحيحه:

حدثنا عليّ حدثنا سفيان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى»[22].

هذا الحديث رُوي بعدّة طرق وروايات مختلفة في كتب الصحاح والسنن، وورد فيه ترتيب مختلف للمساجد الثلاثة، إلا أنّ مسألة اختلاف الروايات في ترتيب المساجد المذكورة في الحديث ليست ذات صلة بموضوع هذا الكتاب.

وفي هذا الحديث يظهر جليًّا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المساجد الثلاثة في بوتقة واحدة هي بوتقة «شد الرحال»، أي الزيارة، والواضح من جو الحديث الشريف أنّ المقصود من شدّ الرّحال هنا قصْد التعبّد على وجه الخصوص، وللعلماء آراء كثيرة واجتهادات مختلفة في هذا المجال لا مجال لذكرها حاليًّا. إلا أنّ الواضح هو قصر السفر بقصد العبادة على هذه الأماكن الثلاثة.

وللإمام العسقلاني (ت 258 هـ / 1422 م) رأي لطيف في شرح هذا الحديث الشريف وكيفيّة ربط المساجد الثلاثة برابط التعبّد، حيث يقول: «وفي هذا الحديث فضيلة هذه المساجد ومزيّتها على غيرها لكونها مساجد الأنبياء، ولأنّ الأوّل قبلة الناس وإليه حِجُّهم، والثاني كان قبلة الأمم السالفة، والثالث أُسِّس على التقوى»[23] وأتفق مع الإمام العسقلاني في هذا التَحليل بشكل عامّ، إلا أنه تجدر الإشارة هنا إلى أنّ العلاقة بين هذه المساجد يمكن أن تتجلى أيضًا في نواحٍ أخرى، حيث إن هذه المساجد الثلاثة، من وجهة نظري، تمثل الجوانب الثلاثة الرئيسية في العلاقات المختلفة للإنسان المسلم، حيث إنّه يمكن تقسيم أنواع العلاقات المختلفة للمسلم في حياته إلى علاقته مع الله سبحانه وتعالى، وعلاقته مع النبي صلى الله عليه وسلّم، وعلاقته مع البشر عمومًا. وهذه المنظومة تتبيّن واضحةً جليّةً أيضًا حتى في تقسيم المصادر التي يعتمد عليها المسلم في حياته فقهًا وتشريعًا على سبيل المثال، وهي القرآن الكريم الذي هو كلام الله عزّ وجلّ على الحقيقة، والسنّة الشريفة التي هي كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم و فعله و تقريره بوحيٍ من الله، والإجماع، وما بعده من المصادر، وهي اجتهادات البشر ما دون الرسول صلى الله عليه وسلّم.

وهنا أرى أنّ مكة المكرمة تمثّل الجانب الأول من هذه الأنواع الثلاثة من العلاقات، فهي تمثّل علاقة المسلم مع ربّه سبحانه وتعالى، وربما يكون هذا سبب تسمية المسجد بالمسجد الحرام، حيث إنّه حرَمُ الله في الأرض،

(22) صحيح البخاري، ج: 1، ص: 223.

(23) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج: 3، ص: 84.

وفيه تتجلى عظَمةُ الخالق سبحانه وتعالى بما يجعل كل من يدخله يشعر بالرهبة والقشعريرة التي يكاد يتفق عليها كل من دخل هذا المكان المقدّس الجليل[24]. ويتجلى هذا الأمر خاصة في الطواف حول الكعبة المشرَّفة التي يظهر من خلالها عظَمة الخالق سبحانه وهيبته.

وأمّا المدينة ومسجدها النبوي الشريف، فإنهما يمثّلان الجانب الثاني في حياة المرء المسلم، وهو علاقته مع النبي صلى الله عليه وسلم، ولعلّ هذا هو سر الطمأنينة والسكينة التي تغشى المدينة و زائريها.

وأمّا بيت المقدس ومسجدها الأقصى فإنهما يُمثّلان الجانب الثالث، وهي العلاقة مع البشرية جمعاء، ولعل هذا سرّ شعور أيّ شخص يزورها بثراء هذا المكان وعمقه النفسي والتاريخي البشري بل وملكيّة الزائر لهذا المكان وانتمائه إليه، خاصة وأنّ هذه الأمور هي التي تحدّد التجربة الإنسانية على مرّ الأجيال. وهكذا تتضح عظمة فكرة وجود هذه الأماكن المقدّسة الثلاثة في الإسلام ومدى انفراد الإسلام بهذه العلاقة التي تحدد شخصية المسلم وطبيعته.

لكن ما يلفت النظر في عبارة العسقلاني السابقة بالذات قضية هامّة ربط فيها المسجدين: الحرام والأقصى، برِباط مختلف عن المسجد النبوي، وهي مسألة (القِبلة)، حيث يذكر العسقلاني أنّ الأوّل قِبلة هذه الأمّة ومحجُّها، بينما الثاني هو قِبلة الأمم السالفة، وهذا كما يبدو هو أفضل ما وجد العسقلاني من رابط موحَّد لهذين المسجدَين الجليلين، حيث ربط المسجدَين بمفهوم (القِبلة) الذي يشترك المسجدان فيه، وهذا يبيّن أنّ هناك نوعًا فريدًا مختلفًا من الربط بين هذين المسجدين الكريمين بالذات يتفرَّدان به عن غيرهما من المساجد، وهذا ما يقود للنظر في طبيعة العلاقة بين المسجدين بالذات دون المسجد الثالث – أي المسجد النبوي الشريف – على أهميّته وفضله على المسجد الأقصى بالطبع والتأكيد كما جاءت بذلك النصوص الشرعيّة.

(24) هذا الشعور نقله الكثيرون ممن زاروا المسجد الحرام، والنقطة نفسها تتعلق بمن زاروا المسجد النبوي الشريف ومن ثم المسجد الأقصى المبارك أيضًا. إن نتيجة البحث المستمر منذ سبع سنوات على هذا الأمر من خلال مقابلات تم إجراؤها مع الكثيرين ممن زاروا هذه الأماكن المقدسة من المسلمين أوْصَلَت إلى هذا الاستنتاج، وقد تمّ طرحه أكثر من مرة في عدة محاضرات وندوات في دول مختلفة. ومثل هذا الأمر لا يمكن حسابه بالأدلّة النقليّة إلا ببعض الشواهد التي نجدها في المصادر الإسلاميّة التاريخية المختلفة، فمن ذلك على سبيل المثال ما نقله ياقوت الحموي أثناء الحديث عن بيت المقدس في قوله: «إنّ اللهَ نظر إليه (أي الأقصى) بعيْن الجَمال، ونظر إلى المسجد الحرام بعيْنِ الجلال»، ما يؤيّد وجهة النظر التي طرحناها.

جوانب العلاقة
بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى المبارك

أولاً: بناء المسجدَين وطابعهما المعماري

بناء المسجدَين في النصوص الإسلامية

إنّ الرابط الأوّل الفريد في نوعه بين المسجدين كان في قصة بنائهما، والتي وردت في حديث نبوي شريف رواه البخاري في صحيحه حيث قال:

«حدّثني عمر بنِ حفص حدّثنا أبي حدّثنا الأعمش حدّثنا إبراهيم التّيمي عن أبيه عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: «قلت: «يا رسولَ الله، أيّ مسجد وُضع أوّل؟» قال: «المسجد الحرام.» قلت: «ثمّ أيّ؟» قال: «ثُمَّ المسجد الأقصى.» قلت: «كم كان بينهما؟» قال: «أربعون»، ثمّ قال: «حيثما أدْرَكَتْكَ الصلاةُ فَصَلِّ والأرضُ لكَ مسجد.»[25]

هذا الحديث يُعَدُّ من أهمّ مفاتيح دراسة العلاقة بين المسجدَين، حيث إنّه يعطي نقطة البداية لهذه العلاقة، أي البناء نفسه، ما يفيد بأنّ العلاقة بين المسجدَين لم تبدأ فقط منذ بنائهما، وإنما بدأت مع بداية الحياة على الأرض، ذلك أنّهما كانا أوّل مسجدين بُنيا على وجه الأرض ابتداءً.وهذا ما يطرح سؤالاً هامًّا آخر يتعلق بالباني الأوّل لهذين المسجدَين.

وللإجابة عن هذا السؤال، ينبغي العودة إلى إحدى النقاط الرئيسية في النص النبوي وهي لفظة (أربعون عامًا). هذه اللفظة تبين أن الوقت بين بناء المسجدين يُعدّ قصيرًا بالمقارنة مع حركة التاريخ وعمر الإنسان عمومًا، ما يوحي بأنّ الباني قد يكون واحدًا نظرًا لقصر الوقت بين البنّاءين. وهذا يعني أنّ من يبحث في حقيقة الباني الأول للأقصى عليه أولاً أن يتعرف البانيَ الأوّل للكعبة.

من الجدير بالذّكر أنّ هناك خلافًا بين العلماء والمؤرّخين حول شخصيّة الباني الأوّل للمسجد الحرام، والمقصود هنا بالطبع هو باني الكعبة باعتبارها البيتَ الحرامَ وأصلَ الحرمةِ في المنطقة كما بيَّنا سابقًا. وقد تحدّث العديد من المؤرِّخين عن هذه النقطة كالأزرقي (ت 250 هـ / 648م) وتقيّ الدّين الفاسي (ت 832 هـ / 1429 م) وغيرهما. فعلى سبيل المثال، نقل الأزرقي في كتابه «أخبار مكة» عدّة آراء للعلماء في هذه القضيّة:

(25) صحيح البخاري ج: 4، ص: 422.

بعض هذه الآراء ذكر أن الباني الأوَّل للكعبة كان الملائكة، والبعض الآخر ذكر أنّ الباني الأوَّل كان آدم عليه الصلاة والسلام[26]. كما أنّ بعض العلماء الآخرين ذكر بأنّ الباني الأوَّل للكعبة كان شيث بن آدم كما نقل العسقلاني عن وهب بن منبه[27] إلاّ أنَّ العسقلاني رفض هذا الرَّأي وقال في الختام إنَّ الرَّأي الأرجح هو أنّ الباني الأوَّل كان آدم عليه الصَّلاة والسَّلام، وهناك أيضًا من قال إنَّ الباني الأول هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وعند البحث في مسألة الملائكة وآدم عليه السَّلام والملائكة وشيث بن آدم بالذات فإنّ الرأي الأرجح بين هذه الآراء هو أنَّ الباني الأوَّل للمسجد الحرام، والمقصود به هنا الكعبة المشرَّفة، هو آدم عليه اصلاة والسلام وليس الملائكة أو شيث بن آدم. ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان أول البشر على الأرض، والمسجدُ الحرام كان أول مسجدٍ على وجه الأرض أيضًا، وبالتالي فإنّ أرجح الأمور عقلاً هو أن يقوم البشري الأول ببناء المسجد الأول، خاصة وأن رواية وهب بن منبّه بخصوص شيث بن آدم لا تستند إلى أيّ دليل عقلي أو نقلي.

وأمّا بخصوص الملائكة، فإن من الصعب قبول الرأي القائل بأن الملائكة يمكن أن يكونوا أول بناة للكعبة المشرفة على الأرض ذلك أنه من المعروف أن للملائكة بيتًا في السماء هو البيت المعمور حسب ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف عن رحلة الإسراء والمعراج[28]. فناسَبَ أن يكون بُناةُ البيت في الأرض هم البشر بينما بُناة البيت في السماء هم الملائكة. وعلى العموم فإنه تجدر الإشارة إلى انعدام أيّ أدلّة نقليّة في المصادر الإسلامية الأساسيّة تُبين تفضيل هذا الرأي على ذلك، ولذلك فإن الغالب هنا هو الأخذ بالدليل العقلي. والاستنتاج العقلي هنا يقول إن آدم عليه الصلاة والسلام ما دام هو الباني الأول للكعبة على الأرجح فإنه هو أيضًا الباني الأول للمسجد الأقصى المبارك على اعتبار قِصَر المدة بين بناء المسجدين كما ذكرنا سابقًا، وسنبحث في مسألة المقارنة في مسألة الباني الأول بين آدم عليه الصلاة والسلام وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لاحقًا عند الحديث في المحور الثاني (محور التاريخ) عن البناء الأول للأقصى المبارك.

وهنا تظهر نقطة أخرى للنقاش في هذا الموضوع، حيث إنه قد يطفو سؤال حول طبيعة بناء آدم عليه الصلاة والسلام للكعبة، ومن ثم للمسجد الأقصى المبارك، فمن المعروف أن مبنى الكعبة، والذي كان غير مسقوف في البداية كما هو معروف تاريخيًّا وكما نقل الأزرقي وغيره من المؤرخين سابقًا، كان مجرد بناء صغير مقارنة بالمسجد الأقصى المبارك، إلا أنه يبقى مبنًى، فكيف إذن يمكن القول إن آدم عليه الصلاة والسلام بنى

(26) أخبار مكة، ج: 1، ص: 11-14.

(27) انظر فتح الباري ج: 6، ص: 487.

(28) انظر صحيح البخاري، ج: 2 ، ص: 628 – 629 .

المسجد الأقصى كله على اتساعه؟ وما معنى قولنا إنه بنى الأقصى أصلاً بينما الأقصى، بحسب ما ورد في هذه الدراسة سابقًا، هو أرض واسعة وليس مجرد مبنًى؟

للإجابة عن هذا التساؤل المشروع نشير إلى ما نقلناه سابقًا عن الدكتور رسلان نور حول مفهوم المسجد في الإسلام، فالمسجدُ هو عبارة عن أرضٍ وحدودٍ وقِبلةٍ، ويُزاد على ذلك مفهومٌ لطيفٌ آخر للمسجد ذكره الدكتور هيثم الرطروط في دراسةٍ له حول تاريخ بناء المسجد الأقصى المبارك، حيث يقول بعد دراسة تاريخية لأشكال المساجد في الإسلام عمومًا: «المسجد في الأصل فناء يحتوي بناءً في أجزاء منه»[29]، وهذا التعريف مختصر ويُوضَح المفهوم هنا بالبناء.

فالمسجد في الإسلام إذن ليس من الضروري أن يكون مبنًى كما ذكرنا سابقًا، وبناء على ذلك أرى أن مفهوم بناء المسجد الأقصى المبارك هو في الأصل تحديد حدوده، وهذا يعطي فكرة واضحة عن طبيعة بناء آدم عليه الصلاة والسلام للمسجد الأقصى المبارك، أي أن طبيعة هذا البناء كان تحديد حدود المسجد الأقصى المبارك سواء بالحجارة أو الطوب أو غير ذلك من الأشكال.

وهنا تجدر الإشارة إلى دراسةٍ أخرى هامّة جدًّا في هذا الموضوع لتوضيح طبيعة العلاقة بين المسجدين، وهي في نقطتين: شكل البناء، واتجاه البناء. وكلٌّ من هاتين النقطتين هامّتان جدًّا في تحديد شكل علاقة بناء المسجد الحرام والمسجد الأقصى، بمعنى: ألا يمكن أن يكون هناك أيّ دليل آخر غير الدليل العقلي الاستنتاجي على أن الباني واحد؟ وألاّ يؤثّر كون الباني واحدًا في شكل البناء مثلاً؟ وهل يوجد أيّ علاقات هندسية بين المبنيين؟ وهنا سنشير إلى دراسة هامة وقيّمة جدًّا للدكتور هيثم الرطروط في هذا المجال نشرها عام 2005م.

شكل البناء والطابع المعماري في الكعبة والأقصى

نشر الأخ الدكتور هيثم الرطروط دراسةً مميّزة في مجلة دراسات بيت المقدس الأكاديمية عام 2005 تتعلق بشكل بناء الكعبة والأقصى المبارك واتجاه بناء الأقصى، وفحوى هذا الموضوع أنّ الكعبة بشكلها الحالي شبه المكعّب ليست على الشكل الحقيقي الأصلي الذي بناها عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والقصة هنا تبدأ منذ أن بُنيت الكعبة أول مرة، فقد كان شكلها في ذلك الوقت يختلف عن شكلها الحالي، وبالتحديد كانت شبه مستطيلة وليس مكعّبة الشكل كما هي اليوم، وكانت بدون سقف، وأقصر من شكلها الحالي، أي أنها كانت عبارة عن شيء يشبه (منطقة مسوّرة) على شكل شبه مستطيل.

(29) The Architectural Development of Al-Aqsa mosque in the Early Islamic Period, P. 271.

ونشير هنا إلى حديث نبوي شريف يوضح هذا الأمر، حيث يروي البخاري في صحيحه:

«حدّثنا بيان بن عمرو حدّثنا يزيد حدّثنا جرير بن حازم حدّثنا يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة رضي الله عنها، أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال لها: «يا عائشة، لولا أنّ قومَك حديثُ عهدٍ بجاهليّةٍ لأمَرْتُ بالبيت فَهُدِم فأَدخلتُ فيه ما أُخرِجَ منه، وألزقْتُه بالأرض وجعلتُ له بابين: بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا فبلغت به أساس إبراهيم.» فذلك الذي حمل ابن الزبير رضي الله عنهما على هدمه. قال: «يزيد» وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحِجر، وقد رأيت أساس إبراهيم؛ حجارةً كأسنمة الإبل. قال جرير: فقلت له: «أين موضعه؟» قال: «أُريكَهُ الآن.» فدخلت معه الحِجر، فأشار إلى مكان فقال: «ها هنا.» قال جرير: «فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها.»[30]

فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون الأربعة رضي الله تعالى عنهم أجمعين قام في مكة المكرّمة الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير، فأعلن نفسه أميرًا للمؤمنين، وكان من آثاره رضي الله عنه أنه قام بتنفيذ رأي النبيّ عليه الصلاة والسلام كما بلغه بالضبط، فقام بنقض الكعبة، وأعاد بناءها على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام (والمعروف أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد رفع القواعد الأصلية للبيت الحرام) وجعل لها بابين، وفي هذه الفترة تم تسجيل أطوال الكعبة وقياساتها بالضبط كما كانت ووصلتنا بحمد الله رب العالمين، وقد سجلت بدقة على يد الأزرقي رحمه الله في كتابه (تاريخ مكة).

على أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان قد هاجم مكة المكرمة ورمى الكعبة بالمنجنيق، ثم احتلّ مكة المكرّمة وقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وكانت الكعبة قد تأثّرت كثيرًا من المنجنيق، فأرسل الحجاج إلى عبد الملك بن مروان في دمشق يخبره بما فعل ابن الزبير ويسأله عن الأمر، فأمر عبد الملك ابن مروان بأن يتمّ ردّ شكل الكعبة إلى ما كان عليه أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الشكل الذي ما زال إلى اليوم.

والحديث الذي تقدَّم هامّ جدًّا في توضيح حقيقةِ أنّ شكل الكعبة كان في الأصل على غير الشكل الحالي. فإن أُدخِلَ في الحجر جزءٌ معيّن فإنّ شكل الكعبة سيتحول من مكعّب إلى شبه مستطيل، وقد ذكر الأزرقي أطوال الكعبة بناء على ما ورده من روايات قريبة من عمل ابن الزبير رضي الله عنه الذي كشف عن أساس إبراهيم كما ورد عند البخاري[31]. والمعروف هنا كما ذكرنا سابقًا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد رفع القواعد من البيت بنص القرآن الكريم، وبالتالي فإن القواعد الأصلية لا بد أن تكون هي الأساس الذي قام عليه بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنه رفع القواعد ولم ينشئها كما سنبين لاحقًا عند الحديث في محور التاريخ. وهكذا نستنتج أن

(30) صحيح البخاري، ج:1، ص: 300.

(31) انظر أخبار مكة، ج: 1، ص: 64.

البناء الإبراهيمي للكعبة كان على الأصحّ مطابقًا للبناء الأصلي الأول لها، ويبدو من دراسة هذه الأطوال والأضلاع أن شكل الكعبة الأصلي عند بنائها الأول كان قريبًا من المخطط التالي الذي رسمه الرطروط:

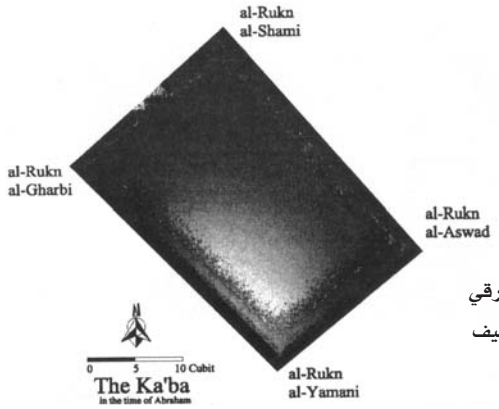

مخطط تقريبي للكعبة المشرّفة الأولى على أساس ما ورد في رواية الأزرقي
المصدر: مجلة دراسات بيت المقدس - السنة السادسة، العدد الأول، صيف 2005، ص: 17

وهنا نشير إلى أنّ هذا المخطّط يذكّرنا بمخطط الأقصى المبارك الكامل كما ذكرنا سابقًا، حسب المخطط التالي:

يظهر من هذين النموذجين للكعبة والأقصى أنّ هناك تشابهًا من نوعٍ ما في البناء، إلا أن الرطروط ذهب إلى أبعدَ من ذلك فطابق المخططين بعضهما على بعض فنتج عن ذلك تطابق كامل في الشكل (لا الأبعاد بالطبع)، وذلك كما يظهر تاليًا:

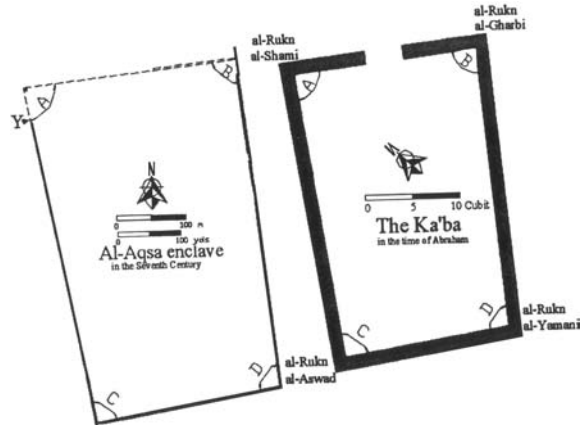

التشابه بين مخطط الكعبة المشرَّفة بحدودها الأصليّة ومخطط الأقصى المبارك كاملاً
المصدر: مجلة دراسات بيت المقدس، السنة السادسة، العدد الأول، صيف 2005، ص: 18)

تطابق مخطَّطَي الكعبة المشرَّفة بحدودها الأصلية والأقصى المبارك كاملاً دون النظر للأبعاد
المصدر: مجلة دراسات بيت المقدس، السنة السادسة، العدد الأول، صيف 2005، ص: 19

وبطبيعة الحال فإنّ هذا التطابق هو تطابق نِسَبٍ وزوايا وليس تطابق أبعادٍ وأطوال، حيث إن هناك فرقًا كبيرًا بين أطوال أضلاع الكعبة المشرَّفة والأقصى، إلا أنّ هذا الاكتشاف الحديث يقتضي أنّ الشكل واحد وإن اختلفت اطوال أضلاع المبنيين، وهو ما يذكره الرطروط على شكل ثلاث نقاط إذ يقول:

1 – تتطابق جميع الزوايا الهندسية المحصورة بين الأضلاع الخارجية في المسقط الأفقي لمخطط «منطقة» المسجد الأقصى مع جميع الزوايا الهندسية للمخطط الهندسي للكعبة.

2 – وبناء على ذلك، تنحرف الأضلاع المتقابلة في مخطط «منطقة» المسجد الأقصى بعضها عن بعض بالمقدار نفسه الذي تنحرف فيه الأضلاع المشكِّلة للمخطط الهندسي للكعبة.

3 – من هنا، فإن التخطيط الهندسي لـ«منطقة» المسجد الأقصى يشابه التخطيط الهندسي لِـ«منطقة» الكعبة[32].

وهنا يجب التأكيد على أهمية هذا الاكتشاف المميز، حيث إنه يعني ببساطة وجود دليل هندسي أثري حاليًّا يوضح أنّ باني المبنيين واحد أو على الأقل أنهما بُنيا في فترة متقاربة جدًّا، وهذا مِصداقٌ عِلميٌّ أثريٌّ للحديث النبوي الشريف المذكور سابقًا حول أولية المسجد الحرام في البناء ويليه المسجد الأقصى والفترة التي كانت بينهما. وهذا ينسف الكثير من الادعاءات اليهودية وغيرها حول الأحقية بالمسجد الأقصى المبارك وأسبقية بنائه، لا سيما أن اليهود يعتقدون أن الأقصى (الذي هو بالنسبة للكثيرين منهم هو نفسه المعبد المزعوم) لم

(32) المسجد الأقصى في الآثار القرآنية، (في مجلة دراسات بيت المقدس)، ص: 6.

يكن موجودًا إطلاقًا قبل سليمان عليه الصلاة والسلام، ولا شك أن وجود دليلٍ أثريٍّ على أن بناء الأقصى يعود إلى فترة أقدم من سليمان عليه الصلاة والسلام ينسف الكثير من ادعاءات بعض المؤرخين اليهود الحاليّين.

وقد يسأل سائل هنا عن ما إذا كان البناء في هذه الحالة تم على أساس وحي إلهي أم بمجرد اجتهاد إنساني بحت من آدم عليه الصلاة والسلام، وهذا الأمر جِدُّ خطير، لأنه في هذه الحالة يفتح المجال لادعاءات حول صحة هذا الفهم الخاص ببناء آدم عليه السلام للأقصى بل حول مفهوم النبوة.

وهنا نؤكِّد بأنّ هذا التطابق في شكل البناء بين المسجدين - مع الاختلاف الواضح بينهما في المساحة - يدلّ دلالة واضحة على أنّ أمر البناء وشكله هو على الأرجح كان أمرًا إلهيًّا وبوحيٍ للنبي آدم عليه الصلاة والسلام. إذ لا يتصور أحد أن يكون لدى الأقدمين، لا سيما أول بشري على وجه الأرض، تلك المعدّات التي تمكّنه من مطابقة الزوايا الهندسية في مبنيين بعيدين نسبيًّا ومتفاوتَيْن جدًّا في المساحة من حيث صِغرها في الكعبة مقارنةً بمساحة المسجد الأقصى، إلا أن يكون هذا التحديد تمّ بأمر إلهي.

وممّا يزيد التيقُّن من هذا الأمر، دراسة اتجاه بناء المسجد الأقصى المبارك كما ذكرنا سابقًا باختصار، فالأقصى يتجه طبيعيًّا إلى الجنوب الشرقي ولكن بدرجة معيّنة، ولدى دراسة هذا الأمر بدقة علميةً يتبين أيضًا أن المسجد الأقصى يتجه تقريبًا بشكل طبيعي إلى الكعبة المشرَّفة، وهو ما أكده الرطروط أيضًا خلال المؤتمر الكاديمي الدولي الخامس عن بيت المقدس، والمنعقد في المملكة المتحدة عام 2003، وطوّره بعد ذلك إلى مقالة أكاديمية[33]. ويبدو ذلك جليًّا في هذا المخطط:

الاتجاه الطبيعي للمسجد الأقصى المبارك باتجاه الكعبة المشرَّفة

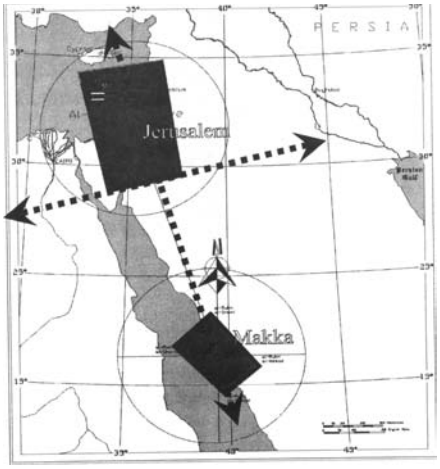

المصدر: مجلة دراسات بيت المقدس السنة السادسة، العدد الأول، صيف 2005، ص: 28

(33) انظر المسجد الأقصى في الآثار القرآنية، ص: 12- 13.

وفي معرض الإشادة بهذا الكشف الهامّ، أرى أنّه ينبغي إضافة نقطة أخرى يمكن ملاحظتها في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم عن البيت في فترة قدوم هاجر وإسماعيل عليهما السلام إلى المنطقة ثمَّ بناء الكعبة على يدي إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: «وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها»[34]، مما يدلّ على أن شكل الأرضية التي بُنيت فوقها الكعبة لم يكن مستويًا وإنما كان عبارة عن تلة صغيرة، وهو ما ينطبق على جغرافية المسجد الأقصى المبارك المُقام فوق هضبة، وبالتالي فإن شكل أرض البناء أيضًا قد يكون متشابهًا إن لم يكن متطابقًا، وأرجو أن يكون ممكنًا لدى بعض الباحثين في مجال الطبوغرافيا دراسة هذه النقطة بشكل أكثر تعمُّقًا وتوسعًا لتأكيدها أو نفيها.

مما سبق نستنتج أن هناك علاقة وثيقة بين المسجدين منذ البداية، حيث إن البناء لم يكن فقط في فترة متقاربة، بل على الأرجح على يد الشخص نفسه، وبوحي من الله سبحانه وتعالى، بل وكان البِناء متطابق الشكل مع اختلاف المساحة. كما أن مسألة اتجاه البناء تبيَّن أن الأقصى بُني بعد الكعبة المشرَّفة كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن المبنى الثاني، أي الأقصى، بُني بحيث يتجه طبيعيًّا إلى الأول، أي الكعبة، وليس العكس، على اعتبار أن المسجد الثاني كان من الأصحّ أن يتجه إلى الأول، ما يعطي دلالة واضحة على صحة هذه العلاقة البنائية التاريخية القديمة والفريدة بين المسجدين ودقتها.

ثانيًا: القَسَم في القرآن الكريم

غالبًا ما يقصر الكثير من الباحثين جمع المسجدين في القرآن الكريم على الآية الأولى في سورة الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء: 1].

إلا أنه يشار هنا إلى آية أخرى في القرآن الكريم ربطت بين المكانين المقدّسين. حيث يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ [التين: 3-1]، وفي هذه الآيات الكريمة أيضًا يمكن ملاحظة الربط بين المسجدين خاصة عند النظر لآراء المفسرين في هذه القضية. حيث يذكر الإمام ابن كثير (ت 774 هـ/ 1372 م) في تفسيره لهذه الآيات: « وقال بعض الأئمة هذه محالّ ثلاثة بعث الله في كلّ واحدٍ منها نبيًّا مُرسَلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار. فالأول محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام، والثاني طور سنين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، والثالث مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمنا وهو الذي أرسل فيه محمدًا صلى الله عليه وسلم.»[35] بينما

(34) صحيح البخاري، ج: 2، ص: 659.

(35) تفسير القرآن العظيم، ج: 4، ص: 452.

كان رأي الإمامين الطبري (ت 310 هـ / 922 م) والقرطبي (ت 671 هـ / 1273 م) أن المقصود بالقَسَم في الآية الأولى هنا هو الفواكه المعروفة لا أرض بيت المقدس[36].

والراجح هنا في نظري رأي الإمام ابن كثير، حيث إن سياق الآيات يبين أن الكلام على الأرجح هو حول الأرض وليس الفاكهة، خاصة وأن الآيات قَرَنت ذكر التين والزيتون بذكر طور سيناء والبلد الأمين، أي مكة المكرمة. وهذا يعني أن الآيات على الأرجح ذكرت التين والزيتون كإشارة لبيت المقدس نظرًا لاشتهارها بالتين والزيتون.

وتجدر هنا الإشارة إلى تفسير ابن كثير الجميل للآيات، حيث يُظهِر الإمام ربطًا جليلاً بين الأماكن المقدسة المختلفة المذكورة في القرآن الكريم. ولا نهمل هنا طور سيناء، ولكن التركيز هنا على بيت المقدس ومكة المكرمة، حيث إنهما كمكانين مقدسين فيهما بدء القَسَم وخِتامه، و حيث إن القَسَمَ بدأ في الآيات بالأرض التي يقع فيها الأقصى، وهي بيت المقدس، والقَسَم الأخير في الآيات كان بأرض مكة التي يقع فيها المسجد الحرام، وأرى في ترتيب هذه الأماكن الثلاثة في الآيات الكريمة دلالة واضحة وهامّة، حيث إنه لو كان المقصود ترتيب الأماكن الثلاثة ترتيبًا تاريخيًّا حسب الأنبياء لكانت مكة أولاً (على اعتبار إبراهيم عليه الصلاة والسلام) أو مثلاً طُور سيناء، فيما لو افترضنا أن الإشارة لمكة المكرمة تنبني على الإشارة لنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن كثير. فلمَّا ذكرها القرآن الكريم بهذا الشكل كان الأمر شبيهًا بربط المسجدين في سورة الإسراء بكلمات: (من – إلى) فمن بيت المقدس إلى مكة المكرّمة يقع طور سيناء قريبًا من الطريق. وهو ربط يوضح طبيعة قدسيّة الأرضَيْن والمسجدين فعلاً، ويحتاج هذا الرابط إلى مزيد من البحث لفهم سبب ذكر الأماكن الثلاثة ابتداءً وبهذا الشكل الفريد.

ثالثًا: رحلة الإسراء

كما ذكرنا سابقًا، من أكثر الآيات وضوحًا في تبيان العلاقة والربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى الآية الأولى من سورة الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1].

هذه الآية تُعتبر أوضح آية في القرآن الكريم ربطًا للمسجدين: الحرام، والأقصى. وقد ربَطَت المسجدين بطريقة جميلة جدًّا خلال الحديث عن حادثة تاريخية غاية في الأهمية، تلك هي حادثة الإسراء والمعراج. ولعله من اللازم التركيز هنا على دلالة هذه الرحلة المباركة وعلاقتها بالربط بين المسجدين.

(36) جامع البيان في تأويل القرآن، ج: 12 ص: 633، وكذلك الجامع لأحكام القرآن، ج: 20، ص: 99.

فقد تحدثَت كتبُ المفسرين كثيرًا عن الربط بين المسجدين عند تفسير هذه الآية، فعلى سبيل المثال، يقول الإمام ابن كثير:

(إلى المسجد الأقصى) وهو بيت المقدس الذي بإيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام. ولهذا جُمِعوا له هناك كلهم، فأمَّهم في محلّتهم ودارهم. فدلّ ذلك على أنه الإمام الأعظم والرئيس المقدَّم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين[37].

كذلك تكلم سيد قطب حول هذا الرابط وحول أهمية ليلة الإسراء والمعراج في كتابه (في ظلال القرآن)، حيث يقول:

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إلى محمد خاتم النبيين ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعًا. وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدّسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدّسات، وارتباط رسالته بها جميعًا. فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان؛ وتشمل آمادًا وآفاقًا أوسع من الزمان والمكان؛ وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى[38].

فقد ركّز الإمام الطبري من جانبه على أهمية اجتماع الأنبياء جميعًا في المسجد الأقصى المبارك تحت إمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم و رمزيّته. ومن لطائف إشاراته هنا الإشارة للنبيَّيْن الكريمين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام اللذَين أعادا بناء البيت الأول (أي الكعبة). وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ وجود كلٍّ من إبراهيم الخليل وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام له أهمية كبرى في بيان حقيقة العلاقة بين المسجدين. فبالرغم من كونهما أول من أعاد بناء المسجد الحرام، فإن كليهما أعطى القيادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الأقصى المبارك لا في المسجد الحرام. وأرى أن هذا إنما كان بسبب أن المسجد الأقصى المبارك يمثّل الجانب الإنساني (والذي يشمل الأنبياء جميعًا) في أنواع علاقات الإنسان المسلم المختلفة كما ذكرنا سابقًا.

وقد تحدّثَت كتب الحديث النبوي الشريف أيضًا عن ليلة الإسراء والمعراج، وما يهمّنا هنا ليس التفاصيل

(37) تفسير القرآن العظيم، ج 3، ص: 5.

(38) في ظلال القرآن، ج: 4، ص: 2212.

والخلافات بين الروايات المتعدِّدة للإسراء، خاصة وأن العديد من الروايات المذكورة في كثير من كتب الحديث والفضائل، والتي تتعلّق بالإسراء والمعراج، هي ضعيفة عمومًا. إلا أن هناك مجموعة طيبة من الأحاديث القوية الصحيحة التي تحدثت في هذا المجال.

فمن الأحاديث الصحيحة التي تناولت حادثة الإسراء والمعراج، حديث الإمام مسلم (ت 261 هـ) رحمه الله، الذي رواه في صحيحه حيث قال:

حدّثَنا شَيْبان بن فروخ حدَّثَنا حمَّاد بن سلَمة حدَّثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أُتِيتُ بالبراق، وهو دابّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، قال فركبْتُه حتى أَتَيْتُ بيتَ المقدس، قال فربطتُه بالحلَقة التي يربط به الأنبياء، قال ثم دخلْتُ المسجدَ فصلَّيت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه الصلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل صلى الله عليه وسلم: «اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء» .. الحديث[39].

وهذا الحديث صريح في أن الرحلة كانت رابطًا بين المسجدين الكريمين. ويوجد في كتب الحديث الشريف الكثير من الروايات حول الإسراء، ولكننا هنا لن ندخل في الخلافات بين الروايات المختلفة حول تفاصيل الرحلة، وذلك للتركيز على النقطة المركزية المتمثلة في الربط بين المسجدين، والتي تتوضح في جميع الروايات التي تتحدث في هذه الرحلة خاصة، دون الدخول في قضية المعراج، حيث إن هناك روايات معيّنة تذكر المعراج دون الإسراء.

ومن ناحية أخرى يعلّق العالم الجليل جمال الدين القاسمي (ت 1332هـ) على رحلة الإسراء في كتابه (الإسراء والمعراج)، ويذكر في تعليقه شيئًا من الإشارات الربّانية اللطيفة في رحلة الإسراء، حيث يقول:

قال بعض العلماء: وفي مسير النبي صلى الله عليه وسلم لبيت المقدس حِكَم كثيرة، كاجتماع الأنبياء، كلهم أو غالبهم، والملائكة وغيرهم له، وصَلاته بهم، ونظره قبلةَ الأنبياء وقبلتَه التي سيصلي إليها، وتشريف ذلك المسجد بوطء قدمه، كما شرّف الأول بوطء رأسه، ولذلك طلب شدّ الرحال إلى الصلاة فيه وفُضّلت الصلاة فيه على غيره بخمسمائة صلاة[40].

ما يوقفنا عند هذا النص هو الرابط بين المسجدين من حيث ارتباطهما بوجود النبي صلى الله عليه وسلم،

(39) صحيح مسلم، ج:1، ص: 82.

(40) الإسراء والمعراج، ص: 367 – 368.

وهذه دلالة أخرى هامة لرحلة الإسراء في ربطها للمسجدين. وهنا قد يقول قائل إن حضور النبي صلى الله عليه وسلم في المسجدين كما نص القاسمي لا يعدّ دليلاً على الرابط بينهما، إلا أني أرى أن هذه النقطة تعدّ إشارة إلى الرابط بينهما لأن رحلة الإسراء حسب العقيدة الإسلامية تمت بأمْر و«تخطيط» ربّاني كامل (إن صحّ لنا أن نقول ذلك ولله المثل الأعلى). فهي رحلة ربّانية الاختيار والتخطيط والتنفيذ، ولا دخل للبشر فيها فلم يفكّر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خطَّط لها ولا اختارها. وليس ذلك كالهجرة إلى المدينة (على سبيل المثال) التي خطط لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تخطيطًا بشريًّا بالرغم من جانب التوفيق الإلهي الذي لا غنى عنه. وبما أن رحلة الإسراء كانت خارجة عن إرادة النبي صلى الله عليه وسلم و تفكيره، فإن وجوده في المسجد الأقصى المبارك وصلاته فيه في تلك الليلة بالذات كانت على الأرجح أحد الأهداف الرئيسية من تلك الرحلة الربّانية، وإلا لما كان هناك حاجة أصلاً للإسراء إلى بيت المقدس، ولَكان المعراج مباشرة من مكة المكرَّمة دون الحاجة إلى إسراء. بل إن النص في القرآن الكريم أصلاً على رحلة الإسراء إلى المسجد الأقصى المبارك لهو دليل على أن زيارة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى المبارك كانت أحد أهم أهداف الرحلة.

ولذلك يمكن استنتاج دلالة كبرى في اختيار المسجد الأقصى المبارك ليكون نقطة ربط بين المسجد الحرام والسماوات العلى، بل إن الأقصى في هذه الحالة كان محطة كبرى في هذه الليلة. فالآية الكريمة والحديث الشريف كلها تعطي إشارات هامّة، وتسلط الضوء على علاقة وثيقة مميزة بين المسجدين وبطريقة فريدة حقًّا.

رابعًا: جمع المسجدين في الصلاة

في هذا القسم سنناقش بعض الروايات والأحاديث المرتبطة بهذه القضية، وسنوضح الرابط بين المسجد الحرام والأقصى من حيث جَمعُهُما معًا في الصلاة.

وأحد الأحاديث التي تحمل دلالة واضحة على العلاقة بين المسجدين هو الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل (تـ 241 هـ) في مُسنده حيث يقول:

حدَّثَنا يحيى بن حمّاد حدَّثَنا أبو عوانة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه، وبعدما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهرًا، ثمّ صُرِفَ إلى الكعبة.»[41].

(41) مسند أحمد بن حنبل، ج: 3، ص: 310.

هذا الحديث الشريف وصف الطريقة والاتجاه الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي به في مكة المكرَّمة قبل تغيير القبلة في المدينة المنوّرة. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بمكة تجاه بيت المقدس، ولكن نلاحظ أن صلاته هناك كانت خلف الكعبة المشرَّفة، أي أنه كان يضع الكعبة بينه وبين بيت المقدس حيث القِبلةُ، وكان شكله في هذه الصلاة كما لو أنه يصلي إلى المسجدين معًا: المسجد الأقصى والمسجد الحرام.

وهنا قد يبرز سؤال حول سبب وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة بينه وبين المسجد الأقصى المبارك خلال صلاته. وفي الحقيقة لم أتمكن من إيجاد أيّ دليل أكيد وواضح وجليّ من القرآن الكريم أو الحديث الشريف يبين سبب ذلك تحديدًا، إلا أنه يمكن إيجاد تلميحات حول هذا الامر في القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [**البقرة**: 144].

هذه الآية توضح السبب الرئيسي لتحويل القبلة، وهو تقلّب وجه النبي صلى الله عليه وسلم في السماء، وما يهمّنا هنا هو جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجدين معًا في صلاته، لا سبب تحويل القبلة أو تقلّب وجهه عليه الصلاة والسلام في السماء. حيث إن البحث عن سبب تقلّب وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في السماء في ذلك الوقت فيه الكثير من الخلاف بين المفسرين، ولا دليل قطعيًا عليه أبدًا، بالإضافة إلى أنه خارج موضوع هذا الكتاب.

إذن فالنقطة الهامّة هنا هي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجمع المسجدين معًا في صلاته أثناء وجوده في مكة المكرمة قبل الهجرة، ومن اللفتات اللطيفة أن يلاحظ المرء أنه حتى في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة استمرّ يجمع المسجدين وهو في غار ثور، لأن اتجاه القبلة من الغار في ذلك الوقت (أي إلى بيت المقدس) كان يمر في الوقت نفسه بالمسجد الحرام.

هذا الموضع الذي يقع فيه الغار هو إشارة جميلة بحدِّ ذاته للعلاقة المستمرة بين المسجدين الشريفين.

وعمومًا، فإن كون المسجدين نفسيهما اتجاهين للصلاة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بحدّ ذاته رابط وثيق بينهما. فالصلاة باتجاه المسجدين كانت كرامة خاصة بهما ولم تُعْطَ لغيرهما. أمّا المسجد النبوي الشريف فإنه يشترك في هذه الميزة لكن تحت مظلة المسجدين: الحرام والأقصى، ذلك أن المسلمين صلَّوا في رحابه باتجاه المسجدين: الأقصى ثم الحرام. ولكن ميزة المسجدين كانت جمع اتجاهي الصلاة في المكان نفسه والوقت نفسه، أي الصلاة باتجاه الأقصى (القِبلة الأولى) والكعبة (القِبلة الثانية) في اللحظة نفسها كما ظهر جليًّا في رواية الإمام أحمد بن حنبل السابقة.

خامسًا: الحج والعمرة

روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده:

حدَّثَنا يعقوب قال: «حدَّثني أبي عن ابن إسحاقَ قال: «حدَّثَني سليمان بن سحيم مولى آل جبير عن يحيى بن سفيان الأخنسي عن أمّه أُمّ حكيم ابنة أميّة بن الأخنس عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم» قال: «سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «من أهلَّ من المسجد الأقصى بعُمْرة أو حِجَّة غفرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبه»، قال: «فركِبَتْ أمُّ حكيم عند ذلك الحديث إلى بيت المقدس حتى أهَلَّت منه بعمرة.»[42]

هذا حديث شريف فريد جدًّا في تبيانه لرابط هامّ جدًّا بين المسجدين الكريمين في أحد أهمّ أركان الإسلام، ألا وهو الحج. حيث يحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من خلال هذا الحديث الشريف على أن يبدأوا أوّل عمل من أعمال الحج أو العمرة، أي الإحرام، من رحاب المسجد الأقصى المبارك، ووعد من يفعل ذلك بمغفرة ذنوبه.

وهذا الحديث الشريف يحمل الكثير من المعاني، حيث إن الربط بين المسجدين في الحج والعمرة له دلالة هامّة، فالحج آخر أركان الإسلام، وهو فرض على كل مسلم قادر مرّة في العمر. فحثُّ المسلمين على أن يبدأوا هذه الرحلة الهامّة من المسجد الأقصى المبارك يعطي فكرة غير مباشرة لكل مسلم بأن يحاول زيارة المسجد الأقصى المبارك ولو مرة واحدة في العمر. وبالطبع فإن هذا ليس فرضًا، وإنما الحث على هذا الفعل في هذا الحديث الشريف عالٍ جدًّا، ما يعطي إشارة واضحة إلى مدى تزكية هذا الفعل والتشديد على أهميته. وهنا نلاحظ أن جمع المسجدين الحرام والأقصى المبارك كان واضحًا بالذات في الإسلام في ركنين من أركان الإسلام والعبادات خصوصًا: وهما الصلاة والحج.

فالصلاة هي الواجب العملي الأول في العبادات في الإسلام بعد دخول الإنسان في دين الإسلام ونطقه بالشهادة مباشرة. وهي أول ما أُمر المسلمون بالقيام به بشكل يومي في حياتهم منذ بدء الوحي تقريبًا، ويمكن ملاحظة ذلك واضحًا في القرآن الكريم حيث يقول الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [المزّمل: 1–4]. هذه السورة نزلت في بداية دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يذكر الإمام الزركشي رحمه الله[43].

أما الحج فإنه آخر أركان الإسلام وآخر العبادات العملية لدى المسلمين، حيث إن الحج نزل في آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالتحديد في السنة التاسعة للهجرة كما يذكر الشيخ صفيّ الرحمن المباركفوري[44].

(42) الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج: 18، ص: 260.

(43) البرهان في علوم القرآن، ج: 1، ص: 193.

(44) الرحيق المختوم، ص: 404.

يمكن ملاحظة الرابط بين المسجدين في الصلاة باعتبار أنّ القبلة كانت جامعًا بين المسجدين الشريفين. كما يمكن ملاحظة الرابط في الحج في ظل الحديث المذكور سابقًا، وهذا يعطينا دلالة هامّة. حيث إن الدلالة كبيرةٌ وواضحةٌ في ربط المسجدين معًا في أذهان المسلمين مرة في بداية الدعوة الإسلامية بالصلاة، ومرة أخرى في نهاية الدعوة الإسلامية أيضًا بالحج.

وبالتالي يبدو أن ذكر الرابط بين المسجدين في مسألة الحج كان «تذكيرًا» للمسلمين بالرابط بين المسجدين في نهاية حياة النبي صلى الله عليه وسلم. ويمكن أن يفهم منها كخطوة من الرسول صلى الله عليه وسلم لتذكير المسلمين في نهاية حياته صلى الله عليه وسلم بالخطوة التالية، وهي فتح بيت المقدس والمسجد الثالث في الإسلام، أي المسجد الأقصى المبارك.

سادسًا: الأرض الحرام والأرض التي بارك الله فيها

نقصد هنا بالأرض الحرام المنطقة الحرام التي تحيط بالمسجد الحرام في مكة المكرَّمة وتمتدّ على مساحة واسعة معروفة الحدود منذ عهود سحيقة في التاريخ، أمّا الأرض التي بارك الله فيها ففيها خلاف كبير بين العلماء وخاصة المفسِّرين منهم، ولن نخوض في هذه التفاصيل لعدم الخروج على مركزية البحث وموضوعه، إلا أنه من الواضح أن جميع المفسرين يشتركون في تحديد الأرض التي بارك الله فيها كمنطقة شاسعة تضم الشام في العادة، وما يهمنا في هذا الكتاب مفهوم الأرض التي بارك الله فيها على أنها أرض واسعة. ويرى الدكتور خالد العويسي في خلاصة بحثٍ مُطَوَّل وعميق له أن الأرض المقدسة هي في الحقيقة جزء من الأرض التي بارك الله فيها[45].

أمّا حدود الأرض المقدسة بناء على بحث العويسي فإنها تمتد لمساحة قريبة من إقليم بيت المقدس الذي حدَّده غير واحد من العلماء كابن قدامة المقدسي[46] وابن فضل الله العمري[47] وغيرهما، وتبدو حدود هذا الإقليم في الخريطة التالية:

(45) Mapping Islamicjerusalem, p.265 - 268.

(46) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص: 173.

(47) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص: 123.

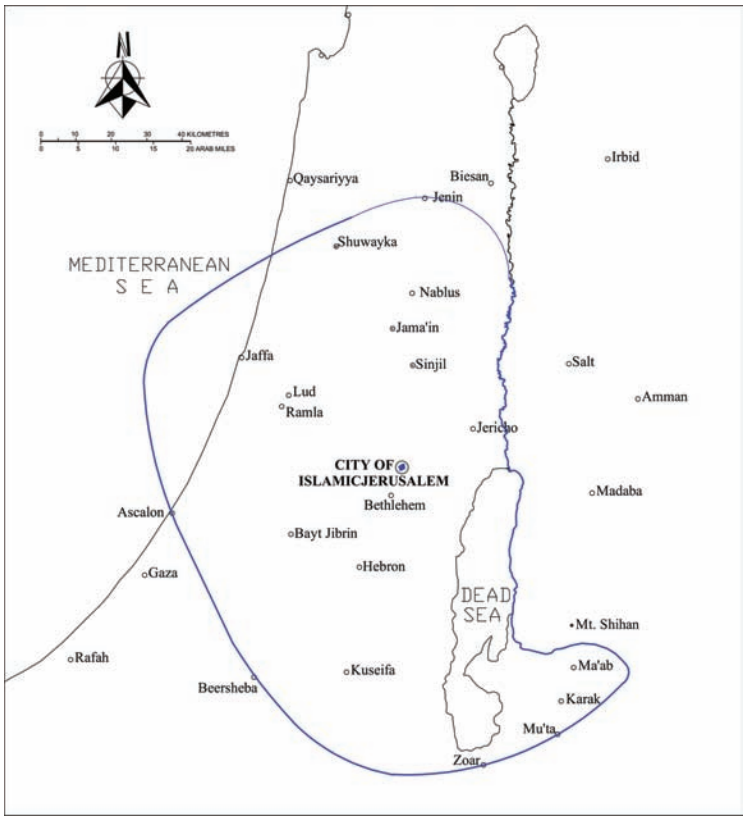

حدود أرض بيت المقدس بناء على قول المقدسي والعمري وغيرهما من العلماء

المصدر: Mapping Islamicjerusalem, p.210.

هذا الرأي يوضح أن هناك فرقًا في المصادر الإسلامية بين مفهوم القدسية والبركة، والأقصى في الحالتين يقع في وسط هاتين المنطقتين تقريبًا. والوسطية هنا وسطيةٌ معنوية لا جغرافية، أي أنه يعتبر مركز المنطقتين وأهم بقعة فيهما بسبب وجود إحداهما داخل الأخرى. وهذه المركزية يجب دراستها لمعرفة ما إذا كان الأقصى هو مصدر القدسية والبركة في الحالتين أم لا، وبالتالي يمكن فهم وضعه بالمقارنة مع المسجد الحرام وعلاقته بالأرض الحرام، باعتباره مركز الحرمة ومصدرها.

الأصل الأول الذي يظهر هنا هو أن البركة في الأرض التي بارك الله فيها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالمسجد الأقصى المبارك نفسه، وذلك كما يوضح القرآن الكريم في سورة الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [**الإسراء**: 1]. ويقول د. عبد الفتاح العويسي إن هذه الآية تؤكد أن المسجد الأقصى هو مركز البركة[48].

(48) تقديم بيت المقدس، ص: 42.

هذه النقطة نفسها يشير إليها بعض المفسرين، لا سيما المحدثين منهم مثل سيد قطب رحمه الله، الذي يقول إن هذا التعبير ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يشير إلى أن الأقصى هو النقطة المركزية في هذه الأرض، بل إنّ البركة تفيض عنه إلى ما حوله[49]. أي أن الأقصى هو فعلاً أصل هذه البركة و سببها و مصدرها، بمعنى آخر: وجود الأقصى هو سبب بركة الأرض التي بارك الله فيها.

يخصّص القرآن الكريم البركة بأرض محددة في أربعة مواضع أخرى في القرآن الكريم، وهذه الآيات هي التالية:

1 – ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [**الأنبياء**: 71]

2 – ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [**الأعراف**: 137]

3 – ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ [**سبأ**: 18]

4 – ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [**الأنبياء**: 81]

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم يصف هذه الأرض المحددة بـ ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [**الأنبياء**: 71]، وليس باسم (الأرض المباركة). ومن الهامّ جدًّا ملاحظة أنّ لفظ (الأرض المباركة) لم يرد مطلقًا في القرآن الكريم.

في المقابل، يمكن ملاحظة أنّ القرآن الكريم أضاف لفظ البركة إلى الكعبة المشرَّفة نفسها، وذلك كما يظهر جليًّا في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [**آل عمران**: 96]. وأرى أنّ هذا يعدّ دليلاً واضحًا على أن الأقصى المبارك هو بالفعل سبب بركة الأرض التي بارك الله فيها ومصدره، فهو مبارك ببركة تصدر عنه، وهي التي تسببت في بركة الأرض التي حوله. ولو كانت البركة لتلك الأرض نفسها – بغضّ النظر عن وجود الأقصى أو عدمه – لكان القرآن الكريم قد أطلق عليها لفظ (الأرض المباركة)، أي أنه كان سيضيف لفظ البركة إلى الأرض نفسها، كما هو الحال في الكعبة المشرَّفة.

وهذا يعني أن البركة أُعطيت للأرض التي حول الأقصى، سواء أكانت أرض الشام أم أكبر منها أم أصغر، بسبب وجود المسجد الأقصى المبارك. وهذا الأمر ينطبق على الأرض الحرام، حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبراهيم حرَّم مكة.» الحديث[50]، وفي الوقت نفسه نجد أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يُطلق لفظ ﴿بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ قبل أن يعيد بناء الكعبة، وقبل أن يُحَرِّم الأرض الحرام التي حول الكعبة. وذلك في الآية الكريمة: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [**إبراهيم**: 37]. فدلّ ذلك على أنّ حرمة الأرض

(49) انظر في ظلال القرآن، ج: 4، ص: 2212.

(50) انظر صحيح مسلم، ج: 1، ص: 556 – 560.

الحرام منوطة بالمسجد الحرام نفسه (أي الكعبة هنا) وهو سبب حرمتها، كما أن المسجد الأقصى المبارك هو سبب بركة الأرض التي بارك الله فيها.

أمّا فيما يتعلّق بالأرض المقدسة وعلاقتها بالقرآن الكريم، فإنه يمكننا أن نلاحظ أنّ لفظ (الأرض المقدسة) ورد فعلاً في القرآن الكريم مرة واحدة في الآية الكريمة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [**المائدة**: 21]، وهنا يمكن ملاحظة أن القرآن الكريم هنا أضاف تعبير القدسية إلى الأرض نفسها. ولا يوجد هنا أيّ علاقة بين المسجد الأقصى المبارك وقدسية الأرض المقدسة لأن القدسية هنا مضافة للأرض نفسها.

وهنا يمكن مقارنة وضع المسجد الأقصى المبارك بالنسبة للأرض المقدسة مع وضع المسجد النبوي الشريف بالنسبة لحرم المدينة. حيث إن حديث النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة لتحريم منطقة حرم المدينة جاء بعد بناء المسجد النبوي ولكن دون أن يربط حرمة المدينة بالمسجد، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه الإمام مسلم: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرّم المدينة»[51].

قد يقول قائل إن هذا الحديث يبين أن حرمة المدينة جاءت بسبب وجود المسجد النبوي الشريف كما أن حرمة مكة جاءت بسبب حرمة الكعبة، وأردّ بأن هذا الادعاء غير دقيق، فالكعبة محرّمة قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بدليل قوله قبل أن يعيد بناء الكعبة: ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [**إبراهيم**: 37]، فدلّ ذلك على أن تحريمه عليه الصلاة والسلام لمكة المكرمة جاء نتيجة لوجود بيت محرّم هناك كان محرّمًا قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام نفسه. وهذا الأمر غير متحقق في المدينة المنورة، فالمسجد أُوجِدَ ولم يتمّ إعلانه حَرَمًا بل مسجدًا، ومن ثم حرمت المدينة بذاتها، فكانت حرمتها بالتالي في ذات الأرض دون النظر لوجود المسجد النبوي الشريف أو عدم وجوده زاده الله تشريفًا وكرامةً.

وكذا الأمر بالنسبة للمسجد الأقصى المبارك، فقدّسية الأرض المقدسة مضافة للأرض نفسها دون النظر إلى وجود المسجد أو عدمه، وهذا لا يعني بالتأكيد أنه لا علاقة للمسجد بمفهوم القدّسية، فلئن كانت الأرض مقدّسة بذاتها فإنما الأقصى هو أقدس نقطة في الأرض المقدّسة، ولكن باعتباره مكان العبادة الأبرز في الأرض المقدّسة وباعتبار وظيفته الأساسية التعبّدية، كما دل على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسجد الأقصى.»[52]

(51) صحيح مسلم، ج: 1، ص: 556.

(52) انظر صحيح البخاري، ج: 1، ص: 223.

وفي ظل هذه النتائج، يمكن أن نقدّم هنا رابطًا جديدًا ليس فقط بين المسجدين الحرام والأقصى، بل أيضًا شكلاً للعلاقة بين المساجد الثلاثة الكريمة: الحرام، والنبوي، والأقصى، وعلاقة كل واحد منها بالأرض التي حوله، ويمكن تلخيصها بالنقطة التالية:

المسجد الحرام هو مصدر حرمة أرض الحرم المكي وهو أصل هذه الحرمة، وأما المسجد النبوي الشريف فإنه ليس مصدر حرمة أرض الحرم النبوي لأنها محرّمة بذاتها. بينما المسجد الأقصى المبارك يجمع بين المسجدين: فالأقصى المبارك هو مصدر بركة الأرض التي بارك الله فيها وهو أصل هذه البركة، وفي الوقت نفسه لا يعدّ المسجد الأقصى مصدر قدسية الأرض المقدسة لأنها مقدسة بذاتها، فهو بهذا يرتبط بالمسجد الحرام من ناحية البركة، ويرتبط بالمسجد النبوي من ناحية القدسية[53].

وأهم نقطة في هذا المجال هي ارتباط المسجد الأقصى المبارك بالمسجد الحرام من حيث البركة باعتبار موضوع هذا الكتاب. فالمُلاحَظ أن المسجدين يرتبطان حتى في أهم مميزات «شخصية» كل منهما: فالمسجد الحرام وميزته الأساسية وهي الحرمة يرتبط بالشكل نفسه مع المسجد الأقصى المبارك في ميزة البركة، وهي أهم ميزاته بالتأكيد كما يتّضح من نص القرآن الكريم عليه في سورة الإسراء كما أسلفنا. مع ملاحظة أن البيت العتيق نفسه (أي الكعبة) تتميز أيضًا بأنها مباركة في نفسها كما يظهر من النص القرآني الكريم.

وهذا الأمر يفتح مجالاً جديدًا للباحثين، حيث يطفو سؤال أساسي هنا حول ماهية العلاقة بين مفهومي الحرمة والبركة، هل يمكن القول إن هناك علاقة ما بين هذين المفهومين في الإسلام؟ وما مظاهر هذه العلاقة وما دلالاتها ونتائجها؟ هذه الأسئلة نطرحها للمزيد من البحث في المستقبل بإذن الله.

إذًا، فإنه من الواضح أن هناك روابط كثيرة، تارةً بالتلميح وتارة بالتصريح، يمكن ملاحظتها ضمن سياقٍ طويل من الخطوات والأحداث التي حصلت في تلك الفترة، ما يحفز الباحثين للمزيد من التفكير والبحث في الأهداف والأسباب التي من أجلها كان هذا الرابط الوثيق بين المسجدين الجليلين: الحرام، و الأقصى المبارك.

(53) انظر أيضًا: Geographical Dimensions of Islamicjerusalem, p: 79 - 90

2

المحور الثاني

التاريخ

الباني الأوّل والفترة اليبوسية

«مَن أوّل من بنى المسجد الأقصى المبارك..» هذا السؤال هو أول الأسئلة التي تتبادر إلى ذهن دارسي المسجد الأقصى المبارك من الناحية التاريخية... وللإجابة عن هذا السؤال يَجِب علينا العودة إلى الحديث الشريف المروي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: «قلتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلاً؟» قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ.» قَالَ: قُلْتُ:«ثُمَّ أَيٌّ؟» قَالَ: «الْمَسْجِدُ الأَقْصَى.» قُلْتُ: «كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟» قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً...» الحديث.»

كنا قد أسلفنا بأن هذا الحديث الشريف يعطينا إشارة واضحة إلى توقيت بناء المسجد الأقصى المبارك، وبالتحديد بعد وضع المسجد الحرام في الأرض بأربعين عامًا، وقد ذكرنا سابقًا اختلاف العلماء والمؤرِّخين في مسألة الباني الأول للمسجد الأقصى المبارك على أربعة أقوال:

1 – الملائكة، وذلك قبل وجود البشر على الأرض.

2 – سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام.

3 – شيث بن آدم عليه الصلاة والسلام.

4 – سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وكنا قد فصّلنا بعض التفصيل في المقارنة بين الأقوال الثلاثة (الملائكة وآدم وشيث) ورجّحنا أنّ آدم عليه السلام هو الأرجح بينها، ولكن نبحث الآن في مسألة المقارنة بين سيِّدنا آدم عليه الصلاة والسلام وإبراهيم عليه الصلاة والسلام في بناء الكعبة المشرَّفة والأقصى المبارك. ولتحليل هذه النقطة، نتناول كلمات هامّة في الحديث الشريف، أهمها كلمة (وُضِعَ)، وكلمة الوضع في الأرض في هذا الحديث تعني التسمية والتحديد، فأول مكان سمِّي في الأرض مسجدًا وتقرر أنه مسجد لله تعالى هو المسجد الحرام، ويجوز أن يكون المقصود بناءه الأوّل، أي تحديد معالمه فوق الأرض، وفي هذا المعنى أيضًا يكون البناء الأول للمساجد على وجه الأرض للمسجد الحرام، وبعده بأربعين عامًا يأتي بناء المسجد الأقصى المبارك وتحديد معالمه.

وعند بحث الخلاف هنا في بناء البيت الحرام بين (آدم) و(إبراهيم) عليهما الصلاة والسلام، نجد أن

أصحاب الرأي القائل إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الباني الأول استدلّوا على ذلك بأن القرآن الكريم ذكر في القرآن الكريم قصة بناء الكعبة على يد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وليس آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: 127] . والمعروف أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش في فلسطين، والمعروف تاريخيًّا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام دخل المسجد الأقصى المبارك وصلى فيه والتقى فيه بالملك الصالح (ملكي صادق) اليبوسي.

ولكن رد عليهم أصحاب القول الآخر بأن كلمة ﴿يَرْفَعُ﴾ تدلّ على أن بناء إبراهيم عليه السلام للمسجد الحرام كان بناء ترميم وليس بناء تأسيس، والدليل على ذلك قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما ترك السيدة هاجر وإسماعيل عليه السلام وهو صغير في مكة المكرمة: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم: 37]، والمعروف أن إبراهيم عليه السلام بنى البيت الحرام مع إسماعيل عليه السلام عندما كبر..!! ومعنى أنه ذكر أن هذا المكان الفارغ هو (بيت الله المحرم) فذلك يعني أن المكان كان معروفًا أنه مكان المسجد الحرام قبل إبراهيم عليه السلام وبنائه له..!! وبالتالي فإن بناء الأقصى يكون قبل إبراهيم عليه السلام أيضًا، ويرجح القول بأن آدم عليه السلام هو أول من بنى المسجد الحرام والمسجد الأقصى المبارك لأنه أول البشر وأول الأنبياء أيضًا.

وممّا سبق، بالإضافة لما ذكرنا سابقًا من أدلّة عمرانية وهندسيّة، يرجَّح لدينا القول بأن أول من بنى المسجد الأقصى المبارك بعد بناء المسجد الحرام بأربعين عامًا كان سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام أول البشر والأنبياء وليس إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو غيره، وبناء آدم عليه السلام للمسجد الأقصى المبارك كان بناء تحديد لحدوده المعروفة حاليًّا وهي 142 – 144 دونمًا..!! والعجيب أن بناء المسجد الأقصى المبارك وحدوده بقيت كما هي منذ ذلك الوقت إلى وقتنا الحاضر.. وسبحان من حفظ بيته المقدس كما حفظ بيته الحرام ومسجد نبيّه الكريم صلى الله عليه وسلم...!!!

بنى آدم عليه الصلاة والسلام المسجد الأقصى المبارك بأمر الله تعالى وبتحديد حدوده من عند الله سبحانه، وتعاهده من بعده المؤمنون، إلا أن أخبار المسجد الأقصى المبارك انقطعت فيما بعد ذلك في العهود البائدة من بعد آدم عليه السلام لانعدام التأريخ في تلك الفترة، ولم تذكر أيّ مصادر تاريخية أو تراثية أو أثرية تلك الفترة الموغلة في القِدَم القليلة البشر، إلى أن حفظت لنا سجلات التاريخ أول مجموعة من البشر قدمت لهذا المكان المبارك واستوطنته للمرة الأولى في التاريخ، وهم اليبوسيّون من بطون العرب الأوائل، وذلك منذ أكثر من ستة آلاف عام.

واليبوسيّون هم من بطون العرب التي هاجرت من موطنها الأصلي واستقرت في مدينة القدس وما حولها، وعرفت تلك الأرض باسمهم (أرض اليبوسيين) وتبعهم في الهجرة بطون الكنعانيين الذين سكنوا معظم مناطق الشمال الفلسطيني وسمِّيت باسمهم (أرض كنعان)، وأهم المدن في فلسطين في تلك الفترة كانت (يبوس) وهي القدس التي دعيت بهذا الاسم نسبة لليبوسيين، وهناك مدن أخرى هامة في تلك الفترة مثل (شكيم) وهي نابلس اليوم، و(حبرون) وهي الخليل اليوم، وغيرها من مدن فلسطين التي اصطبغت بتلك الصبغة منذ البداية.

ومن أشهر ملوك القدس في تلك الفترة الملك (ملكي صادق) الذي عرف عنه صلاحه ودفاعه عن المدينة المقدسة، حيث وقف في وجه الغزوات المتتالية من الكثير من الشعوب المجاورة من مصر والعراق وغيرهم وصدها، وكان هذا الملك يحكم القدس الشريف حين جاءها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذكر في الآثار التاريخية التوراتية أنهما التقيا، ونحن نقول إن هذا لو صحّ فإنه من الأكيد أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام صلى في الأقصى المبارك في عهد (ملكي صادق)، وجدد إعماره.

ومن الجدير بالذكر أن بقايا الآثار اليبوسية في المدينة المقدّسة ما تزال باقية في سورها في رأي بعض الدارسين والباحثين، حيث تظهر بعض الحجارة اليبوسية على سبيل المثال في أخفض زوايا السور المقدسي، وهي الزاوية الجنوبية الشرقية من سور الأقصى المبارك، والتي تشكِّل نقطة نهاية مقبرة (باب الرحمة) اليوم، وتعتبر هذه المنطقة أقدم الآثار الإنسانية في مدينة القدس كاملة.

على أن بعض المؤرخين والأثريين يقول إن هذه المنطقة الحجرية رومانية وليست أقدم من ذلك، ولكن أجدني قد أخالف هذا الرأي خاصة عن مقارنة أحجام هذه الحجارة وأشكالها مقارنة مع الحجارة الكبيرة الرومانية التي تنتشر في الكثير من الأبنية التاريخية الرومانية، والكثير منها منتشر في بلاد الشام مثل مدينة جرش وآثار مدينة عمّان في الأردن، وآثار مدينة روما في إيطاليا وغيرها، ولم أر شخصيًّا في حياتي أيّ حجارة رومانية تشبه في تكوينها وتركيبها الحجارة في هذه الزاوية من الأقصى المبارك بالذات.. ولذلك فإني أرى أنّ هذه الحجارة قد تكون أقدم من الفترة الرومانية ومختلفة عنها.. علمًا بأن هذا الموضوع مفتوح للبحث والنقاش ويمكن تعديل الرأي فيه حسب الاكتشافات والبحث الذي يظهر على يد المختصين في الآثار.

الحكم الهكسوسي.. والفراعنة.. وحكم العمالقة

وفي هذه الفترة تعرّضت القدس للغزو الهكسوسي الذي ضمّها إبّان اجتياح الهكسوس لمصر والشام، وفي هذه الفترة ظهر سيّدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام بعد سيّدنا إسحق عليه الصلاة والسلام، وظهر بنو

إسرائيل الذين استوطنوا جنوبي بادية النقب مع يعقوب عليه السلام إلى أن انتقلوا للحياة مع سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام في مصر حسب ما نصّ القرآن الكريم ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف: 99].

وفي تلك الآونة ظهرت قبائل جديدة بدأت تفد إلى أرض كنعان ويبوس من خلال البحر الأبيض المتوسط ومنطقة بحر إيجة ، وهم قبائل (بلستيا) الذين دخلوا البلاد واندمجوا بأهلها لتصبح البلاد معروفة باسمهم (فلسطين).

وما إن ضعف الوجود الهكسوسي في فلسطين حتى خضعت المدينة المقدسة كباقي مناطق فلسطين إلى سلطة الفراعنة في مصر، الذين كان لهم نفوذ كبير في تلك الفترة وخاصة في الحكم، إلا أن القدس وما حولها من الأراضي الفلسطينية كانت تتمتع بحكم شبه ذاتي مع وجود الحكام الموالين للفراعنة.

وقد وُجِدَت عدة أدلة وآثار تاريخية تؤرخ لتلك الفترة، ونص الكثير من الباحثين الأثريين على أن ما يسمى (طنطور فرعون) والموجود في وادي قدرون هو قبر يرجع للفترة الفرعونية لتشابه البناء فيه مع البناء الفرعوني، ووجود بعض الأدلة الأثرية المشابهة للآثار الفرعونية في المنطقة، وهذا الأمر في طريقه للبحث والتنقيب الدقيق لزيادة التأكيد على هذا الأمر، إذ تزعم سلطات الآثار الإسرائيلية في هذه الأيام أن هذا النصب هو عبارة عن قبر يرجع للفترة اليهودية الأولى ويسمّونه (نُصُب أبشالوم) وأبشالوم في المصادر التوراتية اسم أحد أبناء داود عليه السلام.

ولا تذكر لنا المصادر التاريخية أحوال المسجد الأقصى المبارك بالتحديد في تلك الفترة، أي فترة ما بعد يعقوب عليه السلام والأسباط ، إلا أنه يمكن القول إن يعقوب عليه السلام ومن قبله أبوه إسحق عليهما السلام زارا المسجد الأقصى المبارك على الأرجح وصلّيا فيه وعمَراه، لأنهما نبيّان، والأقصى كان موجودًا قبلهما مسجدًا لله عزّ وجلّ، ولذلك فالمنطق يقول إنهما زارا المكان وصلّيا فيه، ويجب أن نؤكّد هنا أن هذا الأمر لا يعطي أي حق لليهود في المسجد الأقصى المبارك. لأن المصادر الإسلامية الأساسية، وبالتحديد القرآن الكريم، يؤكد أن الأنبياء جميعًا مسلمون، وأن إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط هم مسلمون كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 140] ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: 65]. وبالإضافة إلى ذلك ينبغي التنبه إلى أنّ اليهود الموجودين حاليًّا لا يمتّون بصلة عِرقيّة ليعقوب عليه الصلاة والسلام ولا لأبنائه على الأرجح، وحتى الصلة الدينية مشكوك جدًّا في صحتها بناءً على تأكيد القرآن الكريم.

وبحكم الفراعنة للمدينة المقدسة ودخول العناصر الخارجية من قبائل بلستيا واندماج أهل الأرض المقدسة معهم ومع باقي شعوب المنطقة دخلت العقائد المنحرفة عن ديانة إبراهيم الحنيفية عليه الصلاة والسلام، وبدأ الانحراف العَقَديُّ يظهر واضحًا في سلوك أهل المنطقة وعبادتهم، وبالتالي فإن الانحراف انتقل لمنطقة المسجد الأقصى المبارك بالتأكيد، وباتت الأرض المقدسة في حاجة لإعادة ترتيبها إيمانيًّا وعقَديًّا.

ومع ضعف قبضة مملكة الفراعنة في مصر بسبب التناحر فيها على الحكم والتناحر العرقي بين بني إسرائيل من جهة والمصريين من جهة أخرى ضعف الحكم الفرعوني، وظهر الجيل الجديد من سكان مدينة القدس والأرض المقدّسة من اليبوسيين والكنعانيين والفلسطينيين ممن تميزوا بالشدة والغلظة والقوة الشديدة، فحكموا مناطق واسعة من الأرض المقدسة مع موالاتهم المعلَنة للفراعنة، إلا أنّ الحكم الذاتي شبه المستقل بدأ يظهر في المنطقة، وهؤلاء هم الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم على لسان بني إسرائيل: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: 22]، كما أنّ لهم تسمية أخرى معروفة عنهم في التاريخ وهي (القوم العمالقة)، وهؤلاء القوم كانوا على أشدّ الانحراف الديني عن المنهج الصواب. وهنا يأتي دور التوجيه الرباني للمحررين الأوائل لهذه الأرض المقدسة، سيدنا موسى عليه وسلم وقومه بني إسرائيل المسلمين.

رسالة سيِّدنا موسى عليه السلام، وحُكم بني إسرائيل

الحقيقة أن الكثير من المسلمين لا يعلمون حقيقة رسالة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وحقيقة دعوته الإسلامية الكريمة، فيظنها الكثيرون دعوةً لفرعون ليكون من المسلمين فقط..!!! ويظن البعض أن سيِّدنا موسى عليه السلام أرسل لفرعون والمصريين، فإذا قرأوا آيات القرآن الكريم اختلط عليهم الأمر في دعوة فرعون في طلب موسى عليه السلام: ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: 47]. وإنّك إذ تتلو القرآن الكريم تجد الحديث بين موسى وفرعون ليس حول دعوته للإيمان بموسى عليه السلام فقط، وإنما حول عنوان كبير هو (بنو إسرائيل)، والسماح لهم بالذهاب مع موسى عليه السلام. كذلك لم نجد في القرآن الكريم ما يفيد بأن موسى عليه السلام أُرسل لدعوة بني إسرائيل لعبادة الله، وإنما الواضح من الآيات المتحدّثة عن قصة موسى عليه السلام جميعها أن بني إسرائيل كانوا مسلمين فعليًّا في تلك الفترة و لم يكونوا من عبدة غير الله تعالى.. بل إنّهم كانوا يعلمون أنه لا إله إلا الله.. ولكن مشكلتهم كانت طغيان المادية عليهم، والواضح من رسالة موسى عليه السلام أنه أُرسل إليهم ليخرجهم من مصر.. اقرأ الآيات التالية:

- ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [**الأعراف**: 105]
- ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [**الشعراء**: 17]
- ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [**الأعراف**: 134]

الآيات واضحة... والدليل واضح على أن هدف الدعوة شيء آخر.. والحقيقة أنه لو كان الهدف الوحيد لدعوة موسى عليه السلام هو دعوة الفراعنة والمصريين للإسلام فقط، لَما أوحى الله تعالى إليه بالخروج من مصر كما في الآية الكريمة: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء: 52]. وغيرها من الآيات الدالة على ذلك في سورة الدخان وسورة طه. وعندما خرج بنو إسرائيل خرجوا جميعًا من مصر، أي أن المقصود كان إخراج بني إسرائيل بصفتهم أهل الإيمان في الأرض في ذلك الوقت من مصر.. ولكن إلى أين؟ اقرأ الآية الكريمة: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: 21].

إذن، من خلال كل هذه الآيات، ومن ترتيب الأحداث في قصة موسى عليه السلام، ومن قصة بني إسرائيل بعد ذلك ورفضهم دخول الأرض المقدسة ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾[المائدة: 22]، يتبيّن لنا أنّ الهدف الرئيس لرسالة موسى عليه السلام كان إخراج بني إسرائيل من مصر، وقيادتهم إلى الأرض المقدسة التي كان فيها القوم الجبارون ليُخرجوهم منها ويحلّوا مكانهم.. أي بمعنى آخر: تحرير الأرض المقدّسة من القوم الجبارين...

المعنى واضح، والهدف الآن ظهر جليًّا، وعندما ندرس قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وسيرته مع بني إسرائيل في سياق هذا الهدف الكبير تتبين لنا الأمور المبهمة في القصة، ويتبين لنا سبب عقاب بني إسرائيل بالتيه في الأرض لأربعين عامًا بعد رفضهم دخول الأرض المقدسة وتحريرها، ويتبيَّن لنا أيضًا هدف قصتهم وسياقها مع النبي الآخر الذي أدخل بني إسرائيل (المؤمنين في ذلك الوقت) إلى الأرض المقدسة في قتالهم لجالوت قائد العمالقة (الفلسطينيين الكافرين في ذلك الوقت) وبالتالي تحرير المسجد الأقصى المبارك وإعادته لشريعة الله تعالى، وسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، فقد انقلبت الأحداث اليوم، واصبح مؤمنو الأمس كفارَ اليوم، وأصبح كفار الأمس مؤمني اليوم الذين يدافعون عن الأرض المقدَّسة.!!

وفعلاً، تاه بنو إسرائيل في الأرض أربعين عامًا حتى ظهر منهم جيل يستحق تحرير الأرض المقدسة، وعمرانها بشرع الله تعالى، ليقودهم بعد ذلك أحد أنبيائهم (تذكر التوراة بأنه «يوشع») ويدخلهم الأرض المقدسة. ومضى بنو إسرائيل للأرض المقدسة، حيث كان خروجهم أيام موسى عليه السلام عن طريق لسان

البحر الأحمر المواجه لسيناء، وبالتالي فإن أرجح مكان للتيه هو صحراء سيناء، على خلاف بين العلماء في ذلك، وانتقلوا إلى شرقي الأردن ليدخلوا الأرض المقدسة من جانب الأردن الشرقي.

وأما دليل ذلك من التاريخ فهو ما عرف في التاريخ المعاصر باسم (رسائل تل العمارنة) التي عُثر عليها عام 1887م، وهي رسائل تبادلها كلٌّ من الفرعونين أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع (إخناتون) (اللذين عاشا فيما بين 1410 ـ 1360 ق.م) من ناحية، وبين أمراء الشرق الأدنى و ملوكه من ناحية أخرى، وخاصة (الفلسطينيين) الجبابرة الذين عاشوا في الأرض المقدسة، وكنا قد ذكرنا أنّ ملوك الفلسطينيين كان لهم حكم ذاتي واسع، إلا أنهم كانوا يبينون ولاءهم علنًا للفراعنة، وسرعان ما انتهى هذا الولاء بانتقال الأرض المقدسة إلى غيرهم.

ويذكر في أحدى هذه الرسائل رسالة من والي القدس إلى فرعون مصر يخبره أن قبائل يُطلق عليها اسم (خبري) (أي عبري) أخذت تنتقل من الصحراء إلى داخل الأرض المقدسة مهدّدةً الأمن، وتقوم بالسلب على طول الطريق. ومن الجدير بالذكر أنّ بعض الباحثين كانوا يظنون قديمًا أن هذه الرواية تتحدث عن العراق، ولكن الرجل كان واليًا على القدس، ولم يكن واليًاعلى العراق، ولذلك فإن الأصل أن هذه العبارات تدلّ على كلامه عن بني إسرائيل، وكلمة (عبري) تدلّ على عبورهم نهر الأردن.

ومن ثم يتوالى الجيل وراء الجيل ليظهر فيهم نبي يأمرهم بالتوجه إلى القدس نفسها بعد أن اختار لهم (طالوت) ملكًا، وهذه القصّة موجودة في سورة البقرة في القرآن الكريم، كما أنها موجودة بشكل قريب للقرآن الكريم في التوراة، مع تسمية (طالوت) باسم (شاول) في التوراة، ووقعت معركة طالوت وجالوت، وقتل داودُ عليه السلام جالوتَ ملك الفلسطينيين، وبالتالي آل الأمر إلى بني إسرائيل المؤمنين وإلى سيدنا داود عليه السلام الذي سرعان ما انتقل بالمؤمنين لتحرير المسجد الأقصى المبارك والقدس، وأقام هناك (مملكة داود) التي كان مركزها كما يذكر الأثريون اليوم في قرية (سلوان)، ولم يُقم عليه السلام مدينته في داخل السور المعروف اليوم، والسبب في ذلك وجود نبع المياه في سلوان (عين سلوان) الغزيرة، ودخل عليه السلام الأقصى المبارك وصلى فيه وعمَره على الأرجح.

وهنا نشير إلى روايات شعبية مُنتشرة أصلها من الإسرائيليات وتذكر قصة معيّنة حول شراء سيدنا داود عليه السلام لأرض المسجد الأقصى المبارك من رجل يبوسي اسمه (أرنان) كان يملكها ويقيم فيها بيدرًا، وهذه الرواية لم يَرِد لها أصل لا في الواقع ولا في الآثار الإسلامية المختلفة، وإنما يبدو جليًّا أن هذه الرواية مختلقة ليبدو الأمر وكأن اليهود اشتروا أرض الأقصى من اليبوسيين بالفعل! وهذه الرواية ليست دقيقة.. خاصة بعد أن

نوازنها مع الدراسة الأثرية لقِدَم بناء المسجد الأقصى المبارك ومقارنته بالكعبة المشرَّفة، حيث يبدو واضحًا أن الأقصى كان موجودًا بالفعل في تلك الفترة، علاوةً على أن المعروف تاريخيًّا أن أرضية الأقصى لم يقم عليها أي بناء سكني (أي لم يقم عليها أي بناء سوى بيوت العبادة) طوال تاريخها، ولم يسجّل التاريخ تملّك أحد لهذه المنطقة، والتاريخ شاهد حق.

وهكذا قام الحكم الفعلي لأول مرة لبني إسرائيل في الأرض المقدسة، ودام سبعين عامًا فقط، حيث انتقل الأمر بعد سيدنا داود عليه السلام إلى سيدنا سليمان عليه السلام، الذي جدد بناء المسجد الأقصى المبارك مرة أخرى بناء تجديد وإعمار، وفي ذلك ما ذكرناه سابقًا من رواية الإمام النسائي عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: أن سليمان بن داود صلى الله عليه وسلم لمَّا بنى بيتَ المَقدسِ سألَ الله عزّ وجلّ خِلالاً ثَلاثًا: (سأل الله عزّ وجلّ حُكمًا يُصادِفُ حُكمَهُ فَأُوتِيَه، وسأل اللهَ عزّ وجلّ مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده فَأُوتِيَه، وسأل اللهَ عزّ وجلّ حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتِيَهُ أحد لا يَنهَزُهُ إلا الصلاة فيه أن يخرِجَه مِن خطِيئَتِه كيوم وَلَدَتْهُ أمُّه). وهذا البناء هو الذي يدّعي اليهود نسبته إليهم، علمًا بأنهم لا يؤمنون بنبوّة سليمان عليه السلام أيضًا، فيسمّونه (الملك سليمان)! وعلى كل حال فالأمر سيتضح بإذن الله تعالى أكثر عند الحديث عن عقيدة اليهود والنصارى في المسجد الأقصى المبارك.

وقد يسأل سائل: (لماذا لا نجد أيّ أثر من آثار فترة سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام مع ضخامتها التي تصل حدّ الخيال..؟) وهذا السؤال كان قد أثير كثيرًا في عدة مناسبات وخاصة أن بعض الأثريين المتخصِّصين في بيت المقدس أخبرني بأنه حسب التنقيبات الأثرية لا يوجد أثر من آثار فترة سيِّدنا سليمان عليه الصلاة والسلام في محيط منطقة الأقصى أو القدس![54] كيف وهو نبي وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جدَّد بناء المسجد الأقصى...!! لعلها تظهر كمشكلة معقدة في البداية..!!

وأرى أن هذا الأمر واضح للعيان في آية كريمة في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

[ص: 35 – 38].

(54) كنت أسأل عن هذه القضية وأحاول التأكد منها أكثر من مرة، وكانت آخر مرة تأكدت فيها من ذلك خلال مؤتمر تواصل مرئي تم في شهر مارس 2008م، في المملكة المتحدة بالتعاون بين مركز دراسات بيت المقدس في معهد آل مكتوم/ جامعة أبردين، وقسم علوم الآثار والعلوم الإنسانية في جامعة ويلز لامبتر، حيث أكد لي أحد الأساتذة المتخصصين في علوم الآثار التوراتية، وهو د. أندرو بيترسون، عدم وجود أي أثر يرجع لأيام سليمان عليه الصلاة والسلام أو فترة الحكم اليهودية في المنطقة التي حول المسجد الأقصى المبارك.

لماذا قال (لا ينبغي)؟

إن التاريخ هو مختبر القرآن الكريم كما كان يذكر دائمًا أحد أعمدة دراسات التفسير في الوقت الحاضر وهو الأستاذ الفاضل د. أحمد إسماعيل نوفل، وقول الله تعالى ﴿لَا يَنبَغِي﴾ مُطلَقًا هكذا يدل على أن هذا المُلك لا يكون لأحد من بعد نبي الله سليمان عليه السلام بشكل مُطلَق، وهذا ما يفسر انتهاء ملكه عليه السلام نهائيًّا بعد وفاته.

إنه عليه الصلاة والسلام كان قد دعا أن يكون له مُلكٌ لا ينبغي لأحد من بعده وكانت دعوته في هذا المجال مُطلقةً عامة ولم يبين عليه الصلاة والسلام ما الذي لا ينبغي لأحد من بعده في ملكه عليه الصلاة والسلام.. هل لا ينبغي لأحد من بعده أن يملك مثله؟ أو أن يرى مثله؟ أو أي يرى أثرًا منه؟... إنني أرى أن التاريخ أثبت أن معنى دعوته كان انتهاء آثار ملكه عليه الصلاة والسلام من الأرض و اختفاءها، والدليل على ذلك أننا لا نجد اليوم أي أثر يدلّ على ملكه عليه الصلاة والسلام، وتم هذا الاختفاء بطريقة طبيعية بالتأكيد، ولم يكن اختفاءً مفاجئًا كما قد يظن البعض، فأين ذهب كل هذا الملك؟ وأين ذهب كل ما ذكره القرآن الكريم من تماثيل ومحاريب وجِفان عملاقة وصروح ممرّدة من القوارير، والتي لم نعثر لها على أثر؟!

إن بعض العلمانيين من علماء التاريخ والآثار أراحوا أنفسهم من عناء البحث وادَّعوا بأن (مملكة سليمان) كانت مجرد مملكة خيالية ليس لها وجود.. أي أنها أسطورة! ولكن المسلمين يرفضون تمامًا هذا الرأي، لأن القرآن الكريم قد تحدث عن عظمة ملك سليمان عليه الصلاة والسلام وجلاله، ولا يمكن أن يتمّ تكذيب القرآن الكريم أو الادعاء بأنّ مملكة سليمان عليه الصلاة والسلام لم تكن موجودة كما يدّعي هؤلاء.. بل كانت موجودة، وكانت أعظم ممالك العالمين قاطبة، ولم تشهد البشرية ملكًا كملْكه عليه الصلاة والسلام... فأين ذهب كل هذا؟

إن رأيي الشخصي أنّ التاريخ بما أنه مختبر القرآن الكريم فهو الذي فسّر لنا هذه الآية الجليلة من كتاب الله عزّ وجلّ، فلا ينبغي لأحد من بعده عليه السلام أن يشاهد ملْكًا كملْكه أو يكون له مثله، ولعله بسبب هذه الدعوة الكريمة المُطلَقة العامّة منه عليه الصلاة والسلام اختفت مملكته العظيمة من العالم الإنساني، والله تعالى أعزّ وأعلم.

البابليون والفرس، وعودة اليهود

وبوفاة سيدنا سليمان عليه السلام انتهى الحكم الفعلي لليهود في القدس وما حولها من أرض بيت المقدس، فبدأ الفساد يظهر بجلاء ووضوح، وابتعدوا عن منهج داود وسليمان عليهما السلام، وبالتالي استحقوا العقاب، فانقسمت دولتهم إلى قسمين: (مملكة إسرائيل) في الشمال، وعاصمتها شكيم «نابلس»، ودمّرها بعد وقت قصير الآشوريون، و(مملكة يهوذا) في الجنوب وعاصمتها أورشليم «القدس». وأما هذه فقد صمدت سنوات

عديدة بعد خراب مملكة إسرائيل، حتى انقضّ عليها الملك البابلي (نَبوخَذ نَصَّر) ودمّرها وأحرق الأقصى المبارك ودمّر القدس، وسبى اليهود إلى خارج الأرض المقدسة، وبالتحديد إلى العراق، وأدبيات اليهود كثيرة في هذا المجال، حيث إن كثيرًا من فصول التوراة التي بين أيدينا الآن كُتب في هذا العهد.

وما لبث الفرس أن تمكنوا من تدمير قوة البابليين، وبسطوا سيطرتهم ونفوذهم على المنطقة، فقام (قورش) الفارسي بالسماح لليهود بالعودة إلى القدس، وعادوا بالفعل في أعداد قليلة بالمقارنة مع الأعداد التي خرجت إلى بابل كما تذكر المصادر التوراتية، وهنا تؤكد تلك المصادر أن اليهود العائدين بنوا البيت المقدَّس الذي يسمى اليوم (المعبد الثاني)، إلا أنني أرى أنه في ظل غياب الدليل الأثري والتاريخي السليم، فإن الأصل يظل على أن العائدين ربما لم يعيدوا بناء شيء أو إن أعادوا بناء شيء معيّن فإنما هو المسجد الأقصى المبارك وذلك لأقدمية وجوده في تلك المنطقة، وهو ما أرجّحه عمومًا ولا أرى فيه بأسًا على اعتبار أنّ اليهود كانوا في تلك الفترة ما زالوا مؤمني الأرض، وستتمّ مناقشة هذا الأمر في البند الخاص بعلاقة النصارى واليهود بالأقصى المبارك.

اليونانيّون

وما لبث الإسكندر الأكبر أن غزا المنطقة وبسط نفوذه عليها وعلى القدس، واصطبغت القدس بالصبغة اليونانية، حيث ذكرت بعض المصادر التاريخية الإسرائيلية أن اليونان حاولوا بسط نفوذهم على المنطقة المقدّسة أي على المسجد الأقصى المبارك، وحاولوا السماح بعبادة الأوثان فيه، إلا أننا لا نعلم مدى صحّة هذه الأخبار إذ إنها من الإسرائيليّات عمومًا، على أنّ الأمر لا تُستبعد صحته، إذ إن بني إسرائيل في تلك الفترة كانوا لا يزالون موحِّدين، وكانوا لا يزالون حَمَلة الرسالة برغم فسادهم، فلم يجرِ عليهم قانون الاستبدال إلا بعد ذلك، بينما كان اليونانيون عبدة أوثان.

الرومان.. والمسيح عليه الصلاة والسلام

إلا أن الوجود اليوناني عمومًا لم يكن طويلاً في المنطقة، فما لبثت الدولة اليونانية أن تفككت وتقسمت بعد وفاة الإسكندر المقدوني، ولم ينتظر الرومان كثيرًا، فسيطروا على المنطقة وعلى المدينة المقدسة، وأصبح اليهود وسكان القدس الأصليين كذلك في تلك الفترة، مجرد مجموعة من رعايا الإمبراطورية الرومانية، وأعطاهم الرومان حكمًا ذاتيًّا محدودًا. وكان للرومان في القدس آثار كبيرة، ومن أهمّ آثارهم الموجودة إلى اليوم في القدس شارع (الكاردو) الشهير الموجود إلى اليوم في حارة الشرف في البلدة القديمة.

وفي العهد الروماني اكتسبت القدس طابع العنف، فعرفت بين الرومان بأنها مدينة الثورات والاضطرابات، إلا أن سياسة الرومان فيها كانت كثيرًا ما تتداول بين السيف والمال.. فأُعطِيَ الرَّبَّانيون والأحبار حكمًا واسعًا بين أفراد الشعب اليهودي، إلا أن هذا الحكم لم يكن سياسيًّا وإنما كان عبارة عن سلطة دينية متمثلة في سدانة المسجد الأقصى المبارك والسيطرة على الأحكام فيه.

وزاد الرومان في ذلك فعيّنوا على القدس فيما بعد حاكمًا شهيرًا من دهاة العالم القديم هو (هيرودوس) الذي أعلن أنه وُلِدَ من أب يهودي وأم رومانية، واعتنق اليهودية تقرُّبًا إلى اليهود، إلا أنه لم يكن محبوبًا بين اليهود ولم يكن قريبًا منهم ولم يعترفوا به نظرًا إلى أنّ الأصل عندهم في إثبات يهودية الشخص أن يكون من أمّ يهودية.

وهيرودوس هذا أقام في القدس الشريف آثارًا كبيرة كثيرة ما يزال بعضها موجودًا وظاهرًا إلى هذه الأيام، ومن أهم آثاره المسوَّرة أنه قام ببناء القلعة الكبيرة في القدس، والتي يسمّيها اليهود الآن (قلعة داود) خطأً، إلا أنّ اسمها الصحيح هو (قلعة هيرودوس). وهذه القلعة ما تزال موجودة إلى الآن عند باب الخليل في القدس الشريف. وقسَّمها إلى ثلاثة أبراج سمّى كل برج منها على اسم أحد أعزّائه. وأهمّها وأعلاها برج (فصايل) الموجود إلى الآن بارتفاعه الشاهق، حيث يُعتبر أعلى برج في بلدة القدس المسوَّرة.

ومن أهم أفعاله وآثاره في القدس تجديد المسجد الأقصى المبارك، حيث قام بنقض بناء (بيت المقدس) وإعادة بنائه. وعندما نقول (بيت المقدس) هنا فإننا نقصد المسجد الأقصى المبارك، لأن هذه هي التسمية المتعارف عليها في تلك الأيام وفي المصادر التاريخية المختلفة. إلا أن اليهود لم يعترفوا ببنائه، وأصروا على أن معبدهم قد بُنِيَ مرّتين فقط، ورفضوا الاعتراف له بصنيعه.

ويبدو أن الوضع في القدس في تلك الفترة قد انحدر دينيًّا حتى الحضيض، حتى ظهر بيت من بيوت اليهود الذين بقوا على الحق والعهد، وهو بيت (آل عمران) الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ. وهم عمران وزوجته، من ثم كان منهما ابنتاهما السيدة مريم عليها السلام، وأختها، وزوج أختها النبي زكريا عليه السلام. ونبت من هذه الشجرة الكريمة ابنا الخالة، النبيان الكريمان: يحيى، وعيسى عليهما وعليهم أجمعين أطيب الصلاة والسلام. وأحبّ هنا أن أسجِّل اختلافي الشديد مع الأخ الأستاذ صلاح الدين أبو عرفة[55] في أحد آرائه الذي نص فيه على أنّ عمران عليه الصلاة والسلام هو نفسه يعقوب عليه الصلاة والسلام، وأنّه سُمِّيَ - عمرانًا - لأنه عُمِّرَ طويلاً..! وأنه هو نفسه أبو موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، وهذا الرأي في نظري فيه شطط بعيد و لَيٌّ

(55) الأخ صلاح أبو عرفة أحد الدعاة في بيت المقدس، وله عدة دراسات منشورة في القرآن الكريم وله آراء كثيرة في تفسير بعض الأحداث الواردة في القرآن الكريم وتفسير بعض الآيات القرآنية الكريمة، إلا أن الكثير منها في وجهة نظري فيه غرائب وعجائب لا تقوم على أسس علمية منهجية أو أدلة منطقية، وإنما هي مجرد افتراضات وتأويلات لا تقوم على أي دليل.

كبير لعنق النص القرآني الذي لا يدل أي دلالة على هذا الأمر. هذا أولاً، ثم إن الفترة بين يعقوب عليه الصلاة والسلام وبين مريم عليها الصلاة والسلام تتجاوز الألفيّ عام، وهذه الفترة كافية للرد على الأخ الأستاذ الفاضل، حيث إن القرآن الكريم حين نصّ على طول العمر لأحد من البشر نصّ على ذلك لنوح عليه الصلاة والسلام، وليس لأحد غيره، ولا يمكننا أن نبني نظرتنا إلى هذا الأمر على مجرّد اشتباه بأن الأعمار في تلك الفترة كانت طويلة، إذ لا دليل لدينا على أن طول عمر الإنسان في تلك الفترة كان يمكن أن يمتدّ لأكثر من ألفي عام، وهذا شطط كبير ولَيٌّ لعنق النص القرآني وتحديد له دون دليل على الإطلاق، وإنما هي مجرد افتراضات لا تقوم على أي دليل نصيّ أو علمي. ولذلك فإني أرى أن عمران عليه السلام رجل صالح من بني إسرائيل وليس هو يعقوب عليه الصلاة والسلام، وإلا لكان القرآن الكريم قد حدَّثنا بذلك صراحة أو على الأقل ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس أن يترك هكذا دون توجيه. ويكفي للنظر إلى مكانة عمران عليه السلام وميزته التي استحقَّها في القرآن الكريم هو وعائلته أن كان بيته آخر بيت مؤمن من بني إسرائيل قبل أن يجري عليهم قانون الاستبدال الإلهي، وهذا ممّا يكفيه هو عائلته شرفًا. كما يكفيهم شرفًا أن يكون منهم معجزة كبرى في العالمين هو نبيّ الله عيسى عليه الصلاة والسلام..

إن الناظر في الآيات الكريمة في سورة (آل عمران) التي تتحدث عن آل عمران وغيرتهم على هذا المكان المقدس الطاهر، يلمس بوضوح مدى الهمّ الذي كان يؤرق عمران وزوجه من الوضع الذي آل إليه بنو إسرائيل ووضع المسجد الأقصى المبارك الأسير في أيدي العصاة المنحرفين من جهة، والطغاة المحتلين من جهة أخرى، حتى كان منهما أن نذرت السيدة زوجة عمران عليها سلام الله ورضوانه ما في بطنها لله، لبيت الله المقدس، ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [**آل عمران**: 35]، وهذا ما يفسر استغرابها ولادة أنثى هي السيدة مريم، لأن التحرير والدعوة يحتاجان إلى رجل قادر على التحاور والوجود في البيت المقدس واحتمال أذى اليهود في تلك الفترة..!!

لكن لله تعالى أمره. فتكون تلك الصغيرة (مريم) هي البتول التي أخرج الله تعالى من رحمها معجزةً للبشرية هي سيدنا المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام، ومن رحم خالته زوجة زكريا عليه الصلاة والسلام أذن الله تعالى لنبي آخر من الأنبياء الكرام بالظهور وهو سيدنا يحيى عليه السلام، وبذلك يتكامل وجود ثلاثة أنبياء دفعة واحدة في بني إسرائيل، هم زكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على الانحطاط الذي وصل إليه اليهود أصحاب الرسالة في تلك الأيام. ولعلّ ظهور ثلاثة أنبياء في تلك الفترة فيهم كان بمثابة إنذار أخير لهذه الأمة التي كان الله عزّ وجلّ قد فضَّلها على العالمين كما ذكر القرآن الكريم، فكان ذلك هو الإنذار الأخير لها قبل أن يسري عليها القانون الإلهي في الاستبدال.

وبدا واضحًا أنّ اليهود فشلوا في هذا الامتحان، ولم يُفلِحوا في اقتناص الفرصة الأخيرة واستثمارها... فإذا بهم يقتلون نبيَّي الله زكريا ويحيى عليهما السلام كما ذكروا هم أنفسهم، فتذكر بعض رواياتهم (والله أعلم بصحّتها) أنهم قطعوا رأس يحيى عليه السلام وقدّموه على طبق من فضة لراقصة يهودية، ونشروا زكريا عليه الصلاة والسلام بالمنشار من مفرق رأسه الشريف، وزادوا على ذلك فحاولوا قتل نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام صلبًا، إلا أن رحمة الله تعالى تداركته فرفعه الله إليه كما يؤكد القرآن الكريم.

والواضح من دراسة سيرة الأنبياء الثلاثة وخاصة عيسى عليه الصلاة والسلام، أنّ مجيئهم كان لتذكير اليهود وإعادتهم إلى الجادّة القويمة قبل أن يأتي طوفان التغيير عليهم وعلى المسجد الأقصى المبارك الذي كانوا هم المسؤولين عن سدانته وحمايته.

ويذكر العهد الجديد (الإنجيل) الموجود حاليًّا لدى النصارى أن اليهود حوّلوا المسجد الأقصى المبارك إلى سوق للبيع والشراء، فأتاهم المسيح فيه وأخذ يطرد الباعة وهاجمهم صائحًا: (**مكتوب في الكتاب: بيتي يدعى مكانًا للصلاة، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص**) (لوقا 19 : 46).

كما جاء في العهد الجديد الموجود بين أيدينا حاليًّا أنّ عيسى عليه السلام أخبر بالنهاية التي تنتظر هذه المدينة المقدّسة من بعده بسبب أفعال اليهود وقتلهم الأنبياء بغير حق، إذ يذكر العهد الجديد قوله مخاطبًا القدس: (**سيجيء زمان يحيط بك أعداؤك بالمتاريس، ويحاصرونك ويطبقون عليك من كل جهة... ولا يتركون فيك حجرًا على حجر**) (لوقا 19 : 43 – 44).

ومع أنّ المصادر الإسلامية تصرّح بتحريف التوراة والإنجيل، إلا أن التحريف نفسه يعني أن فيهما أشياء صحيحة، وهذا ما يؤكده التاريخ، إذ إن هذه النبوءة تحققت فعليًّا، فما إن صعد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام عام 33م حتى بدأت بوادر الثورات والاضطرابات تظهر في القدس وفي رحاب المسجد الأقصى المبارك. فبدأ اليهود يقطعون طريق الرومان، ويحاولون تخريب تجارتهم وتعاملاتهم، فأشعلوا بذلك غضب الدولة الرومانية التي أرسلت إليهم جيوشًا متتالية كان أكبرها وأشدها عام 70م عندما قامت الثورة المعروفة باسم (الثورة المكابيّة). والمكابيّون هم اليهود المتدينون الذين قادوا الثورة ضد الحكم الروماني، وكان أشهر معارك هذه الثورة – حسب التصور اليهودي الحالي –معركة (جبل مسعدة) التي تقول الموسوعات والمصادر اليهودية إنها كانت أشدّ المعارك التي حدثت، حيث تمّت محاصرة الثّوار في منطقة جبل مسعدة في صحراء الضفة الغربية قرب البحر الميت، وقُتِلوا عن آخرهم (مصادر اليهود تقول إنهم قاموا بعملية انتحار جماعي وهم يعتبرون ذلك بطولةً).

تمثال أصلي للإمبراطور الروماني تيطس موجود في المتحف البريطاني في لندن (تصوير المؤلّف)

وقام الرومان بقيادة القائد الروماني تيطس (الذي أصبح إمبراطورًا فيما بعد) بمحاصرة المسجد الأقصى المبارك ومدينة القدس، واستباحوا المدينة ودمّروا المسجد الأقصى المبارك وجميع معالم المدينة وتركوها خرابًا بعد أن أجلوا سكانها اليهود وشرّدوهم في البلاد، حتى قيل إنهم لم يتركوا فيها حجرًا على حجر، ولم يُبقوا أثرًا لأي مسجد أو بيت في المدينة، وتركوا المدينة خرابًا فارغة. ولعل الرجل الصالح الذي ذكره القرآن الكريم في سورة البقرة زار القدس في هذه الفترة وأماته الله فيها 100 عام ثم بعثه بعد أن عمّرها الرومان مرة أخرى. اقرأ الآية الكريمة: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: 259]. وذلك على خلاف بين العلماء، وقال الكثير من أهل العلم إنه (عُزَيْر) الذي ذكره القرآن الكريم (وقالت اليهود عُزير ابن الله)، وقيل إنه قد دفن في قرية قرب القدس خلف جبل الزيتون مباشرة هي قرية (العيزريّة)، وله مقام ومسجد معروف إلى اليوم، وهذا الأمر لا يزال يحتاج إلى تحقيق وتمحيص من علماء الأمّة، والله تعالى أعلم.

وبقيت المدينة فارغة كذلك حتى عام 135م حيث ذكرت المصادر التاريخية أن الرومان حرثوا أرض المدينة بالمحراث، وأقاموا فيها (بأمر من الإمبراطور هدريان) مدينة جديدة سمّوها (إيليا كابيتولينا)، إلا أنهم أخرجوا حدود المسجد الأقصى المبارك من المدينة، وبقي مهملاً ومتروكًا أرضًا خواء لا شيء فيها إلا الصخرة.

البيزنطيون

إلا أن انقلابًا هامًّا حدث في العالم القديم بعد المسيح عليه السلام بحوالى ثلاثمائة عام، حين أعلن الإمبراطور الروماني (قسطنطين) وأمُّه الملكة (هيلانة) اعتناقهما الديانة النصرانية على المبادئ التي كان ينشرها (بولس) الذي يعتبره بعض المؤرخين أول من حرّف الديانة النصرانية عن حقيقتها أيام المسيح عليه السلام، فقال بألوهيّة المسيح، وأحلّ لحم الخنزير، وعدَّل الكثير من التعاليم، وهو بالتالي يُعتبَر أبا النصرانية الحديثة.

وما إن أعلن الملك وأمّه اعتناقهما الديانة النصرانية حتى تمّ قلْب النظام الروماني رأسًا على عقب، لتصبح النصرانية هي الديانة الرسمية للدولة، وانقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية في الشرق، والإمبراطورية الرومانية المقدّسة في الغرب، وبقيت الإمبراطورية البيزنطية هي المسيطرة على المدينة المقدسة.

وقد نتج عن هذا التحوّل التاريخي تغيير كبير في نظام المدينة المقدسة و طبيعتها ، حيث أصبحت القدس مدينة نصرانية، وبنى قسطنطين وأمّه هيلانة الكثير من الأبنية والشواهد التاريخية التي بقي الكثير منها موجودًا إلى الآن، ومن أهمها على الإطلاق كنيسة (القيامة) التي بنتْها الملكة هيلانة في المكان الذي صُلب فيه المسيح حسب المصادر النصرانية.

كما بَنَت الملكة (التي رُفعت بعد ذلك إلى مرتبة القديسة فأصبحت تسمى القديسة هيلانة) كنيسة المهد في بيت لحم، وآثار ما يسمى (طريق الآلام) في القدس، وغيرها من الآثار الكبيرة المعروفة.

ومع ذلك فإن العداء لليهود كان على أشُدِّه في تلك الفترة، فتُرِك اليهود خارج المدينة فترةً من الزمن، حتى سُمح لهم لاحقًا بزيارة المدينة لقاء رسوم معيّنة، أما المسجد الأقصى المبارك فإنه بقي متروكًا كما هو دون أيّ بناء، وذلك ما تدلّ عليه خريطة (مادبا) الفسيفسائية البيزنطية الموجودة إلى اليوم في كنيسة (مادبا) بالمملكة الأردنية الهاشمية، حيث يُلاحظ فيها أن مكان الأقصى المبارك فارغ وليس فيه أيّ بناء، وخلفه مباشرة يظهر بناء كنيسة الجثمانية الواقعة اليوم أسفل جبل الزيتون في وادي قدرون، أي أن الأقصى المبارك كان في أيامهم يُعتبر مكانًا خارج المدينة كلها. وهذه الخريطة تم إنجازها بين عامي 560 و 565 للميلاد، أي قبل ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام بسنوات قليلة، وبالتالي فإنه يمكن أن نتصور أنها تمثل القدس في عصر النبوة.

خريطة مادبا بالأردن، ويظهر مكان الأقصى فارغًا خارج حدود المدينة (تصوير المؤلف)

وبقي الأمر كذلك حتى بُعِث سيّد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، ودخل المسجد الأقصى المبارك ليلةَ الإسراء والمعراج كما سيأتي لاحقًا في الموضوعات القادمة بإذن الله تعالى.

إلا أنّ أحد أهمّ الأحداث السياسية التي حدثت في تلك الفترة هو احتلال الفرس لمدينة القدس الشريف عام 614م. و قد حصل ذلك أثناء فترة البعثة النبوية الشريفة في مكة المكرّمة، إذ إن اليهود تراسلوا مع الفرس تمهيدًا لتدمير القوة البيزنطية، وتعاونوا مع الفرس في حربهم الطويلة ضد البيزنطيين، وأعانوهم على دخول القدس، فارتكب فيها الفرس واليهود مذبحة كبيرةً ذكرها العديد من الكتب والآثار التاريخية، ومنها المؤرِّخ المقدسي النصراني (ستراتيجوس) الذي شهد يوم احتلال الفرس للقدس وذكر مشاهداته في مخطوطة تُرجمت إلى عدّة لغات بينها العربية، و فيها، و في غيرها، ذكر هو وغيره، أنّ أكثر من سبعين ألفًا من أهل المدينة قُتلوا على يد الفرس، وأحرقت المدينة بالكامل، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ ﴾ [الروم 1-4] .

وبالفعل قام البيزنطيون بهجوم شديد على الفرس عام 624م، وتتابعت المعارك بينهم حتى انتهت بعقد صلح نتج عنه عودتهم إلى حكم القدس مرة أخرى عام 627م، فطردوا منها اليهود نهائيًّا، وحرَّم (هرقل) على اليهود السكن في المدينة أو حتى دخولها أو الوجود قريبًا منها وبالذات في إقليم (إيلياء) الذي كان يمثِّل المحافظة أو الولاية التي تقع فيها مدينة القدس (إيليا كابيتولينا) في تلكم الفترة. واهتمّ البيزنطيّون بتجديد كنيسة القيامة وغيرها، وأمّا المسجد الأقصى المبارك، فإن أرضه أصبحت مكبًّا للنفايات، وخاصةً عند الصخرة المشرَّفة، وذلك انتقامًا من اليهود الذين كانت الصخرة المشرَّفة قِبلَتَهم. ويهمّنا هنا أن نذكر أن بعض الباحثين، منهم الأستاذ محمد حسن شراب، درسوا مسألة نبوءة سورة الروم على عجل واختلفوا في مسألة تحقُّق النبوءة القرآنية، ولكن تلك الدراسات افتقرت إلى الموضوعية فبدأت من النتيجة (وهي بالتأكيد تحقّق النبوءة القرآنية) وحاولت إيجاد المبرِّرات ولَيِّ الأحداث والمعلومات التاريخية، حتى قال الأستاذ الفاضل محمد حسن شراب: «وإن كان هناك خطأ فإنما هو في التاريخ لا في القرآن»، وأنا أقول إنه لا خطأ في هذا ولا ذاك..! بل إن التاريخ مختبر القرآن الكريم، وكنت قد درست مسألة النبوءة القرآنية الكريمة في هذا المجال في بحث طويل لا مجال لذكره، ووجدت فعلاً تطابقًا عجيبًا بين كلمات القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة وبين أحداث التاريخ في تلك الفترة.. وأستطيع أن أقول مطمئنًّا إنّ انتصار الروم على الفرس تمّ كما ذكر القرآن الكريم، ولعلّ اللهَ تعالى ييسّر نشر هذا البحث مستقبلاً بإذنه تعالى.

وهكذا بقيت القدس والأرض المقدسة ودُرَّتها المسجد الأقصى المبارك تعيش هذه الحالة الشديدة من عدم الاستقرار والاحتلالات والمذابح المتتالية زهاء سبعمائة عام منذ دخلها الرومان أول مرة، حتى أتى نور الله تعالى مع الفاتح الأكبر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

الفتح الأول.... الإسراء والمعراج

شاء الله سبحانه بحكمته أن يكون أول فتح إسلامي لهذه الأرض المقدسة على يد سيد الخلق والناس أجمعين، رسول الله الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الأنوار وسيّدها الذي أضاء أركان هذه المدينة الغالية، ولم يكن فتحه لها صلى الله عليه وسلم فتحًا عاديًّا، بل شاء الله أن يكون بمعجزة خالدة عجيبة مباركة، هي رحلة الإسراء والمعراج.

فبعد سنوات عجاف من الظلم الذي عانى منه رسول الله صلى الله عليه وسلم من كفر أهل مكة، وظلم أهل الطائف، وبعد أن أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم زمان لم يؤذَ قبلَه ولا بعده كما أوذِيَ فيه، وهو عام

الحزن الذي توفِّيَت فيه أُمّنا السيدة خديجة عليها السلام والرضوان، وعمُّه أبو طالب، إذا بالله عزّ وجلّ يأذن له صلى الله عليه وسلم لينطلق من الأرض الضيقة إلى سَعَة السماء التي استقبلَتْه في ليلة الإسراء والمعراج.

ولن نسرد هنا حادثة الإسراء والمعراج، وإنما سنأخذ منها ما يهمّنا في دراسة المسجد الأقصى المبارك، وفي نقاط مبسَّطة بإذن الله:

نلاحظ بدايةً أنّ الله عزّ وجلّ أفرد لرحلة الإسراء سورة كاملة سُمِّيَت باسم (سورة الإسراء)، بينما لم يكن نصيب رحلة المعراج من القرآن الكريم إلا بضع آيات كريمة في سورة النجم. بالرغم من أنّ رحلة المعراج بمقياس البشر أهمّ وأكبر من رحلة الإسراء، لأنها كانت عبر السماوات العُلى، وأمّا الإسراء فكان فقط في الأرض، ولمسافة حوالى ألفي كيلومتر فقط..!!

إلا أننا من هنا يجب أن نتعلم أن مقاييس الله عزّ وجلّ تختلف عن مقاييسنا.. وبالتالي كانت رحلة الإسراء في ميزان الله عزّ وجلّ أكبر وأضخم من رحلة المعراج، فرحلة المعراج تتعلق بشخصه الكريم صلى الله عليه وسلم، وأمّا رحلة الإسراء فتتعلّق بأمَّته جمعاء...!!

إن رحلة الإسراء كانت بمثابة تسليم للراية من جميع الأنبياء إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ممّثلاً أمّة الإسلام، وبالتالي كانت الرمز الأساسي الذي تستند إليه هذه الأمّة في بيان أهليّتها وكونها الأمّة الخاتمة حاملة الرسالة الأخيرة للأمم كلها..!!

ولاحِظْ أنّ تسليم الراية للنبي عليه السلام لم يكن في مكة، مع أنها مركز الأرض كلها، ولم يكن في السماء، ولكن كان في المسجد الأقصى المبارك، لأنّ هذا المسجد هو الممثّل للبشرية في ثُلاثيّة المساجد في الإسلام التي ذكرناها سابقًا. فمكّة تمثِّل الجانب الإلهي، والمدينة تمثِّل الجانب النبوي، والقدس تمثِّل الجانب الإنساني، ومن هنا كان الأجدر أن يتمّ تسليم الراية للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته الخاتمة في هذا المكان الطيّب، في المسجد الأقصى المبارك، وليكون هذا المعنى هو أقوى ما يربط بين هذه الأمة وهذا البيت المقدَّس. فلو أنك نظرت الآن إلى المسلمين لرأيتَ أنّهم ما إن يتذكروا الأقصى حتى يذكروا رابطتهم معه ليلة الإسراء والمعراج، ولكنّ كثيرًا منهم لا يتفهّم حقيقة هذا الرابط ولماذا كان الإسراء إلى هذا المكان بالذات، ولكن بما ذكرناه تتَّضح الصورة كاملة للمسلمين.. فهذا المكان مقدَّس ليس لأنه مجرّد مسجد فقط، بل لأنّه هو أيضًا المكان الذي اختار الله عزّ وجلّ أن تتسلم هذه الأمّة فيه الراية من جميع الأمم وجميع الأنبياء السابقين.

هذا بالنسبة إلى معنى الإسراء وحقيقة علاقة المسلمين به، ولن نزيد في هذا الأمر لأنّه دُرِسَ في بحث آخر مفصَّلاً وعسى أن ييسّر الله نشْره مستقبَلاً بإذنه تعالى، إلا أنّ ما يهمّنا مبدئيًّا في هذا المجال (أي دراسة

الإسراء) أمور معيّنة منها: من أين كان دخول النبي عليه السلام للأقصى؟ وأين كانت صلاته فيه بالأنبياء؟ ومن أين المعراج؟

نعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام عندما زار المسجد الأقصى المبارك وصلى فيه كان المكان فارغًا من البناء بعد هدم الرومان للأقصى المبارك عام 70م، وهنا قد يتساءل سائل: (كيف يصلي في مسجد هو عبارة عن مكب نفايات؟؟) والجواب بسيط، فالمسجد الأقصى المبارك في تلك الفترة لم يكن مكبًا للنفايات، لأنه لم يكن أصلاً تحت الحكم البيزنطي، وإنما كان تحت الحكم الفارسي المتحالف مع اليهود في بدايته، ولم يذكر التاريخ أن الفرس الذين اضطهدوا اليهود بعد ذلك هاجموا منطقة المسجد الأقصى المبارك أو لوّثوها.

أولاً: دخول النبي صلى الله عليه وسلم للأقصى وربْط البُراق

إنّ مجرد إلقاء نظرة على الاتجاهات في المدينة المقدَّسة يبين لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حتمًا قد دخل المسجد الأقصى المبارك من أحد أجزاء الجهة الجنوبية، لأنها الجهة التي تقع إليها مكة المكرمة، ولكن أرجح أقوال العلماء كان أنّ دخول النبي عليه الصلاة والسلام للأقصى المبارك كان من مكانٍ ما في الزاوية الجنوبية الغربية، لأنها أقرب الأماكن للمارِّ من مكة المكرَّمة، ولأنها تواجه المدينة المقدَّسة، ولأن الجهة الجنوبية الشرقية للأقصى هي عبارة عن وادٍ عميق و لا يوجد فيه بوّابات أو مكان لوقوف البُراق مثلاً، وهذا هامّ جدًّا لأننا كمسلمين نؤمن أن الإسراء كان بالجسد والروح، وبالتالي ينطبق بعض المعايير البشرية مثل دخول المسجد من بابه وغير ذلك، وفي ذلك حديث ضعيف ذكره ابن كثير في تفسيره[56]، وغيره، يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر»، وهذا الحديث ضعيف كما ذكر الشيخ الألباني[57]، ولكن الأمر لا يعدو الفهم العقلي المنطقي حتى مع غياب الدليل النقلي أو ضعفه.

إذن فقد كان دخول المسجد من الجهة الجنوبية الغربية والله أعلم، وهنا يقع حائط البُراق الشريف، وهذا تأكيد آخر على هذا الترجيح، حيث كان هناك هذا الحائط الشريف الذي ربط فيه النبي عليه السلام البُراق بعد أن ترجّل عنه.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:«...ثم أُتيت بالبُراق، وهو دابّة فوقَ الحمارِ ودونَ البغلِ يضَعُ حافرَه ثم منتهى طرْفَه، قال: فركبْتُه حتى أتيْتُ بيتَ المقدِس. قال: فربطْتُه بالحلقة التي يربط بها الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصلَّيْتُ فيه ركعتين ثم خرجتُ فجاءني جبريل

(56) تفسير القرآن العظيم، ج: 3، ص: 15.

(57) الإسراء والمعراج وذكر أحاديثهما وتخريجها وبيان صحيحها من سقيمها: ص69.

عليه السلام بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن فاخترتُ اللبنَ فقال جبريلُ صلى الله عليه وسلم: اخترتَ الفِطْرَةَ، ثم عَرَجَ بنا إلى السماء..»

هذا الحديث يدلّ على أنّ هناك حلقة معيّنة خاصة بالأنبياء ربط بها النبي صلى الله عليه وسلم البُراق في تلك الليلة، ونحن لا نعرف بالتحديد مكان تلك الحلقة، ولكن إذا بحثنا في منطقة حائط البُراق، فإننا نجد موضع حلقة موجود في مصلّى (مسجد البُراق) الموجود حاليًّا في المسجد الأقصى المبارك ملاصِقًا لحائط البُراق، ولا ندري، فربما يكون هذا هو المكان بالتحديد. ونرى في هذه الأيام حلقة حديديّة موجودة في المكان يظنّها الناس الحلقة المذكورة في الحديث الشريف (انظر الصورة)، ولكنّها في الحقيقة حلقة حديدية من العصر العثماني، وُضعت في ذلك المكان، ولكنّنا نقصد مكان تلك الحلقة، حيث إنّه يقع على حجر روماني كبير في المسجد، وموضعها حاليًّا في الجدار الجنوبي لمسجد البُراق قرب محرابه، تحت مستوى أرضيّة المسجد الأقصى، ومعروف أن مستوى تلك الأرضية من المسجد الأقصى المبارك كان منخفضًا عندما زاره النبيّ صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يكن هناك أيّ بناء إلا سور المسجد الذي كان الرومان قد بنوه ليفصلوا المسجد عن المدينة عندما بنوا مدينة إيليا كابيتولينا عام 135م.

الحلقة العثمانية داخل مسجد البراق (تصوير ساجدة بكيرات)

إذن قد يكون هذا المكان فعلاً هو مكان ربط البُراق الشريف، وهذه كلها دلائل عقلية، ولا نستطيع الجزم بهذا بالتحديد لعدم ورود دليل نقليّ ينصّ على مكان تلك الحلقة.

ثانيًا: صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في الأقصى

(أين صلّى النبيّ عليه السلام داخل الأقصى؟)... سؤال يتبادر إلى الأذهان، خاصة بعد أن عرفنا أن الأقصى ليس هو الجامع القبلي المتجه إلى مكة. وإنما هو جميع المسجد بمساحة حوالى 144 دونمًا...!! وهنا لا بد أن ننظر إلى الصخرة المشرَّفة... فهي التي كانت قبلة أنبياء بني إسرائيل بالذات قبل النبيّ عليه الصلاة والسلام، وبالتالي فمن الأرجح أن تكون هي قبلة النبيّ عليه السلام في الأقصى المبارك، إذ إن صلاة المسلمين

في مكة كانت باتجاه الأقصى. فإذا كانت الصلاة داخل الأقصى فالاتجاه فيه يكون إلى نقطة محدّدة هي الصخرة باعتبارها قلب المسجد وباعتبارها قبلة الأنبياء السابقين وخاصة أنبياء بني إسرائيل، والنبيّ عليه السلام كان على قبلتهم بالطبع، فإذن يكون اتجاهه داخل الأقصى المبارك باتجاه الصخرة المشرَّفة. وهنا أجدني أخالف بعض الباحثين الكرام ومنهم الأخ د. هيثم الرطروط الذي أخبرني يومًا بأنّه يرجّح أن الصلاة تمّت باتجاه الكعبة، وذلك لأن الأقصى المبارك يتجه طبيعيًّا باتجاه مكة المكرَّمة. ولا غبار في نظري على أنّ المسجد الأقصى المبارك بُني في الأصل باتجاه مكة المكرَّمة، ولكن هذا لا يعني أن الصلاة فيه كانت دائمًا باتجاه الكعبة. وكنتُ سابقًا قد حققتُ أمر قِبلة أنبياء بني إسرائيل ووجدت أنها كانت على الأرجح باتجاه الصخرة، وهذا يعني أن سليمان عليه الصلاة والسلام على سبيل المثال كان يصلّي داخل المسجد الأقصى المبارك باتجاه الصخرة وليس باتجاه الكعبة المشرَّفة.

ومثال ذلك، أنك عندما تصلّي خارج مكة تتجه إلى المسجد الحرام، ولكنك في المسجد الحرام تتجه إلى نقطة محددة فيه، وهي الكعبة المشرَّفة، فتكون الكعبة المشرَّفة هي القبلة، وهذا مثال المسجد الأقصى المبارك والصخرة المشرَّفة. ولكن أعود هنا وأؤكد مرة أخرى على أن هذه الصخرة الآن ليس لها أيّ ميزة تميّزها عن الصخور العاديّة من وجهة نظر المسلمين، فهي لم تَعُد قِبلة المسلمين، ولم تعد لها في الشرع إلا الذكرى فقط مثل يوم السبت الذي أبدل الله هذه الأمة به يومًا خيرًا منه هو يوم الجمعة. والواجب أن لا نرفع أو نحطّ من قدرها إلا بقدر ما أعطاها الله عزّ وجلّ.

وما دام النبيّ عليه السلام قد دخل من الجهة الجنوبية الغربية، فإننا بالنظر إلى المسجد الأقصى المبارك وتخيُّل مشيه واتجاهه إلى الصخرة نستطيع القول بأنه عليه السلام ربما كان قد صلى أمام الصخرة من الزاوية الجنوبية الغربية، باتجاه دخوله ذاته[58]، وهكذا تكون صلاة الأنبياء الكرام خلفه عليه الصلاة والسلام عبارة عن حلقات ودوائر حول الصخرة المشرَّفة.. والله تعالى أعلم. وأعود للتأكيد مرة أخرى على أن هذا كلّه استنتاجات عقلية ليس لها أي دليل أو سند من السنّة أو من القرآن الكريم، ولذلك ففي الأمر متَّسَع للاجتهاد، والاختلاف.

ثالثًا: مكان المعراج

لم يسعفنا أيّ مصدر منقول ثابت عن النبيّ عليه الصلاة والسلام يدلّنا على مكان المعراج بالتحديد، ولكن الخلاف بين العلماء يدور حول نقطتين: الصخرة المشرَّفة نفسها، والمنطقة المحيطة بها. وهناك بعض العلماء ذكر مكانًا آخر هو موقع حائط البُراق، إلا أنه مستبعد لأنه يقع بعيدًا عن الصخرة التي كانت القِبلةَ في تلك الفترة.

(58) هذا الكلام أكده لي يومًا داخل المسجد الأقصى المبارك الشيخ د. ناجح بكيرات، وهو يرى هذا الرأي نفسه أيضًا.

قبة المعراج (تصوير المؤلف)

وعندما نتفحص المكان بالتفصيل يمكن أن نقول إن الصخرة المشرَّفة هي أرجح الأماكن في الأقصى المبارك لتكون مكان المعراج إلى السماء..!! ذلك أنها تُعَدّ (كما أسلفنا سابقًا) أعلى نقطة جغرافيّة في المسجد الأقصى المبارك، وبالتالي فهي الأقرب إلى السماء من باقي أجزاء المسجد، أضف إلى ذلك موقعَها المميز، حيث تقع في قلب المسجد الأقصى المبارك، أي في الوسط مائلة قليلاً إلى اليسار، وهذا الموقع مناسب ليؤهّلها لتكون مكان ابتداء المعراج.

وبعض العلماء قال إن المكان الذي توجد فيه حاليًّا القبة المعروفة باسم (قبة المعراج) أرجح أن يكون مكان المعراج، ولكن هذا القول لا دليل ثابتًا عليه، واستند قائلوه إلى روايات واهية ليستدلّوا بها عليه... ولا يوجد له حتى أيّ دليل عقلي يبيّن ذلك أو يقرّبه إلى الأفهام. وعليه فإن أرجح الأماكن للمعراج هي ظهر الصخرة المشرَّفة، على أنّ الأمر - مرة أخرى - فيه متّسع للخلاف، لأنّ لا دليل عليه من القرآن أو السنّة، بل هو بالاستدلالات العقلية.

■ نقطة هامّة

لماذا لم يبيّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم مكان صلاته في الأقصى ومكان معراجه؟ هذا سؤال وجيه.. والحق أنك عندما تتبع الأحداث التاريخية وما آلت إليه أحوال الأمة العلمية والفقهية في أدوار وأزمان مختلفة (وبالذات في هذا الزمان) تعرف فعلاً أنّ الحكمة من ذلك عظيمة جليلة، فالأصل أن يظلّ الأقصى المبارك كله وحدةً واحدة لدى المسلمين.. فلا يهتمّون فقط ببقعة من بقاعه.

خطة النبي صلى الله عليه وسلم لفتح بيت المقدس

إن الدارس لسيرة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم بتمعّن يلاحظ أن النبي عليه السلام ما إن أمَّن جانب مكة المكرَّمة حتى اتجه بنظره الثاقب إلى المنطقة الثالثة من حيث الأهمية في الإسلام: إلى الشام،

وخاصة قلبها المسجد الأقصى المبارك، فتراه يرسل الرسل إلى هنا وهناك. وكان من أهمّهم رسوله عليه الصلاة والسلام إلى هرقل، والذي أرسله إليه ليس إلى القسطنطينية، وإنما إلى مدينة القدس، حيث كان هرَقل قد وصل إليها في زيارة شكر لله تعالى على نصره على الفرس، وبينما هو هناك إذ جاءه رسول النبيّ صلى الله عليه وسلم كما يذكر الإمام البخاري في صحيحه[59].

كما قام النبي عليه الصلاة والسلام بأحدى أهمّ الخطوات العملية للفتح القريب و أولاها، وذلك حين جهّز جيش مؤتة ليكون أولى طلائع الفتح إلى هناك، وليركّز المسلمون نظرهم على هذه المنطقة بعده عليه الصلاة والسلام. وأحبُّ أن أسجِّل هنا اختلافي مع الكثير من المؤرِّخين الذين ذكروا أن سبب غزوة مؤتة كان قتْل رسول النبيّ صلى الله عليه وسلم (الحارث بن عمير الأزدي)، حيث إنّ هذا الأمر لم يذكره أحد إلا المؤرخ الواقدي، ولم يثبته بأيّ سند للنبي عليه الصلاة والسلام كما أنني شخصيًّا لم أجده في كتب السيرة المعتمدة للأسف، بالإضافة إلى أنّ غزوة ذات أطلاح كانت أقرب إلى مؤتة من هذا الحدث (إن صحّ) وكانت الكارثة فيها أكبر حيث قُتِل فيها 14 من أصل 15 من خيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فلماذا نعتبر الحادثة التي انفرد بها الواقدي سبب الغزوة الرئيسي ونترك غيرها؟

ما إن استقر الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرَّمة حتى انطلق فورًا إلى الشام، إلى أرض المسجد الأقصى المبارك، وكأنه عليه السلام يريد لفت نظر المسلمين إلى هذه النقطة الغالية.. وانظر إليه عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك التي ذكرناها الآن يذكر هذا الحديث الهامّ جدًّا، والذي يرويه البخاري في صحيحه عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم، فقال: اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس،.. الحديث.»

ما نريد لفت النظر إليه في هذا الحديث الشريف هو بداية تسلسل الأحداث، فالنبي عليه السلام كان في تبوك. وهناك ذكر للصحابي الجليل عوف بن مالك رضي الله عنه أنّ هناك ستًّا من علامات الساعة، أولاها موته عليه الصلاة والسلام... ثم فتح بيت المقدِس. وقد عرفنا سابقًا أنّ ذكْر النبي عليه السلام لبيت المقدس يعني به المسجد الأقصى المبارك أو المدينة أو المنطقة، وأراه هنا قصد به المسجد، والله أعلم، أو المدينة. إذن فالأمر أصبح واضحًا.. وهدف النبي عليه السلام البعيد من هذه الغزوة ووصوله إلى هذا المكان أصبح واضحًا! والملاحظ في هذا الحديث الشريف أنه ذكر (فتح) بيت المقدس، وكانت هذه أول مرة في التاريخ يذكر فيها النبي صلى الله عليه وسلم فتح بيت المقدس مع توقيته، وذلك في غزوة تبوك. وهذا يعطي دلالة جميلة جدًّا على خطواته عليه الصلاة والسلام باتجاه فتح هذه المنطقة المقدَّسة.

(59) صحيح البخاري، ج: 1، ص:4-6.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما إن عاد من تبوك حتى اقتربت ساعة وفاته عليه الصلاة والسلام. بل إنّ اللافت للنظر أنّ النبي عليه الصلاة والسلام في مرضه الذي توفي فيه كان قد جهّز جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى الشام. وتراه وهو على فراش الموت يردِّد: (أنفِذوا بَعْثَ أسامة)، وكأنه يوصي عليه السلام بإنفاذ جيش الفتح إلى الأرض المقدسة. وهذا ما لم يفهمه أحد من الصحابة بقدر ما فهمه أبو بكر الصديق... فما إن تولى الخلافة حتى أنفذ البعث إلى الأرض المقدّسة... وعاد بعد أن سار إلى الشام وأغار على بعض مناطقها وتوالت أنباء الردة[60].

وكان نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفعل ثاقبًا في هذا الأمر، حيث إن بعْث أسامة لم يكن له دوره الكبير في تجهيز المسلمين عمليًّا للحملة القادمة فقط، بل إنه أنقذ المسلمين وسمعتهم، حيث ذكر ابن عساكر أنه (قدم بنعي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هِرَقل وإغارة أسامة في ناحية من أرضه خبرًا واحدًا، فقالت الروم: ما بالى هؤلاء بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا)[61].

والعجيب أنّ الواقدي ذكر أنّ أبا بكر الصديق خطب في المسلمين عقب انتهاء حروب الردّة خطبة جليلة وأعلن لهم إعلانًا خطيرًا فقال في خطبته: (واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عوَّل أن يصرف همّته إلى الشام فقبضه الله إليه، ألا وإني عازم على أن أوجّه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم ومالهم فإنّ رسول الله أنبأني بذلك قبل موته)[62] وهذا لا شكّ يدلّ على أن هناك خطة للنبي صلى الله عليه وسلم اطّلع عليها أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

الفتح العمري.. والعصر الراشدي

ما إن تولى أبو بكر الصدّيق الخلافة حتى وجّه نظره إلى الأرض المقدَّسة، فسيَّر جيش أسامة، الذي عاد بعد أن بدأ العرب في الردة عن الإسلام، ما أعاق فتح الشام في عهد الصدّيق رضي الله عنه. ولكن ما إن انتهت حروب الردة حتى سيّر الصدّيق رضي الله عنه الجيوش لفتح الشام، وتوفي في أثناء ذلك. وتولى الأمر الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، حيث كان أول ما فعله أن ولَّى أبا عُبيدة بن الجراح قيادةَ الجيش الفاتح للشام بدلاً من خالد بن الوليد، وهذا الأمر أثاره بعض الباحثين من المستشرقين بالذات ليتهموا الإسلام

(60) تم التوسع في هذه الدراسة في أطروحة الدكتوراه الخاصة بكاتب هذه السطور، والتي كانت بعنوانٍ ترجمته: (التحضير والخطة الإستراتيجية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، دراسة نقدية لمصادر المسلمين).

(61) تاريخ دمشق، ج: 8، ص: 63.

(62) فتوح الشام، ص: 5.

ويُعملوا اتهاماتهم في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترى بعضهم يدّعي أن ذلك كان لخلاف بين عمر بن الخطاب وبين خالد رضي الله عنهما. والبعض الآخر يرى أنّ الأمر كان نتيجة لوجود مشاكل ومصالح شخصية بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما... وهذا كله مرفوض وأقلّ ما يقال عنه إنه غير علمي وغير منطقي، خاصة حين يتعلق الادعاء بمسائل خلافية تافهة بين عمر وخالد.

وإنما الأمر الحقيقي الواضح وضوح الشمس كان مقدرة أبي عبيدة أمين الأمة رضي الله عنه على التعامل بليونة مع سكان البلاد المفتوحة.. وكان ذلك كله استعدادًا لفتح القدس.. فالمعروف أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه كان ميالاً للقتال والحسم السريع للأمور في المعارك، وذلك له مجالاته وأماكنه ومواضعه التي يتناسب معها. وأما أبو عبيدة رضي الله عنه فكان ميّالاً للمسالمة والمصالحة، وهذا الفرق بين الصحابيَّين الجليلين تبيَّن في فتح دمشق..![63] وتلك هي حِنكة الفاروق رضي الله تعالى عنه، والذي وضع الشخص المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب، ولكلّ مقام مقال، فكان الأطيب والأفضل أن تُفتح مدينة القدس الشريف ومسجدها الأقصى المبارك سِلْمًا لا حربًا. وهنا موطن الحكمة، فمن الأجدر أن تُفتح المدينة الثالثة في الإسلام والمسجد الثالث في الإسلام بشكل بعيد عن الحرب والمعارك، لكي تكون مثالاً يُحتذى كما كان فتح مكة المكرمة فتحًا سلميًّا مشرِّفًا يتّضح فيه تعظيم تلك المشاعر.

وهذا ما كان بالفعل من أبي عُبيدة، فإنه لمّا وصل إلى المدينةَ المقدَّسة في عام 15 للهجرة، أوقف جيشه وحاصرها، ولم يهاجمها، بل أرسل إلى أهلها كتابًا ذكره صاحب كتاب (إتحاف الأخصا) وغيره، ونصُّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

(من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وبالرسول، أما بعد: فإنّا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور، فإن شهدتم بذلك، حَرُمَتْ علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم، وكنتم لنا إخوانًا، وإن أَبَيْتُم، فأقرّوا لنا بأداء الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإن أنتم أَبَيْتُم، سِرْتُ إليكم بقوم هم أشدَّ حبًّا للموت منكم لشرْب الخمرة وأكل لحم الخنزير، ثم لا أرجع عنكم إن شاءَ اللهُ أبدًا، حتى أقتل مقاتليكم وأسبي ذراريكم)[64].

(63) خلال فتح دمشق كان أبو عبيدة رضي الله عنه على ناحية وخالد على ناحية عند الباب الشرقي لدمشق، ودخل الاثنان المدينة في وقت واحد، إلا أنّ أبا عبيدة دخلها سلمًا ودخلها خالد من جهته عنوة، فاختلف القائدان على اعتبار دمشق فُتحت صلحًا أو حربًا، لأن ذلك يعني اختلاف الأمر الفقهي بالنسبة للغنائم (في حالة الحرب) أو الفيء (في حالة السلم) وأمان المحاربين في المدينة، ومن ثم اصطلحا على أن تُعتبر دمشق قد فُتحت صلحًا، وهذا الأمر مبيّن على تفاصيله في فتوح الشام للواقدي.

(64) إتحاف الأخصا، ورقة: 99.

فما إن وصل الكتاب إلى نصارى القدس حتى دبّ الرعب فيهم، ولكنهم ثبتوا في الحصار حتى الشتاء رجاءَ أن يرجع المسلمون عنهم، ولكنّ جلَد المسلمين كان أشدّ وأكبر، حتى تعب أهل المدينة المحاصَرون من الحصار، وأرسلوا يطلبون الصلح وتسليم المدينة، إلا أن بطارقتها اشترطوا شرطًا لم يحدث مع المسلمين من قبل، وهو أن يأتي خليفة المسلمين بنفسه إلى القدس فيتسلم مفاتيحها منهم. ولو دقّقنا في هذا الطلب لوجدنا فيه معرفةً دقيقة من هؤلاء بمنزلة المدينة المقدَّسة في نفوس المسلمين، وإظهارًا لعظمتها ورفعتها في الديانتين.

فأرسل أمين الأمة إلى الخليفة الفاروق يخبره بما كان عليه الأمر مع أهل المدينة، واستشار عمر بن الخطاب الصحابة الكرام في ذلك، فأشار بعضهم بالسير إليها وإظهار عظَمة المدينة المقدسة ومسجدها، وأشار البعض الآخر بعدم الخروج، إلا أن الخليفة بِبُعْد نظره عزم على الخروج.

ويذكر أصحاب السِّيَر قصصًا مختلفة حول مسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الأقصى، فمنها ما يذكر أنه كان على جمل واحد هو وغلامه، وكانا يتبادلان الركوب مدة قراءة سورة يس (قلب القرآن الكريم)، حتى إذا وصلا إلى مدينة القدس كان عمر ماشيًا وغلامه راكبًا.. وهذا ما ذكره بعض أصحاب السِّيَر ولا دلالة دقيقة على صحّته. ومنهم من ذكر أنه سار إلى المدينة على رأس جيش ولم يعرِّج مباشرة على القدس بل ذهب أولاً إلى الجابية، وهي هضبة الجولان اليوم، ومنها سار إلى القدس، ومنهم من يقول إنه سار مع جيشه إلى القدس مباشرة، ومن الصعب فعليًّا تحقيق هذه الروايات واختيار أصحّها، لأنها جميعًا روايات تأخرت عن فترة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مئات السنين، ولكن ما يهمّنا هنا أنه سار من المدينة ووصل إلى مدينة القدس التي كانت تسمّى (إيلياء) في تلك الفترة.

ما إن وصل رضي الله عنه إلى المدينة وأشرف عليها من جبل المكبر الواقع في الناحية الجنوبية للمدينة المقدسة ورأى أسوارها حتى كبّر وكبّر معه المسلمون تكبيرًا عظيمًا عرف منه أهل المدينة أن خليفة المسلمين وصل.

ويشار هنا إلى أن هناك روايتين في التاريخ حول مكان دخول عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدينةَ المقدسة المسورة، إحدى الروايتين تذكر أن المكان كان من الباب الذي يسمى في هذه الأيام (باب الخليل)، وهو ما يسمّيه اليهود (باب يافا)، والرواية الأخرى تبيّن أنه دخل المدينة من (باب العمود) المسمى أيضًا (باب دمشق) و(باب نابلس).

وتوجد إلى اليوم ساحة داخل سور المدينة أمام باب الخليل تسمّى (ساحة عمر بن الخطاب) والجدير بالذكر أن هذا الاسم هو الذي تدعى به هذه الساحة باللغة العربية والإنجليزية والعبرية أيضًا.

ولا نعرف بالضبط أيّ باب منهما يمكن أن يكون المكان الأساسي لدخول الخليفة عمر بن الخطاب المدينةَ، فباب الخليل أقرب إلى جبل المكبر من باب العمود، في حين أن باب العمود هو أضخم أبواب المدينة المقدسة و أعرقها، وبالتالي فلا يمكننا الترجيح بينهما بالضبط إلا بدليل تاريخي، وهو غير متوفر على درجة التأكيد.

وتَذْكُر الروايات القصة المعروفة حول دخول الفاروق المدينة وزيارته لكنيسة القيامة بصحبة البطرك صفرونيوس، والتي أشار فيها صفرونيوس على الخليفة بالصلاة في الكنيسة فرفض وصلى قربها. والمكان فيه خلاف، فهناك من يقول إنه في المكان نفسه الذي يقوم فيه اليوم مسجد عمر بن الخطاب مقابل كنيسة القيامة من الجهة الجنوبية، وهو رأي معظم المؤرخين القدامى مثل مجير الدين العُلَيْمي مثلاً، وهناك مَن يذكر أنه صلى في موضع ما يسمّى اليوم (سوق الدباغة) في البلدة القديمة، قرب كنيسة القيامة من الجهة الشرقية، وهو رأي بعض المؤرخين أيضًا ومنهم د. ناجح بكيرات.

إلا أنّ الأهم هو زيارة المسجد الأقصى المبارك، حيث ذُكر أن عمر بن الخطاب طلب من صفرونيوس أن يوصله إلى المسجد الأقصى، فلما دخله كبّر وقال: (الله أكبر، هذا المسجد الذي وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم). وقد كان الأقصى المبارك كما أسلفنا في تلك الأيام عبارة عن هضبة خالية في قلبها الصخرة المشرَّفة، وفي دخوله وما فعله في الأقصى في ذلك الوقت عدة روايات ضعيفة حول تنظيف الصخرة وغيرها.

وفي هذا الوقت سأل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كعب الأحبار، (وهو ليس من الصحابة، بل من التابعين) حول أنسب مكان في نظره ليبنى فيه المصلى الرئيسي المغطى، فأشار كعب بأن يتم بناؤه خلف الصخرة: (فتجتمع قبلتا موسى ومحمد)، أي خلف الصخرة من ناحية الشمال، فتكون الصخرة أمام المصلّين. فرفض عمر بن الخطاب هذا الرأي وقال: (خالطَتْكَ اليهودية) والمقصود بهذا أن كعبًا بهذا الرأي قد خالطته بعض آثار الديانة اليهودية لأن جمع القبلة المنسوخة والقبلة الحاليّة هو من الجمع بين الديانة اليهودية والإسلامية، ونحن كمسلمين مأمورون بمخالفة أهل الكتاب. قال عمر: (بل نبنيه في صدر المسجد، كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها) كما روى غير واحد من المؤرخين مثل الواقدي والطبري والعليمي وغيرهم، وهكذا اختار المكان المواجه تمامًا للقبلة (أي صدر المسجد الأقصى) ليبني فيه المصلّى المغطّى الذي سيكون مكان الصلاة الرئيسي في الأقصى، وهو موقع الجامع القبلي اليوم، وهذه الرواية مذكورة في كثير من كتب السِّيَر، مثل الأنس الجليل وغيره على اختلاف – مرة أخرى – بين المؤرخين في دقَّتها.

وكان مسجد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عبارة عن مسجد خشبي يتسع لحوالى ألف شخص، وبقي إلى زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

ومن المواقف الجليلة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في القدس أنه لمّا دخلها طلب أهلها منه كتابًا بالأمان وأعطوه مطالب لهم، فكتب لهم (العهدة العمرية) المحفوظة المعروفة إلى هذه الأيام، وأطول النصوص التي وردت فيها هو نص الطبري التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلْبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها. أنه لا تُسكن كنائسُهم ولا تُهْدَم، ولا يُنْتَقَصُ منها ولا من حَيِّزِها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكْرَهون على دينهم، ولا يضارَّ أحدٌ منهم، ولا يَسْكن بإيلياء معهم من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما تعطي أهل المدائن (أي المدن الأخرى من بلاد الشام)، وعليهم أن يُخْرجوا منها الروم واللصوت (أي اللصوص). فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويُخلي بِيَعَهم وصُلْبهم فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بِيَعهم وصُلْبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهلَ الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد وعليه مثلُ ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحْصَد حَصادُهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمّة رسوله وذمّة الخلفاء وذمّة المؤمنين إذا أعْطَوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان. وكُتِب وحُضِر سنة خمس عشرة).

ومن الجدير بالذكر أنّ بعض المؤرخين حاول تكذيب هذه العهدة ورفضها، ومن الذين رفضوا وجود هذه العهدة من المعاصرين الأخ د. علي عجين[65] على اعتبار أنّ نصوصها فيها (تهاون) مع النصارى. وفي المقابل أثبت الأخ ما يسمّى (الشروط العُمَرية) التي أوردتها بعض المصادر المتأخرة لما فيها من تشديد على أهل الذمة، وهو ما أستغربه من الأخ الفاضل على سَعَة علمه، خاصة وأن تضعيفه لأسانيد العهدة لدى الطبري وتقويته لأسانيد الشروط التي وردت عند المتأخرين من المؤرخين لم تكن مقنعة أو مستندةً إلى منهجيّة البحث

(65) العهدة العمرية: دراسة نقدية، مجلة الحكمة، ص: 88.

التاريخي، وإنما طبَّق منهجيّة أهل الحديث على كتب التاريخ في بعض الأحيان وتغاضى عن ذلك في أحيان أخرى، وكان من الواضح فيها سعيه إلى إثبات رأي معيَّن بدلاً من البحث والاستنتاج بعد ذلك. على أنّ ذلك لا يقلِّل من أهميّة بحثه وإنما ندعو إلى تطبيق المنهجية الصحيحة في موقعها الصحيح.

بالإضافة إلى ذلك، وردت للعهدة عدة نصوص منها ما ذكره اليعقوبي وابن البطريق، كما أصدرت الكنيسة الأرثوذكسية في القدس عهدة عُمَريّة فيها شك كبير عام 1953م، ولكن بعض العلماء المحققين، مثل د. موسى البسيط[66] ود. عبد الفتاح العويسي وغيرهما، استقصوا هذه الروايات ودحضوها. ونفوا أن يكون نص العهدة هو الذي قد أورده اليعقوبي وغيره، كما فنّدوا النص الذي ادّعَتْه الكنيسة الأرثوذكسية في القدس وبيّنوا أن النص مزوّر ويعود إلى نهاية العصر العثماني، وهو ما أتفق معه بعد النظر والتمحيص في اللغة الركيكة لهذه الوثيقة.

وينبغي هنا أن نؤكد على أهمية دراسة د. عبدالفتاح العويسي للعهدة بتفاصيلها ودقائقها وخاصة صحة أسانيدها ودقة شروطها، وذلك في كتابه (تقديم بيت المقدس). وقد أتى فيه باستنتاجٍ طرح الكثير من الأسئلة للنقاش، وهو أنّ شرط عدم سكنى اليهود مدينة القدس لم يكن واردًا في العهدة، واستدلّ العويسي في هذا الأمر بعدة أدلّة من مصادر المسلمين وغير المسلمين، وهو ما يقول به أيضًا المؤرِّخ المعروف الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري[67]. وخاصة ما ذكره اليعقوبي من أن عمر بن الخطاب كتب عهدةً خاصةً ليهود بيت المقدس، وهذا أمر يجب البحث والتعمق فيه كثيرًا.

وكنت إلى وقت قريب أخالف ما طرحه كلّ من الدوري والعويسي في مسألة منع اليهود من سكنى بيت المقدس، وكنت أظن أن هناك نصًّا آخر مشابهًا لهذا الشرط في العهدة التي كتبها عمر بن الخطاب لأهل مدينة اللد، ولكنّي وجدت بعد التمحيص أن الشرط غير موجود في عهدة أهل اللد، وهذه العهدة مذكورة في كتاب الوثائق السياسية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لمحمد حميد الله[68]. وبعد البحث والتمحيص أجد مشكلة في قبول وجود هذا الشرط (أي استبعاد اليهود من إيلياء) في العهدة العُمَرية، وذلك لمخالفة الشرط لكثير من النصوص الأخرى المشابهة في المناطق التي كان فيها اليهود، بالإضافة إلى الروايات التاريخية المبكرة عن وجود عهدة عُمَرية لليهود، والتي يجب تمحيصها بالطبع أيضًا. وأرى أن هناك أكثر من مشكلة في نص الطبري

(66) الأخ الدكتور موسى البسيط هو من علماء بيت المقدس الشريف، وهو مدرس في جامعة القدس الموجودة في بلدة (أبو ديس) في القدس.

(67) Jerusalem in History, p:701.

(68) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص: 494.

نفسه فالتاريخ مثلاً فيه مشكلة كبيرة، حيث يذكر النص أن هذه الوثيقة قد صيغت عام 15هـ، بينما من المعروف أن البدء بالعمل بالتوقيت الهجري كان عام 16هـ! بالإضافة إلى وجود بعض الإشكاليّات الأخرى. ولذلك لا أستبعد أن يكون هذا النص مضافًا إلى نص الطبري، وهنا أخالف د. موسى البسيط الذي يؤكد في موافقته لوجود هذا الشرط في العهدة العُمَرية على أن هذا هو الأصل لأن عمر يعرف اليهود ويعرف إفسادهم.. إلخ، وأجدني أخالف هذا الرأي لأنه لا يستند إلى أي دليل عقلي أو نقلي.. وأرى في رأي د. البسيط تأثرًا بالوضع السياسي وهو ما لا يصحّ في الدراسة العلمية، ونؤكد هنا أننا بهذا الكلام لا نعطي لليهود أيّ حق تملُّك في القدس أو الأقصى كما يتوهَّم البعض، ولكن الأصل في الباحث هو التحقيق والتدقيق دون التأثر بالعاطفة أو الوضع السياسي أو غيره، ولهذا الأمر نقاش آخر، وليس هذا مجال التوسع في هذا الأمر.

وكما ذكرنا سابقًا، روي عن بعض المؤرخين أن أهل المدينة المقدسة كتبوا كتابًا إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وفيه مجموعة من الشروط سمِّيَت بالشروط العُمَرية اهتمّ بها وشرحها الإمام ابن القيّم في كتابه (شرح الشروط العُمَرية)، وهذه الشروط تعرَّضَت للكثير من الإنتقادات والطعن لعدم دقّتها وخروج بعضها عن روح تعاليم الإسلام. ومرة أخرى لسنا في مجال التفصيل في هذا الأمر، وإنما أميل شخصيًّا إلى الحُكْم بعدم دقة هذه الشروط المعروفة (بالشروط العمرية)، والله تعالى أعلم، خاصة وأن ظهورها كان في فترة متأخرة بعد فترة الحروب الصليبية. ولذلك أسباب كثيرة وخلافات ودراسات مستفيضة لا مجال لمناقشتها هنا طلبًا للاختصار ما أمكن.

كما يُذكر في التاريخ من المواقف الجميلة جدًّا في هذا اليوم التاريخي أن بلال بن رباح رضي الله تعالى عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في جيش الفتح، فطلب منه عمر بن الخطاب أن يؤذّن، فاعتذر حيث إنّه كان قد توقف عن الأذان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما ألحَّ عليه عمر، قام فأذَّن في رحاب المسجد الأقصى المبارك بالصوت نفسه الذي كان يؤذّن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالنَّفَس نفسه الذي أذّن به يوم الفتح الأكبر لمكة المكرمة، ليعلن المسلمون بذلك أن المساجد الثلاثة وحدة واحدة لا تفرّقها مسافات ولا احتلال، فلمّا وصل بلال رضي الله عنه إلى (أشهد أن محمدًا رسول الله) اختنق صوته بالبكاء، وبكى معه المسلمون حنينًا إلى سيّد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يتمكن عليه رضوان الله من إتمام الأذان.

وهنا نقول إنه ليس صحيحًا ما ذكره بعض الباحثين من أن أذان بلال لم يكن في الأقصى وإنما كان في هضبة الجولان..!! فهذا مستبعَد جدًّا.. إذ إن هضبة الجولان بعيدة كل البعد عن المسجد الأقصى المبارك، والمسافة التي تفصلهما هي أكثر من مائتي كيلومتر، ويحتاج قطعها إلى وقت وجهد كبيرين ما يفقد الأذان بهجته وموعده ومناسبته...! وإنما الصحيح أنّ أذان بلال كان في داخل المسجد الأقصى المبارك.

العصر الأموي

كان لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه باع طويل ومعرفة سابقة وعلاقة قوية مع مدينة القدس ، فهو أحد الذين شهدوا الفتح العمري للمدينة. وبتنازل الحسن بن علي عليه السلام والرضوان لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عن الخلافة بدأ عصر جديد هو عصر الدولة الأموية التي تنتسب لأميّة، وهو جدّ أبي سفيان رضي الله عنه لأبيه، ومعاوية هو: معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أميّة.

عندما تنازل الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما لمعاوية بن أبي سفيان عن الخلافة أراد معاوية أن يثَبِّت ولايته بأحد أقدس البقاع في الأرض، والأقرب في الوقت نفسه إلى عاصمة الخلافة الأموية (دمشق)، فأخذ البيعة لنفسه في مدينة القدس تيمّنًا بها وطلبًا لبركتها، كما قام معاوية بن أبي سفيان بسكِّ أول نقد يحمل اسم (إيلياء) وهي القدس، وكانت صورته على الوجه الثاني للنقد، كما حمل هذا النقد اسم (فلسطين) لأول مرة.

وزاد رضي الله عنه فقام في بداية فترة خلافته بتجديد بناء الجامع القبلي الذي بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقد قدّمنا سابقًا أنّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أمر ببناء الجامع القبلي في مكانه المعروف اليوم باتجاه القِبلة في المسجد الأقصى المبارك فبُني من الخشب، وكان يتسع في زمانه لألف مصلٍّ.

فلمّا جاء زمن معاوية كان المسجد قد بدأ بالاهتراء وأصابه الخلل بسبب قِدم أخشابه، فقام معاوية بإعادة بنائه على هيئة أوسع، فبناه من الحجارة، وصار في زمانه يتَّسع لحوالى ثلاثة آلاف مصلٍّ، وبقي هذا المسجد هو البناء الوحيد الموجود في المسجد الأقصى المبارك طوال تلك الفترة. ووردنا شرح ووصف لهذا المبنى في وصف الرحّالة الأوروبي (أركولف) للقدس عندما زارها حاجًّا في تلك الفترة. وبقي المبنى على حاله فيما بعد إلى أن تولى الخلافة عبد الملك بن مروان، الذي يعدّ أبرز الخلفاء الأمويين من حيث التشييد والعمران، فقد كان هو الذي بدأ بتشييد العمران الضخم الكبير في المدن والبلدان المختلفة، وكانت أبرز إنجازاته تشييده لأجمل وأعظم صرح بشري عرفَتْه الإنسانية. فقام ببناء قبّة الصخرة المشرفة، التي تُعَدّ آية في الجمال والعظَمة عجزت البشرية أن تنتج مثلها في الروعة والإتقان والجمال.

عبد الملك بن مروان، وبناء قبّة الصخرة

عُرف عن عبد الملك بن مروان غيرته الشديدة على مسألة العروبة والإسلام، فكان من إنجازاته تعريب الدواوين وسك النقود العربية الإسلامية الشهيرة.

وقد ذُكر أن عبد الملك أمر بالبدء بتشييد مجمع عظيم البناء في المسجد الأقصى المبارك وبنائه، يكون إظهارًا لقدسِيّة هذا المسجد وعظَمته، وتبيانًا لأهميّة هذا المكان في الإسلام، وكان البدء ببناء قبة الصخرة المشرَّفة، على اعتبار أنها قبة المسجد الأقصى المبارك كلّه كما سيأتي بعد قليل.

هذا وقد ذكر مجير الدين العليمي نقلاً أن عبد الملك بن مروان بلغه افتتان الناس بضخامة قبة كنيسة القيامة وعظَمة بنائها وارتفاعها، فجمع عمّاله وأعلن عن نيته تشييد قبة أعظم وأجمل تُبرز قوة الإسلام وعظَمته، وتضاهي قباب البيزنطيين وأبنيتهم وتتفوق عليها، واختير لذلك قلب المسجد الأقصى المبارك، الصخرة المشرَّفة، حيث يتبيّن من دراسة الآثار الواردة عن ذلك العمل أنه بنى القبة فوق الصخرة لعدة اعتبارات أهمها:

- أن الصخرة المشرَّفة تقع موضع القلب من المسجد الأقصى المبارك وأنها أعلى نقطة في المسجد.
- أراد عبد الملك أن يجعل قبة الصخرة المشرَّفة تكريمًا وتعظيمًا للصخرة المشرّفة على اعتبار أنها أرجح الأماكن لمعراج النبي عليه الصلاة والسلام، وهو القول المعروف والسائد عنها، وبالتالي يكون تشريفها بهذا القدر تذكارًا وتخليدًا لحادثة الإسراء والمعراج.
- كما أراد عبد الملك (وهذه النقطة غير معروفة على نطاق واسع) أن تكون هذه القبة قبةً للمسجد الأقصى المبارك كله، حيث كان من المتعذِّر على الدولة الأموية (على غناها وقوّتها) أن تقوم بتغطية كامل مساحة المسجد الأقصى المبارك بالبناء، وخاصة بعدما كاد ينتشر بين الناس أن الأقصى هو الجامع القِبلي الذي جدَّده معاوية (وكان هو البناء الوحيد في الأقصى). فأراد أن تكون هذه القبة قبةً للمسجد الأقصى المبارك كاملاً، علمًا بأن بناء القباب للمساجد كان قد بدأ ينتشر في تلك الفترة، فأصبحت القبة رمزًا للمسجد، وهكذا أراد أن تكون القبة رمزًا وقبةً للمسجد الأقصى المبارك.

ويظهر من شكل قبة الصخرة المشرَّفة و بنائها فعلاً أنها لم تُبْنَ لتكون مسجدًا خاصًّا، بل كانت فكرتها منذ البداية أنها مجرد جزء من أجزاء المسجد الأقصى المبارك، وبالتالي تمّ بناؤها بشكل مثمّن الأضلاع يختلف عن بناء المساجد عادة في الإسلام،إذ تكون في العادة مستطيلة أو مربَّعة الشكل، ومبنيّة باتجاه القِبلة. على أنه لم يغفل هذه الناحية، فقام ببناء عدة محاريب في داخل القبة لتبيان اتجاه القبلة كما سيتبيّن لنا لاحقًا.

وذكر بعض المؤرِّخين أن عبد الملك بن مروان لمّا أمر ببناء القبة أقاموا له قبة صغيرة لطيفة نموذجًا لِقبّة الصخرة، ولها أحد عشر ضلعًا من الخارج، وستة أضلاع تحمل القبة الصغيرة، فلما انتهت زارَها وقال: (ابنوا قبةً أكبر من هذه باثني عشر ضعفًا وأنقِصوا من الأضلاع)، فتمّ تجهيز المخطط لقبّة الصخرة المشرَّفة

بأضلاعها الثماني وإعدادها وبُدِئ بالعمل بها. ومن الجدير بالذكر أن هذه الرواية غير مؤكَّدة تاريخيًّا.. وإنما نُقلت من مصادر مقطوعة السند، ولكن عند النظر إليها يمكن أن نفهم سبب بناء تلك القبة الصغيرة قرب قبة الصخرة المشرَّفة، وهي (قبّة السلسلة) ولعل هذه القصة وإن لم تَحدث فإن شيئًا مماثلاً يمكن أن يكون قد حصل حتى استقرّ الأمر على بناء القبّة بشكلها الحالي.. وإلا لكان بناء قبة السلسلة عبثًا، ولم يُعرف في التاريخ عن عبد الملك بن مروان العبث أو الهزل. على أن قبة السلسلة بعد بنائها استُعملت لعدة أغراض، حيث كانت المكان الرئيسي للإشراف على بناء قبة الصخرة، ثم استُعملت لأغراض أخرى وبقيت على حالها إلى اليوم، وكان سليمان بن عبد الملك (الخليفة الذي جاء بعد الوليد بن عبد الملك) يحبُّ الجلوس مع حاشيته تحت هذه القبة (قبة السلسلة) عندما كان يزور القدس، كما تزامن مع هذا البناء بناء باب الرحمة المعروف، والموجود حتى وقتنا الحاضر إلا أنه أُغلق في زمن لاحق.

وذكر بعض الباحثين مثل د. هيثم الرطروط أن الأمويين وسّعوا مساحة المسجد الأقصى المبارك من الجهة الشمالية عدة أمتار بحيث تصبح قبة السلسلة في وسط المسجد الأقصى المبارك بالضبط، واعتمد في ذلك على تنقيبات أثرية وحفريات في حدود المسجد من تلك الناحية. وقبة السلسلة هي بالفعل في وسط المسجد الأقصى المبارك بالضبط. وبعد دراسة ما تكلم عنه د. الرطروط فإنني أتفق معه في هذا الأمر، خاصة وأن الطبقات الصخرية تختلف في المنطقة الشمالية للمسجد الأقصى المبارك وبالتحديد شمالي باب الناظر، عن باقي طبقات أرضية المسجد الأقصى المبارك.

ونعود إلى قبة الصخرة المشرَّفة، حيث يذكر المؤرخون أن البناء فيها قد أشرف عليه مهندسان من أهل فلسطين هما: (رجاء بن حيوة الكندي) من أهل بيسان، وهذا الرجل كان المسؤول عن التصميم العامّ والشكل العامّ للبناء، أي عن روح البناء وفلسفته، والمهندس الثاني هو (يزيد بن سلام) من أهل القدس من موالي عبد الملك بن مروان (وقيل إنه كان نصرانيًّا فأسلم بعد ذلك)، وكان هذا الرجل مسؤولاً عن النواحي العملية في هندسة العمارة في القبة. ولا غرو أن يكون رجاء بن حيوة الكندي هو المسؤول عن روح المكان فهو فنان، وكان لذوقه الإسلامي الرفيع أكبر الأثر في إبراز النواحي الفنية الجمالية للروح والفلسفة الإسلامية بالبناء. ويشار هنا أيضًا إلى أن المشرف والمسؤول العام عن البناء كان ولي عهد الخلافة الوليد بن عبد الملك (ولم يكن قد أصبح خليفة بعد)، واستمر العمل في هذا البناء العملاق مدة سبع سنوات أُنفق فيها خراج مصر بالكامل عليه، حتى انتهى البناء في القبة في عام 72 هـ تقريبًا.

وهنا ينقل مجير الدين قصة زيادة بلغت مائة ألف دينار من المبلغ الذي أُنفق على القبة، فأمر الخليفة

بإعطائها للمهندسَيْن، فرفضا أن يأخذاها نظير عملهما، فأمر عبد الملك بن مروان أن يُسبك هذا المال إلى سبائك ذهبية وتُفرغ على القبة وتكسى به أبواب المبنى، فتلألأت القبة بالذهب منذ ذلك الوقت.

ويعترض بعض المؤرخين على هذه النقطة على اعتبار أن القبة ذُكرت في أوقات لاحقة أنها كانت مغطاة بألواح الرصاص الأسود وليس بالذهب، وذلك في العصور المتأخرة.. ولكن نجيب عن ذلك بأنّ بعض المؤرخين والرحّالة ممن زاروا القدس في أيام الدولة العباسية والفاطمية ذكروا أن قبة الصخرة في زمانهم كانت مغطّاة بالصفر المذهب (أي مغطاة بالذهب)، ومنهم ابن عبد ربه، وشمس الدين المقدسي وغيرهما. وهذا يبين صحة ما ذهب إليه المؤرِّخون القائلون بأن القبة كانت مغطاة بالذهب منذ البداية في زمن الأمويين، فمن المعلوم أنّ الدولة الأموية كانت أغنى بكثير من جميع الدول التي جاءت بعدها، بل إنها كانت أقوى وأغنى وأوسع دولة إسلامية عرفها التاريخ حتى الآن، وجميع الدول التي جاءت من بعدها كانت أصغر منها حجمًا وأقلّ غنى، منذ الدولة العباسية إلى الدولة العثمانية. حيث إن الدولة الأموية كانت الدولة المسلمة الوحيدة في التاريخ التي جمعت بلاد العالم الإسلامي كلها من الصين شرقًا إلى الأندلس غربًا في دولة واحدة وتحت حكومة واحدة.. وهذا لم يتوفر لأيّ دولة تالية على الإطلاق، حتى الدولة العباسية التي كانت أكثر تقدّمًا من الدولة الأموية من الناحية العلمية والثقافية، إلا أنها كانت أقلّ منها شأنًا في المساحة والغِنى بعد خروج الأندلس من يدها، وكذلك الدولة العثمانية التي لم تتمكن من السيطرة على كثير من البقاع المسلمة كما هو معروف.

مميزات قبة الصخرة المشرَّفة و جمالياتها

ومن الجدير بالذكر أن البناء في الفترة الأموية بالذات يتميز عن الكثير من الفترات اللاحقة بنظرته الروحانية التي تعتمد على تجسيد الإيمان ومفردات العقيدة الإسلامية على أرض الواقع لإعطاء مزيد من الانطباع بالجمال والعمق لهذا البناء..

فقبة الصخرة المشرَّفة مثمّنة الشكل وقد بُنيت على ثمانية مداميك (أعمدة كبيرة) تحمل القبة المعروفة، وهذا يذكّرنا بالآية الكريمة: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [سورة الحاقة: 17]، كما أنّ الأمويين بنوا في الجانب الغربي منها ثلاثة محاريب متجاورة تذكّر بالأماكن الثلاثة المقدسة في الإسلام

(مكة والمدينة والقدس)، وكذلك الجانب الشمالي من القبة يحتوي سبعة محاريب متجاورة تذكّرنا بالسماوات السبع، وكذلك بالأرضين السبع..!!!

كما أن الداخل إلى قبة الصخرة المشرَّفة يلاحظ أن عدد الأعمدة التي تظهر أمامه في صفَّي الأعمدة هو خمسة..!! وهذا يذكّره بالصلوات الخمس للتوّ، وبأركان الإسلام الخمسة، خاصة وأن المسجد الأقصى المبارك هو أول أرض استقبلت الصلوات الخمس عندما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء ليلة الإسراء والمعراج بعد فرضها.

وبالنسبة إلى الزخرفة الفُسَيْفسائية الأموية الإسلامية التي تُشْتَهر بها قبةُ الصخرة المشرَّفة فإن زوايا الأعمدة في التثمينة الداخلية (أي صف الأعمدة الثمانية الكبيرة في البناء) تحتوي الثمار والزروع التي ذُكرت في القرآن الكريم، كالزيتون والرمان والموز والتين والعنب وغيرها، ما يذكّر بفاكهة الجنة وثمارها، ومن اللطيف أن نعرف أيضًا بأن الوحدات الزخرفية في قبة الصخرة المشرَّفة فيها ميزة جميلة، وهي أنها تظهر للوهلة الأولى متشابهة، إلا أنه في الحقيقة لا توجد أي وحدة زخرفية أموية في قبة الصخرة، سواء من الفسيفساء أم من تيجان الأعمدة، تشبه أي وحدة زخرفية أخرى..!! وهذا أمر غاية في الإبداع والروعة.

ولم يكتفِ البُنَاة بذلك بل حاولوا أن يجمعوا معطيات الزمن في هذا البناء الجميل، فجعلوا حول الصخرة أربعة مدامك (أعمدة كبيرة) تذكّر بالفصول الأربعة، وبين هذه الأعمدة الكبيرة أعمدة صغيرة رخامية ملوّنة عددها 12 عمودًا، تذكّرنا بأشهُر العام. كما أن المحاريب السبعة التي ذكرناها سابقًا في الجهة الشمالية من القبة تذكّر أيضًا بأيام الأسبوع السبعة، وكذلك يوجد في قبة الصخرة المشرَّفة شبابيك عددها 52 شبّاكًا هو عدد الأسابيع في السنة. وهناك غير ذلك من الجماليات التي تعطي المجال للمرء ليسرح بخياله ويحاول التقاط هذه الأسرار البديعة في بناء الفنّان المسلم وتفهمها، وهذا الكلام كله يثبت أن بناء هذه القبة وغيرها من الأبنية الإسلامية لم يكن تقليدًا لفنون الأمم الأخرى، وإنما كان إبداعًا منقطع النظير في تشكيل إيمانيات الفرد المسلم وعقيدته وتجسيدها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأخ د. هيثم الرطروط كان قد قدَّم رسالة لنيل درجة الماجستير من جامعة النجاح الوطنية في مدينة نابلس بفلسطين عَنْوَنَها (نظرية جديدة لتفسير التصميم والتخطيط الهندسي لقبة الصخرة)، وأشار فيها إلى الكثير من أساسيات هندسة البناء المثمَّن لقبة الصخرة المشرّفة وجمالياتها، وقد طُبعت هذه الأطروحة باللغة العربية ونُشرت في بريطانيا عام 2002، ويمكن الرجوع إلى هذا الكتاب للاستزادة في هذا الموضوع.

الخلاف في باني القبة

من المهم أن نعرف أن هناك مَن خالف الإجماع المعروف عالميًّا وإسلاميًّا على أن باني القبة هو عبد الملك بن مروان، حيث إن بعض المؤرخين والباحثين القلائل مثل الأستاذ محمد حسن شراب قالوا إن باني القبة هو الوليد بن عبد الملك وليس عبد الملك بن مروان. وهذا الأمر غير دقيق على الإطلاق، حيث ورد في النص الأثري الفُسَيفسائي الأصلي المثبت على التثمينة الخارجية لقبة الصخرة المشرَّفة أن سنة إتمام البناء كانت سنة 72 للهجرة، ومعلوم أنّ عبد الملك بن مروان قد كان في تلك الأيام خليفةً للمسلمين، إذ كان قد تولى الخلافة في الفترة الممتدّة ما بين 65هـ – 86 هـ، وبذلك ينتفي قطعًا احتمال أن يكون الوليد بن عبد الملك هو باني القبة، حيث إن توليه الخلافة كان عام 86 أي بعد الفراغ من بناء القبة بفترة طويلة.

ولكن يبدو أن هذا الرأي ظهر بسبب الخلط بين قضية باني قبة الصخرة والمشرف على البناء، فالمعروف أن عبد الملك بن مروان كان قد كلّف ابنه الوليد بالإشراف المباشر على بناء القبة، فكان هو المشرف العامّ على البناء، وذلك لا يعني أنه هو الذي أمر ببنائها، حيث إنه أشرف على البناء بأمر من أبيه الخليفة عبد الملك ابن مروان.

الوليد بن عبد الملك.. وبناء الجامع القبلي

التسوية الشرقية (المصلى المرواني) (تصوير المؤلف)

كما أسلفنا فإن الوليد بن عبد الملك كان المشرف العام على بناء قبة الصخرة المشرَّفة أثناء حكم والده عبد الملك بن مروان. فلما تمَّ البناء رجع إلى دمشق عاصمة الخلافة، استعدادًا للمرحلة الثانية من بناء المسجد الأقصى المبارك، وهي مرحلة بناء المصلّى الذي يسمّى (الجامع القبلي) وهذا ما حدث بالفعل بعد أن استقر الأمر تمامًا لعبد الملك بن مروان بعد انتهاء خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه على يدي الحجاج بن يوسف الثقفي، إذ أوفد الخليفة عبد الملك بن مروان وليّ عهده الوليد إلى القدس مرة أخرى للإشراف على إتمام البناء في المسجد الأقصى المبارك، فشرع ببناء الجامع القبلي، وكانت بداية ذلك بناء

مصلى الأقصى القديم (تصوير المؤلف)

التسوية الجنوبية الممتدة من الشرق إلى الغرب في المسجد الأقصى المبارك، وهي عدة أقسام أهمّها الجزء الشرقي وهو ما يسمى حاليًّا باسم (المُصلّى المرواني) الذي بُني في الأصل ليكون تسوية ليبنى فوقه الجامع القبلي، ثم استعمل بعد ذلك كمخزن ومستودع لأدوات المسجد الأقصى المبارك وأجهزته، أمّا التسوية في المنطقة الجنوبية الغربية فقد تحوّلت إلى آبار لحفظ المياه، إلا منطقة مسجد البُراق الذي ذكرناه سابقًا.

وتزامن مع هذا البناء أيضًا بناء القصور الأموية التي تمتدّ في المنطقة الجنوبية خارج المسجد الأقصى المبارك، وكان لها مدخل يقع تحت الجامع القبلي بالضبط، ويُفضي إلى ممرّ مزدوج ببوّابتين مرتبط بساحات المسجد الأقصى المبارك، وما زال هذا المكان موجودًا إلى وقتنا الحاضر، وقد فُتِحَ للصلاة عام 1999م، ويسمّى (مُصلّى الأقصى القديم) (انظر الصورة).

ويذكر التاريخ أنّ عبد الملك بن مروان توفي أثناء بناء الجامع القبلي، فتمّ البناء على يدي ابنه الخليفة الوليد بن عبد الملك، وكان هذا الجامع في زمانه عبارة عن خمسة عشر رواقًا، واحد كبير في الوسط يعلوه جملون (سقف مثلث) وسبعة عن يمينه وسبعة عن شماله، وهذا يعني أن حجمه كان يبلغ ضعف حجمه الحالي كما يظهر في الصورة.

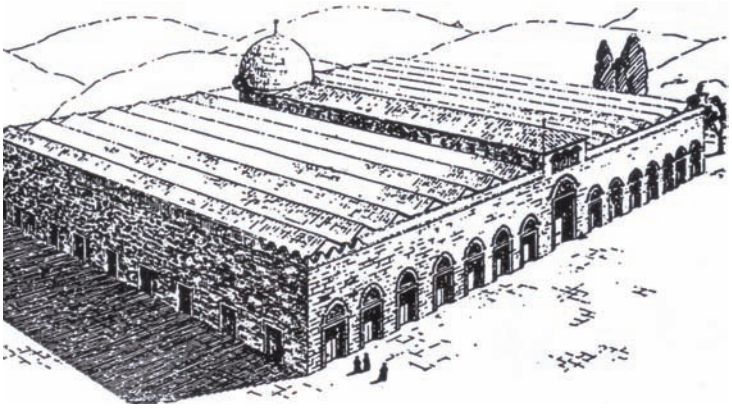

مخطّط متخيّل للجامع القبلي أيام الأمويين كما وضه كرسويل (المصدر: كتاب التسوية الشرقية للدكتور ابراهيم الفتي)

اليعقوبي وفريته على الأمويين

من أكثر الذين شنَّعوا وافتروا على الأمويين المؤرِّخ اليعقوبي، الذي يُعَدُّ كتابه من أقدم كتب التاريخ في الإسلام، إلا أنه من الغلاة الذين وقفوا ضد الدولة الأموية وناصروا الدولة العباسية بشدة. وحمل اليعقوبي كثيرًا على الدولة الأموية حتى اختلق الأكاذيب والافتراءات على الأمويين وخاصة على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وعلى عبد الملك بن مروان. علمًا بأن روايات اليعقوبي في هذا المجال تجد لها أنصارًا بين الكثير من المستشرقين اليوم، الذين اعتمدوا كثيرًا على الروايات المختلقة التي كتبها هذا المؤرخ في إظهار المسلمين على أنهم ليسوا أصحاب الحق في الأقصى والقدس.

ومن ذلك تشكيك اليعقوبي في فعل معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه في أخذ البيعة بالخلافة لنفسه في القدس بعد نقل عاصمته إلى الشام، حيث ذكر أن معاوية قصد من ذلك إبعاد الأنظار عن مكة المكرمة والمدينة المنورة التي كانت تدين لآل البيت الكرام. وهذا ادعاء مرفوض على معاوية رضي الله عنه ولا دليل عليه، وإنما كان ذلك من معاوية إظهارًا لقدسية هذا المكان المبارك وكان اختياره للأقصى كونه أقرب المساجد الثلاثة إلى العاصمة (دمشق) في تلك الأيام، وهو بالتالي أفضل الأماكن بركة ممّا حول دمشق من البلاد القريبة.

كذلك ادّعى اليعقوبي أن عبد الملك بن مروان عندما تولّى الحكم عام 65 هـ أراد أن يلفت أنظار الناس ويُبعدهم عن مكة المكرمة حيث عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، فأمر ببناء قبة الصخرة المشرَّفة لتكون «بديلاً» من مكة المكرمة في الحج...! وهذا الكلام غير مقبول، حيث لا يُعقل ابتداءً أن يقوم رجل فقيه كعبد الملك عُرِفَ عنه حكمته ورشده وفقهه بمحاولة تحويل قبلة المسلمين وحجّهم إلى مكان غير مكة المكرمة كما فعَل أبرهة من قبله. وتاريخ عبد الملك يشهد له من حيث اهتمامه وغيرته الشديدة على الإسلام، فهو الذي عَرَّب دواوين الدولة، وسك النقود الإسلاميّة الشهيرة، ولا ينسى أحد فضله في إرساء قواعد الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، وضم جميع بقاع الإسلام إليها عمومًا، وهذا الأمر حفظ لهذه الأمّة وحدة كيانها. ثم إن عمل عبد الملك بن مروان في القدس لم يكن اهتمامًا أكبر منه بمكة والمدينة، فها هو بعد أن ضم الحجاز يقوم فورًا بأداء فريضة الحج إجلالاً لِمكّة، وهذه الزيارة كانت وما زالت أكبر رد على اليعقوبي. وكذلك فإن عبد الملك بن مروان أمر بالبدء في تعمير الكعبة المشرفة، ومن بعده استمر الوليد على نهجه فأمر بتوسعة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة وترميمه، وأنفق على ذلك من الأموال الطائلة دون حساب كما أمر أبوه من قبله.

هذا التاريخ الكبير الواضح للأمويين (على اختلافنا معهم في عدد غير قليل من الوقائع التاريخية) وعلى رأسهم عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك يردّ بنفسه على اليعقوبي ويرينا ضرورة دراسة نفسية وشخصية المؤرِّخ عند قراءة المادة التي يكتبها من وجهة نظره، ومن الواجب عدم الانجرار وراء أي عصبية إلى حد اختراع الأحداث التاريخية وليِّ حقائق التاريخ. ويؤسفنا أن نجد بعض المؤرِّخين من المسلمين، الذين نقلوا هذه الفرية دون تفحص أو عميق نظر. فعلينا الحذر عند قراءة كتب التاريخ من أخطاء كهذه.

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية دراسة أهم العناصر في تاريخ المسجد الأقصى المبارك في العصر الأموي لنتمَّ بعد ذلك بإذن الله تعالى دراسة تاريخ الأقصى في العصر العباسي والفاطمي والصليبي بإذن الله.

مميزات العصر العباسي والفاطمي

عندما ندرس تاريخ المسجد الأقصى المبارك في الفترة العباسية الأولى والثانية والحكم الفاطمي للقدس نجد أن معظم دراستنا للأقصى في هذه الفترة هي دراسة أثرية لإعمار المسجد الأقصى المبارك، ولمّا كان هذا الكتاب مبسّطًا مختصَرًا فإننا سنتناول هذا الموضوع دون إسهاب، إذ تتميّز هذه الفترة بأنها أشهر فترة حصلت فيها الترميمات في المسجد الأقصى المبارك بسبب انهدام الأبنية المنتشرة فيه أكثر من مرة.

أهم الترميمات في الأقصى المبارك في تلك الفترة

يمكننا أن نختصر الترميمات التي حصلت في الأقصى المبارك في الفترة العباسية (بما في ذلك التي حصلت في الحكم الطولوني والإخشيدي) والفاطمية بنقاط تُعتبر مفاصل هامّة جدًّا في العمارة والترميم، ونلاحظ أن معظم الترميمات في الأقصى المبارك تمَّ في مبنى الجامع القبلي وليس في قبة الصخرة التي كان ترميمها أقل أهمية من ترميم الجامع القبلي. ذلك أن الجامع القبلي كان أكثر تأثرًا بالزلازل وانهدم أكثر من مرة، وسبب ذلك يعود إلى أن الجامع القبلي يقوم فوق أساس من صنع الإنسان، وهو التسوية الجنوبية، وأساساته بالتالي أضعف من أساسات قبة الصخرة المشرَّفة التي تقوم أساسًا على الصخر الطبيعي، أضِفْ إلى ذلك ضخامة مساحته في تلك الفترة، والتي كانت تبلغ ضعف مساحته الحالية ما أثّر في ثبات بنائه.

ترميم قبة الصخرة المشرَّفة

أما قبّة الصخرة المشرَّفة، فإن أهم الترميمات التي حصلت لها في تلك الفترة كانت كالتالي:

1 – في زمن الخليفة المأمون أمر بترميم قبة الصخرة المشرَّفة و إصلاحها وكان قد أصابها شيء من الخراب، وذلك في عام 216 هـ. وضرب بعد ذلك فلسًا حمل اسم (القدس) لأول مرة في تاريخ القدس كذكرى لذلك الترميم، وذلك عام 217هـ.

2 – في زمن الخليفة المقتدر بالله أمر بترميم أخشاب قبة الصخرة المشرَّفة وسقفها ، وأضاف للقبة أبوابًا خشبية كبيرة مذهَّبة، وذلك عام 301هـ.

3 – في زمن الحكم الفاطمي تمَّ ترميم القبة على أثر الزلازل المتعاقبة التي ضربت المنطقة وخاصة زلزال عام 407هـ الذي سقطت على أثره القبة الأموية نفسها (وليس المبنى) ، وبدأت هذه الترميمات في زمن الحاكم بأمر الله لتنتهي هذه الترميمات في زمن الظاهر لإعزاز دين الله، وتمَّت عام 413هـ.

ترميم الجامع القبلي

وأما الجامع القبلي فإن الترميمات التي جرت عليه كانت عمومًا أكثر من ترميمات قبة الصخرة المشرَّفة، للأسباب التي ذكرنا سابقًا. ويمكننا أن نلخص هنا أهم الترميمات التي جرت في الجامع القبلي في الفترة العباسية والفاطمية في النقاط التالية:

1 – في عام 130 هـ تعرّضت فلسطين لهزة أرضية عنيفة تصدّع على أثرها الجامع القبلي، ما حدا بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور إلى ترميم المسجد عام 136 هـ.

2 – إلا أن المسجد ما لبث أن تصدَّع بفعل زلزال عام 158 هـ وتهدَّم معظم ترميم أبي جعفر المنصور، فقام الخليفة العباسي المهدي بترميمه عام 163 هـ.

3 – وفي الفترة الفاطمية تعرّض المسجد لزلزال عنيف آخر عام 425هـ فقام الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله بترميمه عام 426 هـ واختصر حجمه إلى النصف، فحذف أربعة أروقة من كل جهة، فأصبح الجامع القبلي في زمانه يتكون من سبعة أروقة.

ويُذكر أن بعض المؤرخين والباحثين خاضوا كثيرًا في تفاصيل الترميمات العباسية للمسجد الأقصى المبارك، فذكر بعضهم أن الخليفة العباسي المهدي هو الذي قام باختصار حجم الجامع القبلي إلى شكله الحالي، ولكن هذا الكلام يدحضه وصف المؤرخ الشهير شمس الدين المقدسي الذي جاء في بدايات الفترة الفاطمية تقريبًا (أي بعد زمن الخليفة المهدي) ، إذ وصف الجامع القبلي في زمانه بأنه يحتوي على خمسة عشر

رواقًا. وهذا يبيّن أن المصلّى في ذلك الزمن كان يتكون من خمسة عشر رواقًا، وذكر الأخ الأستاذ أحمد فتحي خليفة في كتابه (دليل أولى القبلتين) رواية أخرى أشدّ غرابة تفيد بأن المهدي جعل للجامع القبلي خمسة أروقة وأن الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله أضاف رواقين! وهذه الرواية غير دقيقة ومخالِفة لما ورد في رواية المقدسي في وصفه للجامع القبلي، إضافة إلى أنها لم تَرِد في أي من المصادر التاريخية الموثوقة والله تعالى أعلم، ويوجد للخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله نصّ تأريخي في الجامع القبلي تخليدًا لترميمه.

أهمّ الآثار

من أهم الآثار العباسية والفاطمية في الأقصى المبارك الآثار التالية:

1 – التربة الإخشيدية: وهي مجموعة من قبور الأمراء الإخشيديين الذين حكموا في الفترة العباسية الثانية، وتقع خارج المسجد الأقصى المبارك ملاصقة لباب الأسباط في الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد الأقصى المبارك.

2 – البائكة الشرقية: ذُكر أنها أقدم بوائك المسجد الأقصى المبارك، وبُنيت في القرن الرابع الهجري.

3 – البائكة الجنوبية الشرقية: بُنيت عام 412 هـ.

4 – البائكة الجنوبية: بُنيت في القرن الرابع الهجري.

5 – البائكة الغربية: بُنيت عام 340 هـ.

6 – مهد عيسى: وهو بناء يقع في غرفة خاصة في الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد الأقصى المبارك ملاصقًا للمُصلّى المرواني، ويُنْزَل إليه بدرجات، وهو عبارة عن قطعة رخامية تشبه المهد وتقوم عليها حاليًّا قبة لطيفة بناؤها الأخير عثماني، قيل إنها كانت مكان مهد عيسى عليه السلام، وذُكرت فيها روايات كثيرة. ولكن معظم هذه الروايات غير دقيق ويفتقر إلى الصحة. ويبدو أنها بُنيت لتكون تذكارًا لميلاد نبي الله عيسى عليه السلام وقصّته في الأقصى المبارك.

وهنا لا بد أن نشير إلى فترة من أصعب الفترات التي مرَّت على مدينة القدس وعلى المسجد الأقصى المبارك وسكان تلك الأرض قبيل الاحتلال الصليبي، وهي فترة حكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وهذا الرجل لقَّبَتْه كتب التاريخ بـ(المجنون)، ذلك أنه من أغرب الحكام الذين مرّوا على تلك المنطقة، وحكم فترة طويلة نافت على الأربعين عامًا.

وكانت أم الحاكم بأمر الله نصرانية الديانة، وكان ذلك كافيًا لكي تكون بداية حكم هذا الرجل فترة ذهبيةً لأهل الذمة في مصر والشام، فقد أعطاهم حرية كبيرة وكان لبعض أهل الذمة مهامّ ومواقع هامّة جدًّا في دولة الخلافة الفاطمية في مصر. إلا أن الحاكم بأمر الله انقلب فجأة ودون سابق إنذار على أهل الذمة واضطهدهم أشدّ الاضطهاد، فمن ذلك أنه أمر فجأة بأن يعلّق النصارى صلبانًا ثقيلة جدًّا في أعناقهم، وذلك كي تظل أعناقهم منخفضة! وفي فترة لاحقة أمر أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يركبوا الحمير والبغال بالمقلوب! ولكنه انقلب فجأة مرة أخرى وأحسن إلى أهل الكتاب وبالمقابل اضطهد المسلمين بشكل كبير. وما لبث أن عاد وانقلب على النصارى عندما دخلت الألفية الثانية عام 1000م، فتجمّع الكثير من النصارى في مدينة القدس انتظارًا ليوم القيامة. فلمّا لم تقم القيامة ثارت ثائرة الحاكم بأمر الله فأمر بهدم كنيسة القيامة عن آخرها! واضطهد أهل الكتاب مرة أخرى، ثم عاد فأحسن إليهم وسمح لملوك الغرب بإعادة بناء كنيسة القيامة مرة أخرى، وبقي هكذا حتى قُتل غِيلةً، وقيل إنّ مَن قتله أختُه.

هذه الممارسات لم يعانِ من مثلها اليهود والنصارى والمسلمون في مدينة القدس والأرض المقدسة منذ فَتَحَ المسلمون هذه الأرض في عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، ولكنها لم تدم فترة طويلة مقارنةً بالدورة التاريخية الطويلة جدًّا في هذه الأرض المقدسة. ولكن الملاحظ أن البابا أوربان الثاني الذي ولد بعد ذلك وعاش في روما بعد أكثر من ثمانين عامًا من الحاكم بأمر الله استغلّ فترة حكم الحاكم بأمر الله وخاصة حادثة هدم كنيسة القيامة ليدّعي بأن المسلمين اضطهدوا النصارى في القدس، والردّ على هذا الادعاء بسيط.. حيث لم تقم لأوروبا قائمة تجاه كنيسة القيامة إلا بعد أكثر من ثمانين عامًا، وهذا التأخير لا يمكن أن يكون بسبب تأخر وصول الأخبار، فالأخبار لا تتأخر ثمانين عامًا..! ولكن ما حصل كان أن أوروبا اتخذت من تلك الحادثة ذريعة بعد ثمانين عامًا لتبدأ الحملات الصليبية.

الاحتلال الصليبي

في زمن ضاعت فيه من الأمة ذاكرتها، ونسيت ما كانت عليه، ضاعت القدس.. وضاع الأذان في مآذنها زهاء مائة عام...!!! كان ذلك هو الاحتلال الصليبي الذي جثم على قلب الأمّة الإسلامية عشرات السنين، حتى قيّض الله لهذه الأمة من رفع قدرها وأعاد لها عزّتها.

ومن الهامّ لنا أن نعلم أنّ الشخصية الرئيسيّة التي لعبت أهم دور في تسيير جحافل الصليبيين إلى القدس كان البابا (أوربان) الثاني الذي ذكرناه سابقًا، والذي أرسل بدوره رسائل إلى ملوك الغرب وأطلق نداءه ليبدأ

الزحف الصليبي إلى ديار الإسلام. وممّا جاء في إعلانه الشهير للحرب على ديار الإسلام عند بدء الحملة الصليبية الأولى احتلال القدس كما ورد عند (وليم) أسقف صور: «اذهبوا وأزعِجوا البرابرة (يقصد المسلمين)، وخلِّصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار، وامتلِكوها لأنفسكم، فإنها كما تقول التوراة تفيض لبنًا وعسلاً».

ويلاحظ الهدف الاقتصادي المحض في هذا الخطاب الناري! فالأرض المقدسة أرض تفيض لبنًا وعسلاً، كما يلاحظ تأثير التوراة بشكل أساسي في هذه الحملات. ومن المعروف أن أوروبا في تلك الفترة كانت تغوص في الظلام والجهل والمجاعات والأمراض، ما كان له أكبر الأثر في تجييش الآلاف من الجنود للذهاب إلى هذه الحملة، فالهدف الاقتصادي كما أسلفنا كان هدفًا أساسيًّا إن لم يكن هو الهدف الوحيد! خاصة وأن ما تعلَّلَ به حكّام أوروبا في تلك الفترة من مسألة إقدام الحاكم بأمر الله الفاطمي على هدم كنيسة القيامة كان قد مرَّ عليه أكثر من ثمانين عامًا. هذا وقد نقل الكثير من المؤرخين الصليبيين وقائع هذه الفترة وهذا الخطاب ومنهم على سبيل المثال (وليم) أسقف صور في الفترة الصليبية، وكتابه مترجم لعدة لغات منها العربية، ويمكن قراءة النص الكامل لخطاب البابا أوربان الثاني عنده.

كانت أول حملة من حملات الحروب الصليبية حملة بربرية هوجاء لا تنظيم فيها ولا ترتيب، وكانت تنشر الخراب والدمار في كل أرجاء أوروبا في طريقها، ما أدى إلى استعداء كافة الشعوب التي مرّت بها. ولذلك سقطت الحملة في أرض السلاجقة في الأناضول قبل أن تصل إلى بلاد الشام، وكانت هذه وقعة كبرى كادت تقضي على أحلامهم، لولا أن ملوكهم سارعوا إلى إنفاذ الحملة المنظَّمة الأولى التي كانت تتكون من جنود منظَّمين مسلَّحين بشكل جيّد.

أما عن القدس فقد كانت في تلك الفترة تتنقل من أيدي الفاطميين إلى أيدي السلاجقة وبالعكس، وكانت الأوضاع فيها صعبة ومُضَعْضَعة بين هؤلاء وهؤلاء ، وكان السلاجقة في الفترة الأخيرة قد صفا لهم الأمر في القدس وحافظوا على المسجد الأقصى المبارك في الأعوام العشرين التي سبقت الهجوم الصليبي على بيت المقدس، إلا في العام الأخير الذي سبق الاحتلال الصليبي.

انطلقت الحملة الصليبية عبر أوروبا لتصل إلى أرض الأناضول، فحاول السلاجقة صدّها، إلا أن الفاطميين في مصر غافلوا السلاجقة وهاجموا بيت المقدس من الجنوب، فتشتَّتت قوّات السلاجقة بين الشمال والجنوب ما أدّى إلى هزيمتهم و سقوطهم أمام الصليبيين، فيما سقطت القدس بأيدي الفاطميين مرة أخرى، وتقدّمت جحافل الصليبيين من الشمال عبر الساحل الغربي للشام تدمّر المناطق التي لا يتعاون معهم أهلها وتهدّمها،

وأمدَّهم المارونيّون بقواتهم في الشمال إلى أن وصلوا إلى أرض بيت المقدس من الناحية الشمالية، فاستداروا حول مدينة القدس وقطعوا طريق البحر من اللد والرملة ثم تقدّموا من الغرب. وكما ذكرنا سابقًا كانت القدس في تلك الفترة قد وقعت لتوّها تحت حكم الدولة الفاطمية للمرة الثانية، تلك الدولة التي مزَّقَتْها النزاعات الطائفية والصراع على الحكم، ومعروف أن الفاطميين كانوا في الحقيقة من بني عبيد من الفِرَق الباطنية.

وكان على القدس الشريف في تلك الفترة أمير فاطمي هو (افتخار الدولة)، وفي عهده وصل الصليبيون إلى القدس بقيادة تانكرد وجودفري في شعبان من صيف عام 492هـ / 1099م. وكانت أنباء الزحوف الصليبية ترعب السكان في كل مكان، وتساقطت المدن الساحلية في أيديهم تباعًا، تلتها المدن الداخلية وخاصة الرملة، التي تقدَّموا إليها وحاصروا القدس حصارًا شديدًا بعد أن دخلها الآلاف من المسلمين دفاعًا عنها وطلبًا للحماية. وكان من تَحَصَّن بالقدس الشريف معظمهم من العلماء والزهّاد والفضَلاء وعامّة الناس الذين ظنّوا أن الصليبيين يمكن أن يراعوا قدسية هذه المدينة.

وكان مركز الدفاع الفاطمي في المدينة موجودًا في قلعة داود، التي تحصن فيها افتخار الدولة، ثم راسل الصليبيين سرًّا على أن يسلّمهم المدينة مقابل أن يسمحوا له بمغادرتها مع حاشيته، وهو ما تمّ له، حيث غادر القلعة جنوبًا إلى عسقلان فمصر، تاركًا المدينة تواجه مصيرها المحتوم. وهذا ما دعا المؤرخ ابن الأثير[69] إلى أن ينصّ على أن اتفاقًا غير معلن حصل بين الفاطميين في مصر وبين الصليبيين منذ زمن على أن يتسلّم الصليبيون مدينة القدس مقابل أن يخلّصوا الدولة الفاطمية من السلاجقة الذين صدّوا الفرنجة في الحملة الأولى الفاشلة وكانوا ينافسون الفاطميين في حكم المدينة المقدَّسة كما ذكرنا سابقًا. وهذا الأمر يحتاج إلى تمحيص وبحث لإثبات صحّته أو ضعفه، خاصة وأنّ ابن الأثير يذكر بعد ذلك مباشرة الكلام على الحرب بين الفاطميين والصليبيين بعد احتلالهم بيت المقدس مباشرة[70].

ونترك هنا لاثنين من المؤرِّخين ليرويا لنا ما حدث في تلك الفترة:

- يقول وليم الصوري (رئيس أساقفة صور): «واندفعوا هنا وهناك خلال شوارع وساحات المدينة مستلّين سيوفهم وبحماية دروعهم وخوذهم، وقتلوا جميع من صادفوا من الأعداء بصرف النظر عن العمر أو الحالة ودونما تمييز. لقد انتشرت المذابح المخيفة في كل مكان، وتكدّست الرؤوس المقطوعة في كل ناحية بحيث تعذّر الانتقال على الفور من مكان إلى آخَر إلا على جثث المقتولين... كان القسم الأكبر من

(69) الكامل في التاريخ، ج: 9، ص: 19.

(70) الكامل في التاريخ: ج: 9، ص: 21.

الناس قد التجأ إلى ساحة الهيكل (يقصد بها المسجد الأقصى)... إلا أن هروبهم هناك لم ينقذهم، حيث تبعهم تانكرد على الفور... وبات من المحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع. فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان، وكانت الأرض ذاتها مغطاةً بدم القتلى... وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثًا عن التعساء الباقين على قيد الحياة... وسُحِبَ هؤلاء على مرأى الجميع وذُبحوا كالأغنام، وتشكّل البعض في زُمَر واقتحموا المنازل، حيث قبضوا على أرباب الأُسَر وزوجاتهم وأطفالهم وجميع أُسَرِهم، وقُتِلَت هذه الضحايا أو قُذِفَت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي.»[71]

- ويقول ابن الأثير: «وملكوها من الشمال ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان، وركب الناسَ السيفُ، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين... وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف. وأخذوا من عند الصخرة نيّفًا وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنّورًا من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيّفًا وعشرين قنديلاً، وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء.»[72]

هذه هي المذبحة.. وهذا هو ما تسبّب فيه (عار الدولة) الذي أصبح مثالاً للخزي والعار...!!! وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تعديلات الصليبيين في الأقصى

قام الصليبيون بتعديلات في مباني المسجد الأقصى المبارك المختلفة تدلّ على نظرتهم وتعاملهم السيّئ مع هذا المكان المقدّس. وذكر المؤرِّخ الصليبي الروسي (دانيال الراهب) وصف المسجد الأقصى المبارك في تلك الفترة، كما ذكره المؤرِّخ (الشريف الإدريسي) الذي زار القدس في تلك الفترة أيضًا، بالإضافة إلى غيرهما من المؤرخين والزوار، ومنهما نأخذ الوصف:

- قام الصليبيون بتحويل قبة الصخرة المشرّفة إلى كنيسة سُمِّيَت (كنيسة أقدس المقدَّسات) كما ذكر دانيال الراهب، وتم نصب صليب كبير مغطًّى بالذهب فوقها، ونشرت التصاوير في أنحائها الداخلية.

(71) تاريخ الحروب الصليبية، ج: 1، ص: 435-437.

(72) الكامل في التاريخ، ج: 9، ص: 19.

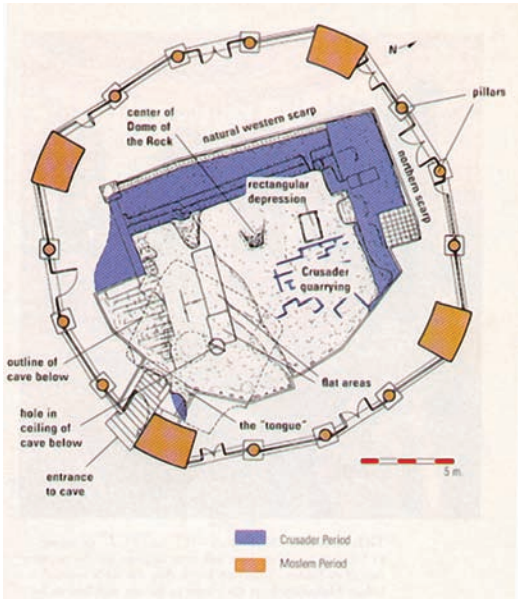

- أمّا الجامع القبلي فقد قاموا بتقسيمه إلى ثلاثة أقسام: قسم جعلوه كنيسة، وقسم جعلوه مكاتب، وقسم تُرِك مكانًا لمبيت الفرسان المسؤولين عن المكان.
- وبالنسبة إلى المصلّى المرواني فقد تم تحويله إلى إسطبل للخيول، وتم ثقب أعمدته من الأسفل لربط الخيول فيها، وسمّوه (إسطبل سليمان).
- بالإضافة إلى ذلك بنى الصليبيون كنيسة في الناحية الشمالية للمسجد الأقصى المبارك.
- كما قام الصليبيون (حسب تقديرات المؤرِّخين وعلى خلاف بينهم) بإضافة المكان المسمّى حاليًا: (مُصلّى النساء) بحيث أتى ملاصقًا للجامع القبلي من الجهة الجنوبية الغربية.

كما يذكر التاريخ أن الصليبيين كانوا قد قطعوا من الصخرة المشرَّفة قِطعًا كبيرة وكانوا يبيعونها بوزنها ذهبًا للحجاج القادمين من أوروبا، حتى جاء بعض ملوكهم وأشفقوا على الصخرة وغطّوها بالبلاط لحمايتها من الرهبان المسؤولين عنها..! وقد بقي المسجد الأقصى المبارك بهذا الشكل نهبًا لهم قرابة تسعين عامًا، حتى أذن الله تعالى بالفتح للسلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، خليفة الملك العادل نور الدين زَنْكي، خليفة الملك الشهيد زنكي بن آق سنقر، رحمهم الله أجمعين.

الدولة الزَّنْكِيَّة

عندما ندرس قضية تحرير البيت المقدس وحيثياتها وكيفيّتها بالتفصيل نجد أن تحرير بيت المقدس الشريف لم يبدأ بصلاح الدين الأيوبي أو بأبناء البيت الأيوبي، وإنما كان بدأ من البيت الزَّنْكي، الذي أسَّس دولة آل زَنْكي في منطقة الموصل شمال العراق. وامتدت هذه الدولة لتشمل الشام ومصر قبل أن يستلم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى الحكم، وهناك واحد من أجمل وأسهل الكتب التي تحدثت عن هذين العهدين (الزَنْكي والصلاحي) هو كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) لأبي شامة رحمه الله، والذي نقله بدوره عن العديد من الكتّاب في تلك الفترة، مثل القاضي ابن شداد والقاضي الفاضل عبدالرحيم والعماد الكاتب وغيرهم، وأنصح بقراءته لأخذ العبرة من التاريخ فيه، والتاريخ شاهد وأي شاهد.

وكانت بداية التحرير مع الملك زَنكي بن آق سنقر، الملقَّب بالملك الشهيد عماد الدين زَنكي، واسمه الحقيقي هو (زَنكي) وإليه تُنسب الدولة الزنكية. وفي عهده كانت الشام تموج بالفتن والانقسامات والأحلاف مع الصليبيين، وكانت بعض المدن أحيانًا تشكِّل إمارة وتتحالف مع أعداء الأمّة في مواجهة جاراتها من الإقطاعات. وما أشبه وضع الأمة في تلك الفترة بوضعها اليوم: عروش وحروب وفتن تعصف بالأمّة والمنطقة ومسجدها الأقصى المبارك يغرق وسط الركام ولا مجيب.

وعلى العكس من بلاد الشام التي كانت قد مزَّقَتْها الحروب والفتَن السياسية، كانت مصر موحَّدة. ولكنها في الوقت نفسه مفصولة تمامًا عن جسد الأمّة الإسلامية، وكانت تحت حكم الدولة الفاطمية التي ضيّعت بيت المقدس من قبل. وزاد الفاطميّون الأمّة تشتُّتًا فكان لهم (خليفة) مختلف عن الخليفة في بغداد، الذي كان أمراء بلاد الشام تابعين له اسميًّا. وبالتالي فقد كانت مصر كيانًا منفصلاً نهائيًّا عن جسد الأمة الإسلامية تحت حكم خليفة آخر، مفصولة سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا، وحتى عقَديًّا.

وفي هذه الفترة تولّى عماد الدين زَنكي زِمام الحكم في دولة صغيرة تقع شمال منطقة الهلال الخصيب (أي منطقة العراق والشام)، وبدأ من هناك العمل الحقيقي الفعلي على تحرير المسجد الأقصى المبارك.

وكانت إستراتيجية التحرير التي رسمها عماد الدين زَنكي رحمه الله تعالى واستمرّ في تنفيذها كما هي من بعده نور الدين زَنكي وصلاح الدين الأيوبي، تنقسم إلى ثلاث مراحل:

1 – توحيد الشام،

2 – ضمّ مصر إلى الشام وتوحيدهما،

3 – دخول فلسطين وتحريرها فعليًّا،

وأثبتت هذه الاستراتيجية جدواها، على أنّ أصعب مرحلة في هذه الخطة كانت المرحلة الأولى، مرحلة توحيد الشام، وهي التي استهلكت من عماد الدين كل فترة حكمه، ومن بعده نور الدين زنكي الذي تطلَّب منه هذا الأمر جهدًا كبيرًا وفترة طويلة من سنين حكمه قبل أن يلتفت إلى مصر.

وكانت خطة عمل عماد الدين زَنْكي تتميز بإعلان الهدف الكبير لتحرّكاته كافّةً وهي: (توحيد البلاد وتحرير بيت المقدس) الأمر الذي استقطب إليه بالطبع جماهير الأمّة باستثناء حكّامها، الذين حاربوه بكل ضراوة وشراسة بادلهما عماد الدين بالمثل كما فعل في بعلبك عندما فتحها وقتل حاميتها من هؤلاء الأمراء عن آخرهم.

وإلى جانب حربه مع الأمراء المنقسمين، لم يكن من بدّ لتأكيد هدفه أن يحارب الصليبيين. وتلك هي الموازنة الضرورية بحيث لا يترك لأعدائه فرصة لتأليب الشعوب عليه بزعم عدم محاربته للصليبيين. ولذلك سار الملك عماد الدين رحمه الله بنفسه بالجيش وهاجم قلاع الصليبيين وحصونهم أكثر من مرة وهزمهم أكثر من مرة، كان أقساها وأخطرها على الإطلاق فتح إمارة (الرها) الصليبية في شمال بلاد الشام، وهي المنطقة التي تُسمّى اليوم (أورفا) في جنوب تركيا. وهذه الإمارة كانت تُعدُّ أقوى إمارات الصليبيين في الشمال، ما جعل من فتح الرها في الحقيقة أول الانتصارات التاريخية الكبرى على الصليبيين منذ دخولهم أرض الشام، وهو الأمر الذي أوجعهم بشدة. وحاولوا استرجاع هذه الإمارة عدة مرات إلا أنهم فشلوا فشلاً ذريعًا، وكان هذا الفتح الجليل هو الشرارة التي أشعلت غضب الشعوب المسلمة على حكّامها، وثبّتت مكانة عماد الدين زنكي رحمه الله في قلوب المسلمين، وبالتالي فقد كان يُستقبل في المدن الإسلامية المفتوحة استقبال المحرِّرين الأبطال.

إلا أن المنيّة عاجلت القائد المسلم حينما استُشهد وهو يحاصر قلعة (جعبر) التابعة لأحد الأمراء المسلمين، وكان استشهاده رحمه الله على يَدي أحد خدمه، حيث قتله وحاول الفرار إلى داخل حامية قلعة جعبر، إلا أنه أُلقي القبض عليه، واقتصّ منه الملك العادل نور الدين زَنكي رحمه الله تعالى.

الملك العادل نور الدين وهو محمود بن زَنكي بن آق سنقر، الملقَّب بالملك العادل نور الدين. وعندما تَذْكُر اسم (نور الدين زنكي) رحمه الله تعالى فإنك تذكر رجلاً من أعظم رجال المسلمين عدلاً وأدبًا وحلمًا وقوّةً وشكيمةً. فقد استلم الحكم على حين غرّة بعد استشهاد الملك الشهيد عماد الدين، وكان رحمه الله ما يزال في عنفوان شبابه، فما زاده ذلك إلا قوّة وشدّة، وقد أدخل هذا الرجل في قلوب أعداء الأمة من الخوف والرهبة الشيء العظيم.

وكان أول ما فعله رحمه الله هو رجوعه عن قلعة جعبر (التي فتحها فيما بعد)، وبدأ بتثبيت حكمه في المناطق المفتوحة. وكان من أشهر الحوادث في بداية حكمه رحمه الله أن ظنَّ الصليبيّون أن بإمكانهم أن يسترجعوا الرها، فحاولوا اقتحامها، إلا أن نور الدين رجع إليها فردّهم عنها بأشدّ مما كان عليه أبوه رحمهما الله، فكانت تلك آخر المحاولات الصليبية لإعادة احتلال الرها.

وانتقل نور الدين بعد تثبيت حكمه في الشمال وخاصة (حلب) وفي الشرق، إلى الجنوب مقتربًا من إقليم بيت المقدس، إلا أنه كان حريصًا على عدم الاصطدام بالصليبيين داخل فلسطين نظرًا لعدم جاهزيّته. فوجّه نظره إلى حاضرة الشام: دمشق، التي كانت تعدّ إحدى أهمّ المدن في الشام بخاصة لقربها من شمال فلسطين والحدود الصليبية. وكان الصليبيون بدورهم بالطبع يحاولون احتلال هذه المدينة الجليلة أكثر من مرة، ولكنهم

فشلوا فشلاً ذريعًا وارتدّوا عنها، خاصة في الحملة الصليبية الثانية التي ارتدّت مدحورة أمام أسوار دمشق وأمام استبسال سكّانها في الدفاع عنها ضدهم. وكانت هذه المدينة الجليلة في الختام لنور الدين رحمه الله بعد أن ثبّت أركانه فيها أولاً بين قلوب الناس، وثانيًا بمصاهرته أميرها (معين الدين أنر) بزواجه من ابنته عصمت الدين خاتون.

كان نور الدين يتميز بعدم تقديمه خيار الحرب على المفاوضة والسِّلْم مع أمراء المسلمين، وكان له في ذلك مواقف طيبة في حقن دماء المسلمين أكثر من مرة. ولعل هذا ما فتح له قلوب المسلمين أكثر فأكثر، حتى من بعض حكامهم، وسهَّل عليه فتح المدن والقلاع والحصون الإسلامية في الشام. وهكذا استقر الأمر لنور الدين زنكي في الشام وشمال العراق دون منازع أو مخاصم، وبالتالي انتهت المرحلة الأولى من خطة تحرير القدس الشريف. وانتقل الملك العادل رحمه الله إلى المرحلة الثانية، فوجّه نظره إلى مصر التي كان الأمر فيها أصعب من الشام، إذ إن الدولة الفاطمية كانت تحكمها منذ مئات السنين، وبالتالي فإن أبناء الشعب المصري كافّة كانوا لا يعرفون سوى هذا الحكم الفاطمي الباطني طوال عمرهم ولعدة أجيال.

كما أن طبيعة الحكم الفاطمي الذي ثبّت أركانه في تلك الأرض طوال تلك الفترة كانت صعبة الاختراق، خاصة مع سيطرة الوزراء على الحكم وبقاء الخليفة الفاطمي اسمًا مجرَّدًا من معناه. وكان هذا كافيًا ليبقي الملك العادل نور الدين في حالة ترقُّب للفرصة المناسبة لدخول مصر وإعادتها إلى حاضرة الخلافة العباسية وجسد الأمّة الواحد.

وبالطريقة نفسها – مع اختلاف الأسباب بالطبع – لفتت مصر نظر الصليبيين، الذين أدركوا خطة نور الدين، وبدأ السباق بينهم وبينه على الوصول إلى مصر... وهنا جاءت الفرصة المناسبة لتدخُّل الجيش النوري في مصر عندما استنجد الوزير (شاور) وزير الخليفة الفاطمي العاضد الذي كان خليفة مريضًا ضعيفًا – بالملك العادل نور الدين على خصومه في الحكم الذين استعانوا بالصليبيين. فأرسل نور الدين جيشًا إلى مصر بقيادة (أسد الدين شيركوه) وابن أخيه (صلاح الدين يوسف بن أيوب) رحمهما الله، فدخل مصر وجعل له فيها موطئًا، وأوقف الزحف الصليبي. إلا أن الوزير شاور ما لبث أن راسل الصليبيين ليستعين بهم على نور الدين! وهكذا اختلط الأمر على هذا الرجل في ما بين أن يستعين بنور الدين أوالصليبيين. إلا أن نور الدين زنكي أكد على تثبيت وجود الجيش الشامي في مصر بأيّ طريقة، وكانت الفرصة المؤاتية عندما هاجم الصليبيون مصر من الإسكندرية. فأرسل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مع الجيش الشامي، وكان حصار الإسكندرية ومعركتها الشرارة التي أشعلت سخط الشعب المصري على وزير الملك (شاور) وعلى الخلافة الفاطمية، وهي الحادثة التي رفعت اسم (صلاح الدين) عاليًا في مصر، وكانت بداية ظهور صلاح الدين علنًا.

ذلك أن الصليبيين كانوا قد جمعوا معظم ما لديهم من جنود وسلاح في حصار الإسكندرية، واجتمع فيها جيوش مملكة القدس مع الإمارات الصليبية الأخرى. إلا أن الخلاف دبّ بين الأحزاب الصليبية، وتبيّن كيد كل فريق للآخر، وانفرط عقد الحلف الصليبي وفشلت حملتهم مع الثبات الأسطوري للشعب بقيادة صلاح الدين الأيوبي، الأمر الذي قوّى موقع الجيش الشامي في مصر، وأضعف موقف الوزير شاور الذي اعتبره أهل البلاد خائنًا. وكانت القشّة التي قصمت ظهر البعير محاولته اغتيال رموز الجيش الشامي، وعلى رأسهم أسد الدين شيركوه، كيدًا بالسم، ما أعطى أسد الدين وصلاح الدين الفرصة المناسبة لقتله بعد القبض عليه بمباركة الخليفة الفاطمي العاضد، الذي ركب بدوره موجة الأحداث وسار مع التيار، فعيّن أسد الدين شيركوه وزيرًا بدلاً من شاور القتيل. وبعد شهرين فقط توفي أسد الدين رحمه الله، وتم تعيين صلاح الدين وزيرًا للعاضد ونائبًا لنور الدين في مصر، فعمل على تثبيت حكم نور الدين في مصر تمامًا، ولم يكن هناك فتن كبرى في مصر باستثناء فتنة مؤتمن الخلافة (وهو أحد المناصب العليا في الدولة الفاطمية)، الذي حاول بدوره مراسلة الصليبيين، فاكتشف صلاح الدين الأمر وقتله، فثار أعوانه واقتتلوا والجيش الشامي، وسرعان ما تم إخماد الفتنة.

وبهذا ثبت الأمر لنور الدين زنكي بيدَي أسد الدين شيركوه ومن بعده صلاح الدين في مصر، ولم يبقَ إلا خلع الخليفة الفاطمي وتوحيد مصر مع جسد الدولة العباسية. إلا أن الأمر تم بالتدريج للأسباب التي ذكرناها سابقًا من حيث خصوصية وضع مصر وقِدَم الحكم الفاطمي فيها. ففي البداية تم إضافة اسم نور الدين زنكي إلى الخطبة في صلاة الجمعة بعد اسم الخليفة الفاطمي العاضد.

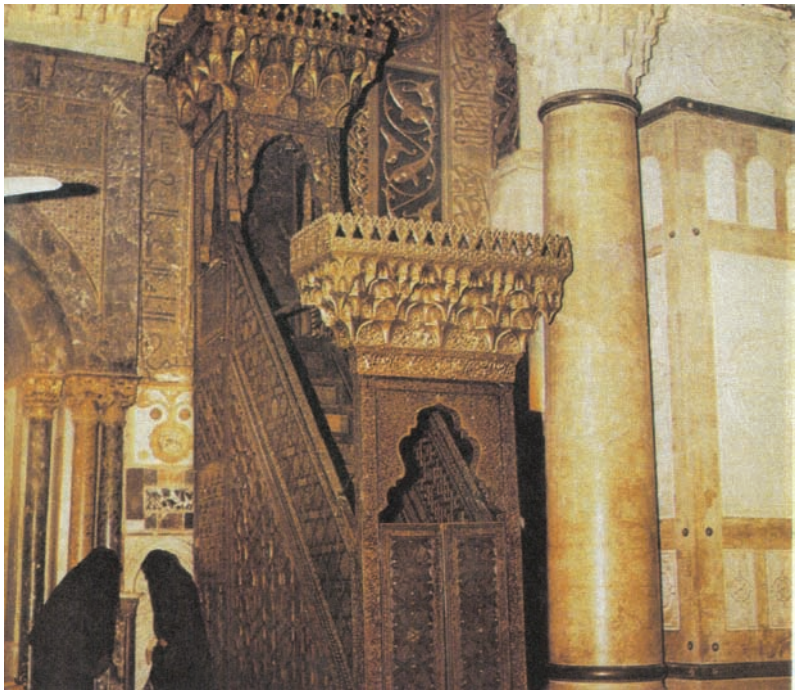

منبر نور الدين زنكي قبل إحراقه (المصدر كتاب التسوية الشرقية للدكتور إبراهيم الفني) وهذه آخر صورة قبل إحراقه.

ومن ثم أمر نورُ الدين زنكي صلاحَ الدين الأيوبي بخلع العاضد، وذلك بقطع الخطبة عنه وجعلها للخليفة العباسي

قبر الملك العادل نور الدين زنكي في دمشق (تصوير المؤلّف)

في بغداد، وهو ما تمّ لاحقًا دون علم العاضد الذي ما لبث أن توفي، وبذلك انقرضت الدولة الفاطمية، وتم توحيد مصر والشام فعليًّا واسميًّا، وورد نورَ الدين زنكي مرسومُ الخليفة العباسي بتسميته (سلطان مصر والشام)، وبهذا تمّت المرحلة الثانية من خطة التحرير.

وما لبث نور الدين زنكي أن بدأ بالإعداد للمرحلة الحاسمة والأخيرة من خطة التحرير ، فبدأ بدكّ حصون الصليبيين وقلاعهم. وكان قد صنع في حلب منبرًا بديع الصنعة جميل المنظر لم يوجد في الإسلام مثله استعدادًا للتحرير الكبير للمسجد الأقصى المبارك... ولكنَّ قَدَر الله نافذ، فكانت وفاته رحمه الله تعالى قبل أن يحقِّق حلمه الكبير. ودُفِنَ في دمشق، وقبره موجود فيها ومعروف إلى الآن في مدرسته النورية بالبلدة القديمة من دمشق، وهي تقع عند نهاية (سوق الحميدية) إلى اليمين قرب المسجد الأموي بدمشق.

الدولة الأيوبية

بوفاة نور الدين زنكي، ظنَّ الكثيرون – وخاصة الصليبيين – أن الأمر انتهى أو كاد، وتنفَّس الصليبيون الصعداء بعد أن كاد رحمه الله يُنهي وجودهم في الأرض المقدسة، وزاد الأمر تعقيدًا اختلاف أمراء البيت الزنكي على خلافة نور الدين رحمه الله، تحت مسمّى الحرص على مصلحة خليفة نور الدين زنكي، الصالح إسماعيل، وهو ابنه الوحيد الذي كان صغير السن يحتاج إلى قَيِّم عليه.

وانقسم الناس، وبدأت بوادر الانقسامات والفتن تظهر هنا وهناك، خاصة بعد أن قام بعض قادة البيت النوري بمهادنة الصليبيين. ما أدى بالغيورين على مصلحة الإسلام إلى أن يستنجدوا بصلاح الدين في مصر، الذي كان صيته قد ذاع كأفضل أمراء نور الدين زنكي، فأسرع بدوره إلى الشام وبدأ بتوحيدها مرة أخرى، وهو ما أخَّر تحرير بيت المقدس سنوات طويلة.

الملك الناصر صلاح الدين وهو رحمه الله، الملك المظفَّر يوسف بن أيوب، الملقَّب بالسلطان الناصر صلاح الدين، وكان يلقَّب في الكتابات التأريخية باسم (صلاح الدنيا والدين) من باب التحبُّب وزيادة الافتخار به وبصنيعه العظيم. وكان أسلوب صلاح الدين الأيوبي يشبه كثيرًا أسلوب نور الدين زنكي في الحكم والولاية والتدبير، فكان يميل إلى حقن دماء المسلمين وعدم خوض الحروب التي تدور فيما بينهم، إلا ما كان من اضطراره إلى حرب بعض الأمراء الذين خرجوا على الخط وظنّوا أن الأمر انتهى بوفاة نور الدين زنكي. فما لبث رحمه الله أن أعاد توحيد الشام مرة أخرى. وبهذا أصلح صلاح الدين الخلل، وسدَّ الثغرة التي فُتحت بوفاة الملك العادل، وأصلح الفساد الذي حصل، ملتفتًا مرة أخرى إلى تحرير بيت المقدس.

ومن هنا بدأ السلطان الناصر رحمه الله تعالى خطة عمله، فبدأ من المناطق المجاورة له، أي بادية الشام، وبدأ يفتح الحصون حصنًا بعد آخر، وله في ذلك وقعات معروفة شهيرة ذكرها بالكامل الكثيرون مثل القاضي ابن شداد في كتابه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)، والعماد الكاتب في كتابه (البرق الشامي)، وكذلك كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) لأبي شامة الذي أخذ عن جميع من سبقه كما أسلفنا.

وكان السلطان يعتمد في إستراتيجيته الحربية أسلوبًا حلزونيًّا، بمعنى أن يحاصر القدس من كل النواحي فيفتح كل ما حولها من الجهات كافة ليقطع طرق الوصول والإمدادات ويخنق الصليبيين ويحصرهم فيها فقط.

ولهذا كان من اللازم أن يستدرج الصليبيين إلى موقعة كبرى يكسر فيها شوكتهم ويَسْهُل عليه بعدها المسير إلى المناطق المجاورة للقدس التي كانت تمثِّل في تلك الفترة أقوى إمارة صليبية في المنطقة على الإطلاق، بل

كانت القدس في الحقيقة هي المملكة الوحيدة بين تلك الإمارات، وهي الوحيدة التي كانت تسمّى (مملكة القدس). لذلك تم اختيار منطقة (حطّين) القريبة من بحيرة طبريّة لتكون مكانًا للمعركة، وتم رسم خطة المعركة بدقة. ولاستدراج الصليبيين هاجم صلاح الدين حصن طبرية الذي كان يحوي زوجة (ريموند) أمير طرابلس، القائد الصليبي المحنَّك، الذي أشار – مع ذلك – بعدم الوقوع في فخ صلاح الدين، إلا أن المعارضة كانت شديدة لرأيه، فتمّ لصلاح الدين ما أراد، وسار إليه الصليبيون في مكان المعركة الذي اختاره هو وخطَّط له مسبقًا.

وتُعتبر موقعة حطّين إحدى المعارك الجليلة في تاريخ المسلمين، وصفحةً ناصعةً من صفحات هذه الأمة الخالدة، حيث كانت هذه المعركة العظيمة بمثابة جسر للعبور إلى القدس. فبعد انتصار المسلمين فيها وفرار الصليبيين، انطلق بعضهم إلى أوروبا، وانحاز البعض الآخر إلى القدس ليحتمي بأقوى وأمنع حصن للصليبيين في المنطقة كلها. وسقطت المدن في طريق صلاح الدين تباعًا... فقد سار بعد حطّين إلى نابلس والساحل كلّه، وبعدها نزل إلى عسقلان، ومن ثم فتح مدينة الرملة ونزل واجتمع له كامل عدته من الجيش، وخاصة المجاهدين المصريين والمغاربة ومَن معهم. وما إن اكتملت العدة حتى انطلق بهم إلى القدس، فوصل إليها من جهة الغرب في الخامس عشر من شهر رجب، وبدأ حصار القدس على أشدّ ما يكون عليه الحصار، ودافع الصليبيون بدورهم بأشدّ ما يكون القتال والصمود، وقد اجتمع لهم فيها ألوف من الجنود. ودام الحصار والقتال 12 يومًا، إلى أن نقب جنود السلطان السور من الزاوية الشمالية الشرقية، وأحرقوه ما تسبب في انهيار جزء منه، فبادر (باليان) الحاكم السابق ليبنى المسمّاة (أبلين) وقائد الحامية الصليبية في المدينة إلى طلب الصلح. فوافق السلطان رحمه الله، وفُتحت المدينة في يوم الجمعة في السابع والعشرين من شهر رجب الكريم، الموافق لذكرى ليلة الإسراء والمعراج الجليلة، كما يرى بعض العلماء، لتكون تذكرة وخيرًا من الله تعالى لهذه الأمة المسلمة.

وصلّى السلطان رحمه الله صلاة الجمعة الأولى بعد الفتح في مسجد قبة الصخرة المشرَّفة، وطهّر الأقصى وأزال ما أحدثه الصليبيون بالجامع القبلي وقبة الصخرة وغيرهما من الأماكن في الأقصى المبارك، وأعاد للمسجد روعته وبهاءه، بعد حوالى تسعين عامًا من الاحتلال، ثم تمّ استقدام رمز النصر، منبر نور الدين زنكي الذي صُنع في حلب، إلى المسجد الأقصى المبارك، فنصب فيه، وبقي إلى أن أحرقه المتطرِّف الصهيوني (دينيس مايكل روهان) في 21/8/1969 م.

ومن الآثار الجليلة الباقية لتلك الفترة الذهبية الكتابة الأثرية التأريخية لتجديد محراب الجامع القبلي وعمارة المسجد الأقصى المبارك، الموجودة إلى اليوم فوق محراب الجامع القبلي بالفسيفساء المذهَّبة. وهذا

النص التاريخي للسلطان الناصر فوق محراب الجامع القبلي (تصوير المؤلّف)

نصُّها:

(بسم الله الرحم الرحيم، أمر بتجديد هذا المحراب المقدَّس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسِّس، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهو يسأل الله إيزاعَه[73] شكرَ هذه النعمة، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة).

وما إن أتمّ السلطان رحمه الله فتح المسجد والمدينة المقدَّسة، حتى بدأ بإجلاء الصليبيين من الأرض المقدسة كلها، إلا أن أوروبا سرعان ما أمدّت جنودها المهزومين في فلسطين بالجيوش والأساطيل، وتمّ إرسال الحملة الصليبية الثالثة التي قادها عدة ملوك ثبت منهم في الطريق ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا الذي يشهد له التاريخ بالشدة والذكاء. وتتابعت حروب السلطان مع ريتشارد، ومن ثم تتابعت مراسلاتهما المثيرة الموثَّقة بالكامل والتي يمكن متابعتها عند ابن الأثير وغيره من المؤرخين، إلى أن تمّ توقيع (صلح الرملة) الذي وُقِّع بعد هذه المفاوضات الطويلة والسلسلة الطويلة من الرسائل المتبادلة والمعارك في الوقت نفسه، وقد درست الباحثة الأستاذة رامونا إبراهيم هذه الفترة بالتفصيل في دراسة

(73) هذه الكلمة (إيزاعه) مأخوذة من الآية الكريمة ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ [سورة الأحقاف: 15]، وللأسف الشديد فقد وقع الكثير من الفضلاء في خطأ أراه كبيرًا في نقل هذه الكلمة فنقلها الكثيرون (وهو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة) وكلمة (إذاعة) لا تتفق مع السياق إطلاقًا. إضافة إلى أنّ الكلمة واضحة وهي (إيزاعه)، ويبدو أن الخطأ كان سببه نقل خاطئ واحد نقل الكثيرون عنه. وهنا أودّ تذكير أبناء أمتنا بأنّ التثبّت والتيقّن من كل نقطة مطلوب من طلَبة العلم، وكل رأي معرَّض للنقاش إلا قول الله عز وجل وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، لذلك اقتضى الأمر هذا التنويه.

قيّمة قدّمتها لنيل درجة الماجستير في دراسات بيت المقدس ويمكن الرجوع إليها للاستزادة، وما لبث السلطان أن توفي رحمه الله تعالى في دمشق بعد أن أتمّ أمانته، ودُفن في تلك المدينة الجليلة كما دفن مِن قبله الملك العادل نور الدين، وقبره معروف إلى اليوم، وقريب من المسجد الأموي.

العصر الأيوبي فيما بعد السلطان الناصر صلاح الدين

بعد وفاة السلطان الناصر صلاح الدين دبّ الخلاف بين قادته على تولّي أمور السلطنة كما حصل بعد وفاة الملك العادل نور الدين، وكان لذلك الأمر أكبر الأثر في تردّي الأوضاع عمومًا، وخاصة فيما يتعلق بمدينة القدس، وذلك على يدَي (الملك الكامل محمد بن الملك العادل سيف الدين بن أبي بكر بن أيوب) الذي سلّم القدس إلى الصليبيين مرة أخرى!

ويبدو أنّ تهديد القدس كان واضحًا منذ فترة مبكرة، وخاصة أيام الملك المعظَّم عيسى، الذي نظر نظرة عامة إلى الأوضاع من حوله، وعرف أن الصليبيين إذا ما تمكّنوا من القدس فلن يتركوها ثانية خاصة أن الضعف بدأ يدبّ في الأمّة مرة أخرى بعد وفاة السلطان الناصر صلاح الدين. فقام بخطوة أعتبرها شخصيًّا جريئة جدًّا، حيث قام بتخريب أسوار مدينة القدس التي شيّدها وقوّاها صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وذلك خوفًا من أن يستعين الصليبيون بهذه الأسوار فيما لو احتلوا المدينة. ولاقى هذا العمل الكثير من التشنيع والسخط من العامة والمؤرِّخين على الملك المعظّم عيسى وما زال هذا مذكورًا في كُتُب التاريخ، لأنهم كانوا يتذكرون بهذه الأسوار صلاح الدين رحمه الله تعالى.

وفي نظري كان الأمر في الحقيقة خيرًا وفيه كل الخير.. فلم يكن أحد يتخيَّل أيام السلطان صلاح الدين أن القدس سيتم احتلالها مرة أخرى.. بل حتى أن تصبح ورقة مساوَمة بأيدي الصليبيين. ولذلك فإني أرى أن الملك المعظّم عيسى، الذي تشهد له آثاره الجليلة في القدس والأقصى المبارك على أنّه أحبّ هذه الأرض فعلاً وملأت عليه حياته، قد قام بفعل صحيح في وقت حرج للغاية. وكان قد عرف مكانه وموضعه وعَمِلَ ضمن الإمكانيات المتاحة له، وذلك هو فن الإدارة. علمًا هنا بأننا لا نُبرِّر الضعف للملك المعظم عيسى، وإنما نذكر بأن هذا الفعل الذي قام به هو الذي أعان بعد ذلك على إخراج الصليبيين من مدينة القدس بعد أن عادوا واحتلوها مرة أخرى، لذا لا يمكن أن نلوم هذا الرجل على نظرته للضعف العام الذي أصاب الأمة والدولة، وهو الرجل الذي تشهد له آثاره في القدس كم أحبّها وعشق أقصاها حتى بنى فيه وشيّد من المدارس وصهاريج الماء والمطاهر والمياضئ أكثر من غيره من ملوك الأيوبيين كما سيتبيّن لاحقًا بإذن الله.

وفعلاً صدق حدس الملك المعظّم عيسى بعد وفاته على يدَي الملك الكامل كما أسلفنا. وكان ذلك حين احتلّ الصليبيون دمياط، فأخرجهم الملك الكامل منها. ولكنه عاد واستنجد بالملك فريدريك الثاني ملك الألمان على خصومه السياسيين (وهما شقيقاه)، وعرض على الصليبيين احتلال عكا مقابل أن يسلّمهم القدس، وتم ذلك بموجب معاهدة عُرفت باسم (معاهدة يافا) يستلم الصليبيون بموجبها القدس ولا يعمرونها، على أن يبقى المسجد الأقصى بيد المسلمين، ولا يعمرها الصليبيون ولا يبنون سورها المهدوم. وكانت مدة المعاهدة عشر سنوات! وهو ما كان بالفعل، حيث دخل الصليبيون القدس مرة أخرى وتُـوِّج الملك فريدريك ملكًا على القدس. وراع هذا الفعل الشنيع المسلمين ووقع عليهم كالصاعقة، وكان ذلك عام 626 هـ، حتى إن التاريخ يذكر أن الملك الكامل أمر مؤذِّني الأقصى بعدم رفع الأذان عند دخول ملك الألمان، فلم يَرُق الأمر للملك فريدريك وقال: (إنما أردت أن أسمع الأذان وأتعرَّف على المسلمين) وعجبٌ أن يكون الغريب الطارئ أكثر فهمًا لطبيعة بيت المقدس الجامعة من بعض أبناء جلدتنا. على كل حال بقي الأمر على حاله من خلافات ونزاعات مرة حتى ما بعد وفاة هذا الرجل، حين قام الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى صاحب الأردن والكرك بطرد الصليبيين منها عام 637 هـ وذلك بعد انتهاء فترة معاهدة (يافا) ونقضهم لشروطها التي تنص على عدم تجديد سور المدينة وتحصينه، فاستبشر المسلمون وهللوا لهذا العمل الجليل. ولكنه ما لبث أن أفسد هذا الإنجاز فتحالف مع عمه الملك (الصالح إسماعيل) ضد (الملك الصالح نجم الدين أيوب) صاحب مصر، واستنجدا معًا مرة أخرى بالصليبيين على الملك الصالح نجم الدين أيوب، وبموجب ذلك تم تسليم المدينة للصليبيين مرة أخرى عام 638هـ، ما أدّى إلى ثورة عارمة في البلدان الإسلامية ضد هذا العمل الشنيع. وكان عاقبة الملك الناصر داود أن تشرّد في آخر عمره ومات متشرِّدًا وضائعًا. وفي هذه الفترة من الاحتلال الصليبي الثالث للأقصى ذكر المؤرِّخون أن قبة الصخرة المشرَّفة تم تحويلها مرة أخرى إلى كنيسة وانتُهكت حرمة المسجد الأقصى المبارك حتى عربد الصليبيون في ساحاته وشربوا الخمور وأقاموا حفلات المجون في جنباته الشريفة بصفتهم قوة الاحتلال صاحبة اليد العليا في القدس.

وبقي الأمر كذلك إلى عام 643 هـ، حين قام الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر الملك العادل بن أيوب أبو الفتوح نجم الدين، الملقَّب بالملك الصالح نجم الدين أيوب، سلطان مصر، واستعان بأهل مصر وحشد جيشًا من المماليك ومن أهالي المنطقة والشام وسار إليها ففتح بيت المقدس في ذلك العام وطرد منها الصليبيين واستردّ القدس نهائيًّا وأعادها إلى حوزة المسلمين بعد أن كانت الخلافات قد ضيَّعَتها مرة أخرى بعد فتح السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى. وبهذا بقيت القدس منذ ذلك التاريخ بِيَدِ المسلمين حتى ضاعت وسقطت تحت الاحتلال الصهيوني الحالي.

وقد ذكر المؤرِّخون هذا الفتح الثاني وتناولوه بالكثير من التقدير والإعجاب حتى سمّاه المؤرخ مجير الدين

الحنبلي الفتح (النجمي) نسبة للملك الصالح نجم الدين أيوب، بعد الفتح (الصلاحي) للسلطان صلاح الدين الأيوبي. ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الخلافات التي نشأت بين أبناء البيت الأيوبي بعد وفاة السلطان الناصر صلاح الدين رحمه الله كانت مثار تشنيع وغضب الكثير من المؤرِّخين، حتى بلغ الغضب ببعضهم أيّما مبلغ، كالمؤرِّخ ابن الأثير الذي هاجم السلطان الناصر صلاح الدين شخصيًّا وحمّله تبعة ما فعله هؤلاء من بعده، وكال له الاتهامات مقارنًا إياه بالملك العادل نور الدين، وهذا ما أُخالف فيه ابن الأثير رحمه الله مخالفة تامة، إذ لا يمكن تَحميل السلطان الناصر رحمه الله جريرة ما عمل خلفاؤه من بعده، وتاريخه الوضّاء يشهد له، وعلاقته المتميزة بنور الدين زنكي رضي الله عنه ما زالت تزيِّن صفحات التاريخ، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ونعود إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فهو زوج الملكة المعروفة (شجرة الدُّرّ)، وقصة وفاته معروفة في موقعة (المنصورة) الشهيرة في مصر، التي كانت من أقسى الهزائم التي حلّت بالصليبيين في الشام. وبوفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب تولّى ابنه (تورانشاه) الحكم لفترة بسيطة، فَقُتل. وبوفاته عام 648هـ انتهى عصر الدولة الأيوبية، لتقوم من بعدها الدولة المملوكية التي حكمت في فترة تُعَدُّ أكثر الفترات تميّزًا في تاريخ القدس منذ ظهور الإسلام.

ومن أهمّ الآثار الأيوبية في المسجد الأقصى المبارك التي لا تزال باقية إلى أيامنا الحالية:

1 – القبة النَّحوية: التي أقامها الملك المعظّم عيسى في ساحة قبة الصخرة المشرَّفة، وذلك لتكون مكانًا لتدريس علم النحو في اللغة العربية.

2 – الرواق العرضي في مقدمة الجامع القبلي، وهذا الرواق ما زلنا نراه إلى أيامنا الحاضرة يزيّن مدخل الجامع القبلي، وقد بناه الملك المعظّم عيسى رحمه الله.

3 – المطْهرة، أي مكان الوضوء، وباب المطْهرة يؤدي إليها، وهي خارج المسجد الأقصى المبارك. ولكنها أيضًا مفصولة عن مدينة القدس، فهي مرتبطة مباشرة بالمسجد الأقصى المبارك، بناها الملك المعظّم عيسى.

4 – إغلاق بعض البوّابات في أيام السلطان الناصر صلاح الدين، وهي باب الرحمة، والباب المفرد والمزدوج والثلاثي.

5 – تجديد قبة المعراج، التي تُعدّ بشكلها الحالي أيوبيّة البناء، وهي قديمة، إلا أنّه تمّ ترميمها وإعادة بنائها في الفترة الأيوبيّة بشكلها الحالي.

كما أن هناك الكثير من الآثار التي لا يتَّسع المقام لذكرها في المسجد الأقصى المبارك، مثل بعض بوّابات المسجد الأقصى المبارك وغيره ذلك من الآثار الجليلة.

العصر المملوكي

يُعَدُّ العصر المملوكي بحقّ العصر الذهبي لمدينة القدس، فقد ازدهرت المدينة المقدَّسة فيه ازدهارًا قلّ نظيرُه، وازداد سكّانها، كما ازدهرت الحركة العلمية فيها ازدهارًا كبيرًا، وانتشرت المدارس والقباب والمساطب التعليمية في كل مكان، وساد الرخاء المدينة بشكل عام. والمماليك قوم أحبّوا القدس وأعطوها من وقتهم وجهدهم الكثير، والمدينة التي نراها في أيامنا الحالية معظمها يعود للعصر المملوكي. كما أن الفنون المملوكية في الزخرفة والبناء في المدينة وفي المسجد الأقصى المبارك، وخاصة في قبة الصخرة المشرّفة، كانت من أجمل ما مرّ على المدينة المقدّسة أيضًا.

امتدّ العصر المملوكي منذ عام 648 هـ إلى عام 922 هـ، أي حوالى 270 عامًا ازدهرت فيها الحركة الثقافية والعمرانية في المدينة المقدسة. ومن أفضل مَن تكلَّم وكتب عن هذه المرحلة مجير الدين العليمي رحمه الله، وذلك في كتابه المتميز: (الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل). وقد عاصر المؤلف الحكم المملوكي في أزهى أوقاته، ووصف القدس في ذلك الزمان بدقّة، كما أنه وصف أحداث ذلك العصر سنةً فسنةً حتى عام 900 هـ ،أيام الملك الأشرف قايتباي.

وإذا ذكرنا القدس والمماليك فلا بد أن نذكر أهمّ إنجازاتهم في الأقصى، فمن أفضل وأحسن إنجازاتهم في المسجد الأقصى المبارك:

- ترميم السلطان محمد بن قلاوون الصالحي رحمه الله للجامع القبلي وقبة الصخرة المشرَّفة، حيث أضاف إليهما الكثير من الزخارف المملوكية الراقية. ومن أهم تلك الآثار والزخارف، الزخارف الجميلة المضافة إلى قبة الصخرة من الداخل، مع الكتابة التأريخية للسلطان صلاح الدين والسلطان محمد بن قلاوون، وأيضًا الزخارف الجميلة داخل قبة الجامع القبلي للسلطان محمد بن قلاوون نفسه.
- إضافات السلطان الملك الأشرف قايتباي إلى المسجد الأقصى المبارك، ومن أهمّ آثاره في المسجد بناء المدرسة الأشرفية وسبيل قايتباي. وقد وُصفت المدرسة الأشرفية بأوصاف عديدة، حتى عدَّها مجير الدين العليمي الجوهرة الثالثة في المسجد الأقصى المبارك بعد قبة الصخرة المشرَّفة والجامع القبلي.

- الأوقاف الكثيرة التي أوقفها سلاطين المماليك وحكّامهم على المسجد الأقصى المبارك، ومنهم مثلاً الأشرف برسباي الذي أوقف قريتَي: (العوجا) و(النويعمة) في غور الأردن قرب أريحا على قبّة الصخرة المشرَّفة. وما تزال لوحة الوقف منحوتة عند الباب الشرقي لِقبّة الصخرة المشرَّفة. كما اشتُهر المماليك بكثرة مدافنهم في القدس، ومنها مثلاً قبر الست تركان خاتون، وبناء سرايا الست طنشق المظفرية، التي دفنت قربها، وهي الآن مدرسة تسمّى (مدرسة دار الأيتام) في القدس.

وننقل هنا ما ذكره د. ناجح بكيرات في تصنيف أهمّ أعمال المماليك وترميماتهم في الأقصى المبارك وخاصة الجامع القبلي، فيقول: (فهذا الملك المنصور سيف الدين قلاوون يستبدل جزءًا من سقف المسجد، ويُجري ابنه الملك الناصر، محمد بن قلاوون ترميمات واضحة في زخرفة القبّة ويزيِّن الجدران بالرخام)، وذلك في سنة (728 هـ - 1327 م) وقد خلّد ذلك في نقش دائري موجود في القبّة من الدّاخل جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم ، جدّدت هذه القبّة المباركة في أيّام مولانا السلطان الملك الناصر العادل المجاهد المرابط المثاغر المؤيّد المنصور، قاهر الخوارج والمتمردين محيي العدل في العالمين، سلطان الإسلام والمسلمين، ناصر الدنيا والدين، محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون الصالح تغمّده الله برحمته في شهور سنة ثمان وعشرين وسبعمائة».

ثمّ يتسلّم الراية الملك الكامل سيف الدين شعبان، ثمّ الملك الناصر، ناصر الدين حسن، ثمّ الملك الأشرف سيف الدين إينال، وهذا السلطان هو الذي قام بوضع المصحف الشريف الضخم في المسجد الأقصى، وقام بترتيب القراءة، ورتّب لذلك قارئًا وأوقف عليه أوقافًا.

وإنّنا لنجد هؤلاء الأبطال قد رمّموا معظم نواحي المسجد. فقد قاموا بإصلاح أقواس الرواق الشمالي وجدّدوا الشّرفات العلويّة وأصلحوا القبّة من الدّاخل والخارج، وكسوا سطح المسجد والقبّة بالرّصاص. وفي نهاية عصرهم قام الأشرف قانصوه الغوري 906 - 922 هـ (1051 - 1516 م) بأعمال إصلاحيّة كثيرة حيث أحكم تصفيح سطح المسجد وقبّته بالرصاص و بيّض الجدران . كما دُهنت الأبواب، ورمَّمت الأعمدة والواجهات ،ونعتقد أنّ المسجد الحالي هو المسجد نفسه الذي تركه لنا المماليك وخير شاهد على ذلك المؤرخ مجير الدين العليمي (1496م) فقد كان المسجد في زمانه يشبه إلى حد كبير المسجد الحالي) انتهى كلام د.بكيرات عن أعمال المماليك وترميماتهم.

وللمماليك أيضًا في الأقصى المبارك إلى الآن العديد من الآثار نذكر منها:

1 - باب القطّانين (وهناك بعض الأبواب الأخرى، ولكن هذا الباب هو أجملها وأتقنها بناءً، بناه بشكله الحالي السلطان محمد بن قلاوون).

2 – سبيل قايتباي، وهو أجمل سُبُل المسجد الأقصى المبارك على الإطلاق، أمر ببنائه بشكله الحالي السلطان الملك الأشرف قايتباي، وتم تجديده في العصر العثماني، لكنه بقي بشكله الأصلي إلى هذا اليوم.

3 – الرواق الغربي للمسجد الأقصى المبارك، بُني بشكله الحالي على أيدي عدة ملوك من المماليك،

4 – المدارس التي انتشرت بكثافة في محيط المسجد والمدينة المقدَّسة وما تزال إلى اليوم،

5 – وهناك الكثير غيرها من الآثار التي لا يتَّسع المجال لذكرها.

وهكذا فإننا نرى الحركة العمرانية توسَّعت بشكل كبير في أيام المماليك في القدس والمسجد الأقصى المبارك، وبقيت كذلك إلى فترة الضعف التي بدأت تعتري الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان الملك الأشرف قايتباي عام 901 هـ. وانتشرت في تلك الفترة الضرائب الكثيرة التي ضاق بها العامة بشدة حتى عام 922 هـ، عندما سلّمت القدس مفاتيح قيادتها طواعيةً للسلطان سليم العثماني مع أخواتها من مدن الشام، وبالتالي بدأ عصر جديد في المدينة المقدسة هو العصر العثماني.

العصر العثماني

بدأ العصر العثماني في القدس قبل أن تزول الدولة المملوكية، فالقدس كانت من المدن الأولى في الشام التي حكمها العثمانيون عند وصولهم إلى المنطقة.

وتميَّز العصر العثماني باستمرار حركة البناء النشيطة في القدس، كما تميَّز بظهور أنواع من التطور الاجتماعي والفني العثماني وانتشارها بكثرة في المدينة، مثل الانتشار الكبير للتكايا فيها على سبيل المثال. ومن أشهرها: تكيّة (خاصكي سلطان) التي أوقفتها (روكسيلانة) زوجة السلطان سليمان القانوني رحمه الله للفقراء، كما انتشر الطراز العثماني في البناء في القدس وخاصة في مجال بناء المساجد.

ومن أشهر الأحداث والسلاطين في العصر العثماني:

1 – السّلطان سليمان القانوني (969 هـ – 1651 م) الذي رمّم معظم المسجد الأقصى وخاصّة الجهة الجنوبيّة منه، كما قام السلطان رحمه الله بتجديد بناء سور المدينة المقدّسة وهو سور القدس الذي ما زال ظاهرًا إلى الآن، ونراه اليوم. كما قام رحمه الله بإزالة الفسيفساء عن الجدار الخارجي لقبّة الصخرة المشرّفة واستبدل بها البلاط القاشاني الأزرق الذي لانزال نراه اليوم.

2 – بعد ذلك أكمل العمَل السّلطان محمود الثّاني 1223 هـ – 1817 م والسّلطان عبد المجيد وعبد العزيز رحمهم الله.

3 – ثمّ كان في نهاية الدولة العثمانية الدّور الجليل المعروف للسّلطان عبد الحميد الثّاني 1293 هـ – 1876 م ،الذي رفض (كما يعرف الجميع) تسليم المدينة والأرض المقدسة لليهود والسماح لهم بالاستيطان في فلسطين. كما أن من آثاره الجليلة في الأقصى المبارك ما عمله في قبّة الصخرة المشرَّفة، حيث ذكر أنه كان أوّل من أعلن عن مسابقة خطيّة في الخط العربي فدعا الخطّاطين إلى الاشتراك في تقديم نماذج من خطوطهم ، واختار منهم اثنين هما: (محمد شفيق)، وهذا الخطّاط هو الذي كتب سورة (يس)، قلب القرآن الكريم، حول قبة الصخرة المشرَّفة بالخطّ الثلث، كما اختار (عبد الله الزهري) الذي قام بكتابة السورة نفسها في المسجد الحرام والمسجد النبوي.

ومن أهم الآثار العثمانية في المسجد الأقصى المبارك:

1 – القباب العثمانية، ومنها قبّة الخضر وقبّة النبي والأرواح وغيرها.

2 – الخلاوي العثمانية التي تنتشر في ساحة الصخرة المشرَّفة، والخلاوي جمع (خلوة) وهي أماكن كانت تُبنى خصوصًا لبعض العلماء والزهّاد لينقطعوا فيها ويختلوا بأنفسهم للعبادة والدراسة والتفكر.

3 – كما يوجد في المسجد العديد من الآثار العثمانية الأخرى التي لا يتّسع المقام لذكرها في هذا الكتاب المبسط.

ولا يفوتني أن أؤكد اختلافي الشديد والجوهري مع الأخ الأستاذ الكريم محمد حسن شرَّاب في كتابه (بيت المقدس والمسجد الأقصى)، الذي هاجم فيه الأستاذ الفاضل الدولة العثمانية أيّما هجوم، واتّهم العثمانيين بأنهم هم الذين سلّموا القدس للبريطانيين، وأنهم أهملوا الأقصى حتى بات في أيامهم ضائعًا. وشَنَّع عليهم قيامهم بضمّ القدس وأخذها من أيدي المماليك الذين عرف لهم التاريخ فضلهم وحبّهم للأقصى المبارك وللقدس ، حتى إن الأستاذ شرّاب سمّى هذه الفترة بالاحتلال التركي.

وأرى لزامًا هنا أن نذكّر بأن المسلمين هم أولاً أمّة واحدة، لا فضل بينهم لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.. مع أنني متأكد من أن الأستاذ شرّاب لم يقصد التعدي على مسألة القوميات أبدًا.. ولكن تلك التسمية في نظري (الاحتلال التركي) غير دقيقة بتاتًا.

لا يمكن إنكار أو تحجيم دور العثمانيين العظيم في القدس، فمسيرة الإعمار استمرت في القدس والأقصى

في العصر العثماني، ولم يتغير شيء في العصر العثماني من حيث مكانة القدس الشريف إلا في نهاية الفترة العثمانية، التي أرى أنه لا يصحّ أصلاً أن نسميها (خلافة عثمانية) لأنه من المعروف في نهاية العصر العثماني أنّ عناصر من جمعيتَي (تركيا الفتاة) و(الاتحاد والترقّي) المعروفتين بالعلمانيّة وخاصة بقيادة أشخاص مثل أتاتورك، هم الذين قوّضوا الخلافة العثمانية ودمّروها، ولا يصحّ أن نطمس أعيننا عن خمسمائة عام من العمل والخير بعشرات السنوات الحالكة التي واكبت نهاية الدولة العثمانية.

لا يشك أحد في أنه لولا موقف السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله تعالى في مسألة الأقصى ووقفته الصارمة في وجه الأطماع الصهيونية لضاعت القدس وضاع الأقصى منذ بداية القرن العشرين وصار في أيدي اليهود، ولقام ثيودور هرتزل بتدمير المعالم الإسلامية كلها في القدس كما وعد، وأمّا عزو هذا الموقف الصارم (كما يرى الأستاذ شرّاب) إلى مجرد نزعة تملّك تركية فهو غير منطقي! لأنّ الدولة العثمانية على امتداد حكمها لم يتبيّن منها أي نزعة تركية أبدًا إلا عندما تولّت جمعية الاتحاد والترقّي الحكم، بل إن اللغة العربية بقيت هي السائدة في الأقصى والقدس وهي اللغة التي تمّ بها تأريخ أعمال الترميم في الأقصى كافة، ويستثنى من ذلك بالتأكيد محاولات جماعة الاتحاد والترقي في نهاية الفترة العثمانية تتريك العرب، وهذا ليس من الخلافة العثمانية في شيء ولا يمتّ لسلاطين العثمانيين بصِلة.

وأمّا كلام الأستاذ واتهامه للعثمانيين بأنهم (احتلّوا) القدس من المماليك من دون أيّ داعٍ إلا رغبات التملّك فهو قول مردود، حيث إنه من المعروف أن سكان المدينة هم الذين استقبلوا الجيوش العثمانية وسلّموها مفاتيح المدينة والمسجد، وما كان ذلك إلا بسبب تفشّي الضرائب بشكل كبير أثقل كاهل الناس بعد وفاة الملك الأشرف قايتباي رحمه الله، حين دبّ الضعف في خلفائه من الملوك حتى انتهت الدولة المملوكية. إذن كان ذلك نتيجة الضعف في الدولة المملوكية وليس لسبب آخر.

وقد بقي الأمر في القدس الشريف على ما هو عليه من استقرار وهدوء حتى بداية الانحدار في الدولة العثمانية، الأمر الذي أثّر سلبًا بالطبع في الحركة العلمية في القدس كما أثر في باقي أنحاء الدولة. وبالتالي يتبيّن أنّ اتهامات الأستاذ شرّاب للعثمانيين غير دقيقة، والله عزّ وجلّ يقول في محكم التنزيل:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة المائدة: 8].

الاحتلال البريطاني ودور المجلس الإسلامي الأعلى

وهكذا، شاء الله لهذه المدينة المقدّسة ومسجدها الأقصى أن يقعا تحت الاحتلال مرة أخرى على أيدي البريطانيين، الذين دخلوا المدينة المقدسة محتلّين عام 1917 م، وذلك بقيادة الجنرال (اللنّبي) الذي من

العجيب ما ذُكِرَ عنه عند دخوله المدينة المقدّسة محتلاً غازيًا، مذكّرًا بالهدف الأساسي لحربه.. فقد قال خلال أول خطاب له أمام بوابة قلعة داود مقولته الشهيرة: «الآن انتهت الحروب الصليبية.»

إلا أنّ هذا العصر (عصر الاحتلال البريطاني) شهد في الوقت نفسه قيام (المجلس الإسلامي الأعلى) بقيادة الحاج (أمين الحسيني) رحمه الله تعالى.

جنود الاحتلال البريطاني في القدس

وُلد الحاج أمين الحسيني في نهاية القرن التاسع عشر، عام 1897م، وفي العام نفسه عُقد المؤتمر الصهيوني الأول، والذي تقرر فيه تأسيس الحركة الصهيونية وتأسيس وطن قوميّ لليهود، وتمّ اختيار فلسطين لتكون مكانًا لهذا الوطن المزعوم. فما إن فتح الحاج عينيه على الدنيا حتى وجد المؤامرات تحاك للأرض المقدسة من كل العالم. وتلقّى الحاج أمين تعليمه في القدس وتعلّم الكثير من العلوم الشرعية والدنيوية وتعلّم أصول اللغة العربية والفرنسية وغيرهما. وأدّى فريضة الحج عندما كان عمره لا يتجاوز 16 عامًا، فعُرف منذ ذلك اليوم بلقب (الحاج أمين)، كما تعلّم العلوم العسكرية في الكليات العسكرية العثمانية في إسطنبول. وما إن عاد إلى القدس حتى بدأت مؤامرة الاحتلال البريطاني لفلسطين، التي هدفت منذ اليوم الأول إلى تسليم فلسطين للحركة الصهيونية العالمية.

تولّى الحاج أمين الحسيني منصب مفتي القدس في سنٍّ صغيرة نسبيًّا لا تتجاوز 25 عامًا، وكانت باكورة أعماله في ذلك المنصب تشكيل المجلس الإسلامي الأعلى ليشرف على الشؤون المتعلقة بالأقصى والمقدسات الإسلامية في فلسطين كافّة، وكانت أهمّ الأعمال التي قام بها المجلس في بداية تأسيسه وأكبرها. إعلانه عن إجراء عملية ترميم واسعة للمسجد الأقصى المبارك، حيث كان الجامع القبلي قد تصدّع بفعل عوامل الزمن. وكذلك كانت قبة الصخرة المشرَّفة تحتاج إلى أعمال صيانة كثيرة، فبدأ العمل بالترميم عام 1923م بعد جولة في العالم الإسلامي تمّ خلالها جمع التبرعات من المسلمين لترميم الأقصى، وتولّى كمال الدّين بك مسؤولية العمارة، وقام بتأليف

لجنة من المهندسين ووُضعت التصميمات الدّقيقة للترميم الكامل لمبنى الجامع القبلي، واقتضت خطة الترميم تدعيم قبة الجامع القبلي التي أصابها التلف بشكل كبير، وتمّ تجديدها مع نوافذها وجميع نوافذ الجامع. ولكن ما إن انتهى الترميم حتى فوجئ المسلمون بزلزال شديد في القدس عام 1927 م، وقدّر المهندسون يومها أنه لولا الترميم الذي تمّ عام 1923 م لسقط مبنى الجامع القبلي نهائيًّا!

وتتابع حدوث زلازل صدّعت مبنى الجامع القبلي مرة أخرى فأصبح معرَّضًا للانهيار. فبدأ الحاج أمين بعملية الترميم الثانية للأقصى المبارك بعد هذه الزلازل، وكان بدء العمل في هذا الترميم عام 1938 م وانتهاء العمل عام 1943 م، وفي هذه الفترة بدأت مطاردة الحاج أمين الحسيني ورحلة عذابه الطويلة التي لم تنتهِ حتى وفاته رحمه الله تعالى. ففي الوقت نفسه الذي كان الحاج أمين يقف على رأس العمل على إصلاح المسجد الأقصى المبارك وتعميره والمباني الجليلة التي تنتشر فيه وعلى رأسها الجامع القبلي وقبّة الصخرة، كان الحاج يعمل على قيادة الثورات المتعاقبة ضد القوّات البريطانية والعصابات الصهيونية التي بدأت تنتشر في فلسطين. فكان يعمل على قيادة الثورات سياسيًّا ويقف في وجه السلطات البريطانية ويسهل وييسّر استيراد الأسلحة لدعم المقاومين سرًّا.

من هنا بدأت عمليات المطاردة منذ فترة مبكرة، فكان أوّلها عام 1920 م قبل أن يصبح الحسيني مفتي القدس، فهرب إلى سوريا، ثم عاد تحت الضغط الشعبي على السلطات البريطانية التي اضطرت للسماح له بالعودة وتولّي منصب المفتي. وكان يقود الثورات من قلب المسجد الأقصى المبارك، حتى قامت الثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936 م. وكان في تلك الفترة يُعتبر ألدّ أعداء الحركة الصهيونية، وكان هو الذي رفض قرارات التقسيم المختلفة لفلسطين، حتى حاول الصهاينة قتله أكثر من مرة ودعوا إلى التخلص منه رحمه الله. وبقي على جهاده حتى بعد أن أُخرج من فلسطين إلى أن توفي رحمه الله ودُفن في لبنان عام 1974 م. ويكفيه أنه بعد وفاته نشرت إحدى الصحف البريطانية مقالاً بعنوان: «مات عدوّ الصهيونية والإمبراطورية البريطانية»، وقال عنه أحد زعماء الحركة الصهيونية: «كان يمكن أن تقوم دولة إسرائيل خلال 10 سنوات أو 15 سنة منذ بدء مشروع إقامتها، ولكن أمين الحسيني جعل هذا الأمر يحتاج إلى عشرات السنين.»

وهنا من المفيد أن نضيف أنّ من أشهر الذين أرّخوا لهذه الفترة الأستاذ عارف العارف الذي ننصح بقراءة كتابه (المفصَّل في تاريخ القدس) مع التنبيه إلى وجود إشكاليّات تاريخية في كتابه بسبب عدم التأكد من صحة بعض الموادّ التاريخية المذكورة فيه، إلا أنّه يُعَدّ كتابًا توثيقيًّا هامًّا لتاريخ مدينة القدس والمسجد الأقصى المبارك في فترة الاحتلال البريطاني بالذات لأن الرجل عاش في تلك الفترة.

الحكم والترميم الأردني

وهنا بدأت بوادر احتلال جديد وغزو آخر من نوع مختلف..!! إنّه الغزو الصهيوني الذي مهّد له البريطانيون أفضل تمهيد وأحسنه لاحتلال المدينة المقدّسة، حتى سلّموا اليهود البلاد والعباد عام 1948 م، وانتهى في هذه السنة الاحتلال إلى أسوار القدس ، التي شاء الله أن يقيّض لها رجالاً يذكرهم التاريخ بعزة وشموخ، ومنهم القائد (عبدالله التل) رحمه الله من أركان الجيش الأردني في حرب عام 1948 م، الذي استسلمت على يديه الحامية الصهيونية التي كانت في البلدة القديمة بالقدس، والتي هُزمت على يديه رحمه الله برغم قلّة الموارد والإمكانيّات. ووقّع قائدها موشيه روزنك اتفاق استسلام مع القائد عبد الله التل تضمّن أخذ جميع المحاربين الصهاينة أسرى حرب والسماح للنساء والأطفال والضعفاء من اليهود بالخروج من البلدة القديمة وحماية أرواحهم جميعًا، وهذا هو قمّة أخلاق الحرب التي تأمر بها المصادر الإسلامية الأساسية ويذكرها تاريخ المسلمين دائمًا.

وبذلك تمّت المحافظة على القسم الشرقي من القدس على أيدي الجنود الأردنيين بعد سقوط القسم الغربي عقب استشهاد القائد عبد القادر الحسيني رحمه الله في معركة القسطل الشهيرة. وتمّ ضمّ المدينة المقدَّسة ومن ضمنها المسجد الأقصى المبارك إلى شرق الأردن ليبدأ فيها الحكم الأردني الذي استمرّ 19 سنة، 1948 م – 1976 م، وكان هناك عدة ترميمات أردنية في المسجد الأقصى المبارك خلال تلك الفترة، أهمّها في قبّة الصخرة المشرَّفة عندما أمر الملك عبد الله الأوّل بتغيير الكسوة الرصاصية للقبّة وكسوتها مرة أخرى بالنحاس المصفَّر المُذَهَّب لتعود ذهبيّة كما كانت في العهد الأموي. وقد عاد لها رونقها وبهاؤها، وتم إجراء ترميمات أخرى في الجامع القبلي، وهو ما حمى المسجد الأقصى المبارك بعد ذلك – بحمد الله – من الكثير من الأخطار وبخاصة أخطار الحفريات من أن تهدّده طوال الفترة الماضية والحمد لله رب العالمين.

الاحتلال الصهيوني

في وقت اشتدت الخطوب والمِحَن.. فَقَدَت الأمّة ذاكرتها في لحظة من الزمان.. فضاعت القدس.. وأذِنَ الله بأن تبدأ الأمّة امتحانًا شديدًا لاسترداد البيت المقدَّس مرة أخرى كما كان الامتحان الأول أيام الصليبيين. ولكنه هذه المرة أشدّ وأقسى وأصعب، فالمرارة كبيرة والذل صعب، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

دخل الصهاينة المدينة المقدّسة يوم 7/6/1967 م، بزعامة موشيه دايان وزير الدفاع الإسرائيلي يومها، وأحد كبار قادته،

جنود الاحتلال في الأقصى 1967م
(المصدر: الشبكة الدولية)

موشيه دايان وإسحق رابين في القدس 1967م
(المصدر: الشبكة الدولية)

إسحق رابين. وعندما دخل الجنود الصهاينة منطقة المسجد الأقصى المبارك كانوا يتصايحون: (جبل المعبد بأيدينا). ومما نُقل عنهم في الإذاعة العبرية أن بعضهم قام ونفخ الشوفار (المزمار اليهودي) في المسجد الأقصى المبارك إيذانًا بـ(عودة) اليهود إلى القدس، وإيذانًا باحتلال المدينة المقدَّسة والمسجد الأقصى المبارك بالذات. بل إنهم قاموا برفع عَلَمهم فوق قبّة الصخرة المشرَّفة، وبقي الأقصى مغلقًا على أيدي هؤلاء أسبوعًا، حتى قامت قوات الاحتلال الصهيوني بتسليم المسجد لدائرة الأوقاف الإسلامية الأردنية مرة أخرى خوفًا من ردّة الفعل الإسلامية، وعملاً بنصيحة الحاخام: (زيرح فارحارتك) وزير الأديان الإسرائيلي آنذاك لأسباب تتعلق بتفسيرات خاصة بالنصوص اليهودية المقدّسة، كما تمّ تدمير حارة المغاربة بالكامل وتسويتها بالأرض لتصبح ساحة للمبكى كما يسمّونها.

وخلال فترة الاحتلال الصهيوني للمدينة المقدّسة تعرّض المسجد الأقصى المبارك لأبشع أشكال الإهانة والاعتداء، لعل أبشعها كان المجازر الثلاث التي ارتكبها الصهاينة على أرضه الطاهرة. ففي مجزرة الأقصى الأولى بتاريخ 8/10/1990 م سقط 17 شهيدًا في أروقة المسجد، وفي المجزرة الثانية التي تسمّى معركة النفق بتاريخ 24/9/1996 م سقط في الأقصى المبارك 3 شهداء، وارتفع العدد في مجزرة الأقصى الثالثة بتاريخ 29/9/2000 م ليسقط 5 شهداء على الأرض الطاهرة المقدّسة.

ولا تُعَدّ هذه المجازر الوحيدة على أرض الأقصى المبارك، فقد هاجم الصهاينة المسجد واعتدوا على المصلّين أكثر من مرة، كان منها على سبيل المثال اعتداء (ألان جودمان) على قبّة الصخرة المشرَّفة، والذي خلَّف شهيدين أحدهما من حرّاس المسجد الأقصى المبارك يوم 11/4/1982 م، وكُشِفَت مئات المحاولات لتدمير المسجد وتدنيسه.

ولعلّ أحد أهمّ الأحداث المؤلمة التي مرّت على المسجد الأقصى المبارك جريمة الحريق المشؤوم يوم 29/8/1969 التي ارتكبها اليهودي الأسترالي المتطرف (دينيس مايكل روهان)، والتي أتت على منبر نور الدين محمود زنكي رحمه الله تعالى، المنبر الذي كان موجودًا في الجامع القبلي. ولم يبقَ من هذا المنبر إلا قطعة واحدة هي بوّابة المنبر وما تزال موجودة في المتحف الإسلامي بالمسجد الأقصى المبارك (انظر الصورة المقابلة). وتمّ مؤخّرًا بناء منبر مطابق للمنبر الأصلي ووُضِع في مكانه بالجامع القبلي.

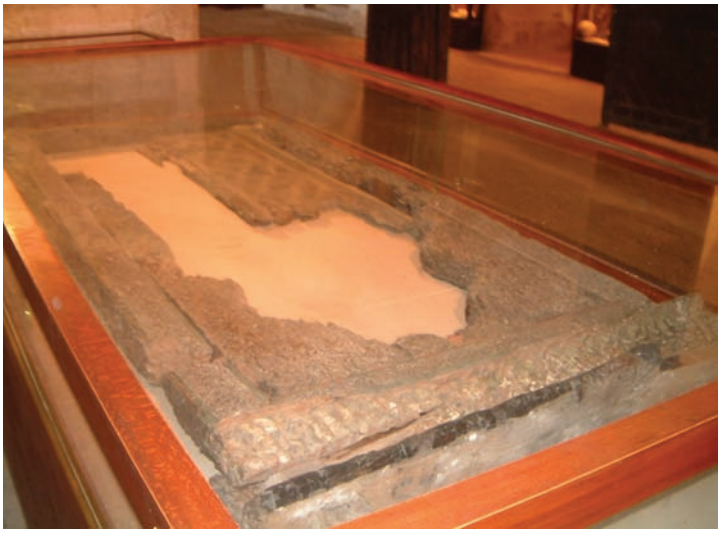

ما بقي من منبر نور الدين زنكي، البوّابة فقط، في المتحف الإسلامي بالأقصى (تصوير المؤلف)

ولا يتوقف الأمر عند الحفريّات التي تُجريها سلطات الاحتلال في محيط أسوار المسجد الأقصى المبارك بالكامل وتحته، فالحفريات لا تقع (كما يتخيّل البعض) تحت الجامع القبلي فقط، بل إنها تمتد في كل مكان تحت كامل مساحة المسجد الأقصى المبارك وتحت كامل أسواره الجليلة في محاولة لمسح معالمه بالكامل عن وجه الأرض إن استطاع الإحتلال إلى ذلك سبيلاً.

الترميمات في عصر الاحتلال الصهيوني

استمرّت الترميمات – رغم صعوبتها الشديدة – في المسجد الأقصى المبارك رغم الأحداث المتعاقبة والاعتداءات المتوالية من سلطات الاحتلال الصهيوني على المنطقة المقدسة. وكانت هذه الترميمات والتصليحات والتطويرات تتمّ بأيدي أبناء مدينة القدس وبعض الجمعيات واللجان الخيرية تارة، وبأيدي بعض الحكومات العربية والإسلامية تارة أخرى.

ومن أهم التطورات التي طرأت على المسجد الأقصى المبارك من حيث الترميم:

– ترميم المسجد الأقصى المبارك من آثار الدمار وترميم الجامع القبلي من آثار الحريق الآثم عام 1969م، وكان ذلك على يد دائرة الأوقاف التابعة للحكومة الأردنية.

- ترميم قبّة الصخرة المشرَّفة وتغيير كسوتها المُذَهَّبَة وفرْشها بالسجاد الفاخر على يدي الملك الحسين بن طلال ملك الأردن، وتمّ ذلك عام 1995 م.
- ترميم المصلّى المرواني وافتتاحه للصلاة رسميًّا لأول مرة في التاريخ، وذلك على يد كلٍّ من مؤسسة الأقصى في مدينة أم الفحم (وتسمّى أيضًا أم النور) داخل الخط الأخضر، ولجنة التراث الإسلامي في القدس، ودائرة الأوقاف الإسلامية الأردنية في القدس، وتم ذلك عام 1996 م. ثم تبرّعت مصر بفرش المصلّى المرواني.
- ترميم الممرّ الأموي تحت الجامع القبلي وافتتاحه، والذي يسمّى (الأقصى القديم) عام 1999 م على أيدي الجهات نفسها التي ذكرناها سابقًا، وتمّ فرش هذا المكان على أيدي بعض المحسنين من تركيا.
- فرش الجامع القبلي وإصلاح أرضيّته بالتعاون بين الجهات الثلاث نفسها، وكان ذلك عام 2000 م وتمّ على نفقة الشيخ د. سلطان بن محمد القاسمي أمير إمارة الشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة.
- افتتاح البوّابات المروانية العملاقة التي كانت مطمورة تحت الأرض في المنطقة الجنوبية الشرقية من المسجد الأقصى المبارك، وإنشاء ساحة حديثة جميلة البناء سمّيت (الساحة الشرقية) وذلك على أيدي الجهات نفسها، وتمّت إضاءة المكان على نفقة دولة الإمارات العربية المتحدة ممثَّلة بهيئة الهلال الأحمر.

وهكذا نرى أنّ أهمّ الترميمات والتصليحات في المسجد الأقصى المبارك لا تتمّ إلا بتضافر جهود المسلمين واجتماع كلمتهم، وفي ذلك عبرة وآية على الطريق.. لعل المؤمنين يوحّدون كلمتهم ويقومون للمهمة العظمى والغاية الأسمى، تحرير البيت المقدّس.

إلى هنا نتوقف في دراسة تاريخ المدينة المقدّسة، حيث يتوقف الأمر لدينا عند احتلال المدينة المقدسة، بانتظار الجيل القادم بإذن الله تعالى لتحريرها من براثن الاحتلال. ولعلك تجد في هذه الأسطر اختصارًا قد تظنّه شديدًا ، ولكننا تركنا الكثير من الأحداث والخطوب، لأجل الاختصار في المادة المبسّطة لهذا الكتاب، ولكي لا نخرج عن المادة العلمية التاريخية الخاصة. ولعل الأمر يحتاج إلى مجلَّدات لشرح ما حدث في الأقصى منذ تلك اللحظة إلى الآن. لذلك نترك المجال للقرّاء للبحث والتنقيب عن أحداث الأقصى المبارك، لعل الله تعالى ييسّر التوسع في هذا الأمر بإذنه تعالى في مجال آخر، ونتوقف هنا لننتقل إلى القسم الأخير من المحاور النظرية لدراسة المسجد الأقصى المبارك، وهو محور (الأقصى عند غير المسلمين).

3

المحور الثالث

الأقصى عند غير المسلمين

تمهيد:

أنهينا في ما سبق الحديث عن المحور الثاني في دراسة المسجد الأقصى المبارك وهو محور التاريخ، ونتحدث في هذا القسم عن المحور الثالث والأخير في هذا الكتاب، وهو محور (الأقصى عند غير المسلمين)، فنتعرّف حقيقة نظرة المصادر اليهودية والنصرانية في أيامنا الحالية إلى الأقصى المبارك ومدينة القدس وأهميّتها في عقيدتهم.

ولا يفوتنا التنبيه هنا إلى أننا ننقل في هذه الحلقة عن المصادر التوراتية وصْفَها للمسجد وعقيدَتَها فيه، ولا يعني ذكرنا مبادئ عقيدة أهل الكتاب هنا أننا نوافقهم في هذه العقيدة أو النظرة، بل إننا نؤمن كمسلمين أن الأمّة الإسلامية الخاتمة هي وارثة الحضارات والديانات، وهي الأمّة التي تحمل الدين الحق ومشعل الهداية للبشرية، وقد قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67]. ولكن من المهم للباحثين المهتمّين بالمسجد الأقصى المبارك ودراسته أن يكونوا على إحاطة تامة بحقيقة نظرة أتباع الديانتين اليهودية والنصرانية إليه، وذلك مقدمة طبيعية لا غنى عنها للفهم الصحيح لطبيعة الصراع على هذا المكان المقدّس. وسنبدأ بالحديث عن نظرة اليهود إلى المسجد والمدينة المقدّسة بشكل عامّ وعقيدتهم فيها وفي المعبد المقدّس، ثم نبسط الحديث عن النصارى وعقيدتهم في المسجد الأقصى المبارك باختصار.

اليهود والقدس

يعتبر اليهودُ أنفسَهم المالكين الوارثين لمدينة القدس باعتبارها أقدس البقاع على وجه الأرض في نظرهم، ويعتبرونها عاصمة ملكهم إلى الأبد، باعتبار أن المسيرة الأولى التي بدأها موسى عليه الصلاة والسلام ببني إسرائيل كانت باتجاه القدس كعاصمة، بدليل أن داود حين دخلها اتخذها عاصمة مُلْكه. وهم يُرجعون نَسَبَهم الأول إلى القدس إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام ومن بعده إسحق ويعقوب عليهما الصلاة والسلام، فيعتقدون أن إبراهيم عليه السلام عندما دخل الأرض المقّدسة بعد خروجه من العراق وبعد دخوله القدس ولقائه مَلِكها اليبوسي المعروف (ملكي صادق)، وقد ذكرت التوراة نص هذا العهد (في نظرهم) فقالت: (**في ذلك اليوم قطع الربّ مع أبرام «إبراهيم» عهدًا قال: لنَسْلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات، وهي أرض القينيين والقنزيين والقدوميين والحثيين والفرزيين والرفائيين**

والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين) (التكوين 15: 18–21). ونلاحظ ذكر القدس صراحة في هذا النص في آخر الأراضي المزعومة بذلك العهد، وهي أرض اليبّوسيين! والملاحظ أيضًا أن هذا النص جاء مباشرة قبل الحديث في التوراة عن ولادة إسماعيل عليه السلام، (الذي وُلِدَ قبل إسحق عليه السلام بفترة طويلة). ومع ذلك فإن اليهود يُسقطون هذا النص على أبناء إسحق عليه السلام من دون إسماعيل عليه السلام! مع أن المفروض – جدلاً – أن يكون المولود الأول هو النسل الأول الذي ينطبق عليه هذا الوعد المزعوم! ومن الواضح أن مغالطات التوراة في هذه الناحية كثيرة.

من هنا تبدأ علاقة اليهود الدينية بأرض مدينة القدس مع أنها آخر الأراضي ذِكْرًا في ذلك الوعد، ومع أنها أصلاً لم تكن لليهود ولم يسكنها إبراهيم عليه السلام، وإنما سكن (حبرون) وتوفي فيها كما تقول التوراة (وهي مدينة الخليل اليوم). وأما دخول القدس وتعيينها عاصمة للشعب اليهودي فقد جاءت متأخرة جدًّا في المصادر التوراتية كما سيتبين معنا بعد قليل، وكانت على يدي داود عليه السلام.

فبينما كان الحديث عن علاقة اليهود (بالوعد المزعوم) بالقدس في سِفْر التكوين، فإن دخول القدس على يدي داود عليه السلام أتى الحديث عنه في سِفْر صموئيل الثاني، الإصحاح 5، وبين ذلك لم يتمّ ذكر القدس إلا قليلاً.

ومن المهمّ أن نعرف أن القصة التي تناقلها الكثير من المؤرِّخين المسلمين حول علاقة سيدنا يعقوب عليه السلام بمدينة القدس في التوراة، غير دقيقة. وتروي القصة التي تناقلها للأسف الكثير من المؤرِّخين المسلمين نقلاً عن التوراة وأسسوا عليها علاقة يعقوب عليه السلام بالقدس أنه رأى سلّمًا من نور يبلغ السماء والملائكة تصعده وتهبط عليه عندما فرّ من أخيه (عيسو) كما ذكرت التوراة (انظر سفر التكوين 28: 10–22). ولكن الواضح من سياق الكلام في التوراة أن الحديث ليس عن القدس، لأن التوراة تذكر أن يعقوب عليه السلام سمّى ذلك الموضع بيت إيل (وكانت المدينة من قبل تسمى لَوز) والقدس في تلك الأيام كانت تسمّى (يبوس) وليست لوز، والتوراة تسمّي القدس في هذه الفترة (أورشليم) عندما تتحدث عن لقاء إبراهيم عليه السلام ملكي صادق، كما أن اليهود في أيامنا الحاليّة أيضًا يعتبرون أن (بيت إيل) المذكورة في التوراة ليست هي القدس وإنما هي مدينة (رام الله). فمعنى كلمة (بيت إيل) في العبرية (بيت الله) وكلمة (رام الله) هي كلمة آراميّة الأصل، وكلمة (رام) في اللغة الآرامية تعني (بيت الرب)، ولذلك فإن معنى اسمها الأصلي أيضًا (بيت الله)، ولذلك فإن المستوطنة الصهيونية الملاصقة لرام الله اليوم من الجهة الشمالية تسمى (بيت إيل)، كذلك فإن اسم (مريم) على سبيل المثال يعني باللغة الآرامية (خادمة بيت الرب).

إذن فالقدس لا تكاد تذكر في التوراة بين إبراهيم عليه السلام وداود عليه السلام إلا قليلاً جدًّا، وبالنسبة

إلى داود عليه السلام فإن التوراة تذكر أنه دخل القدس فاتحًا بعد فترة طويلة من دخول اليهود الأرض المقدسة. وقبل ذلك تذكر التوراة أنه كان يحكم حبرون، وبالتالي فإن علاقة اليهود بمدينة الخليل يعدّونها في عقيدتهم قويّة جدًّا وأقدم من علاقتهم بالقدس، لأن مدينة الخليل أو (حبرون) هي مدفن إبراهيم عليه السلام وهي ملك داود عليه السلام قبل احتلال القدس (وهو ما يفسّر لنا إصرار اليهود اليوم على الوجود في الخليل بالذات دون أي منطقة أخرى في الضفة ومهما كان الثمن). ويأتي دخول مدينة (أورشليم) عند اليهود في التوراة في فترة متأخرة من دخولهم الأرض المقدسة. وذلك على يدي (داود) عليه السلام، الذي لا يعترف اليهود بنبوّته لا هو ولا ابنه سليمان عليهما السلام، بل يعترفون فقط بأنهما مجرّد مَلِكَين عظيمين من ملوك اليهود وليسا من الأنبياء. وفي الحقيقة فإن هذا المنطق يثير الكثير من التساؤلات في قضية علاقة اليهود بما يسمّى (المعبد) الذي تزعم التوراة أن بانيه هو (الملك سليمان) الذي هو في نظرها ليس نبيًّا. إذن فعلاقة اليهود بالقدس بناءً على توراتهم مستحدثة عمومًا، وليست راسخة قديمة. ويأتي ذلك بعد حوالى 403 سنوات من دخولهم الأرض المقدسة، وبيان ذلك:

أن التوراة تذكر أن سليمان عليه السلام بدأ ببناء المعبد المقدّس (ما يسمّيه البعض اليوم الهيكل) في بداية مُلْكه وفي السنة الرابعة، وتذكر أنّ داود عليه السلام الذي ملك القدس قد حكم أربعين سنة، منها ثلاث وثلاثون سنة في القدس وسبع قبلها في حبرون (الخليل)، فيكون مجموع السنوات منذ دخول القدس إلى بناء المعبد المقدس سبعًا وثلاثين سنة. وإذا علمنا أن التوراة تذكر (في سفر الملوك الأول كما سيتبيّن في البند التالي) أن البدء ببناء المعبد المقدس كان في السنة الأربعمائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر، وإذا علمنا أيضًا أن مدة تيه بني إسرائيل قبل دخولهم الأرض المقدسة كانت أربعين عامًا، فبحسبة بسيطة نجد:

480 (منذ الخروج) – 40 (التيه) = 440 – 37 (حكم داود إلى بناء المعبد) = 403 سنوات منذ دخول الأرض المقدسة حسب رواية التوراة، انظر المخطط التالي:

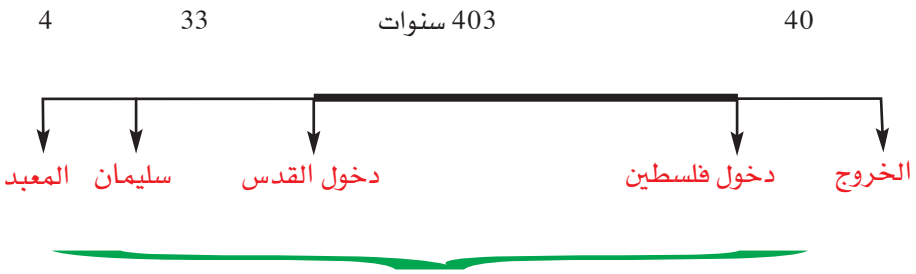

المدّة كاملة: 480 سنة

ولا شك في أن هذه الفترة، بناءً على رواية التوراة المحرَّفة، طويلة جدًّا بشكل كافٍ للحكم على علاقة اليهود الضعيفة بالقدس حتى عند كونهم الأمّة المسلمة في الأرض، وحتى عند كون خروج موسى عليه السلام بهم من مصر لتحرير الأرض المقدّسة كأحد أهمّ الأسباب الهامّة لرسالته عليه السلام كما ذكرنا سابقًا. فإنهم تأخروا في دخول القدس حسب روايتهم هم أكثر من أربعمائة عام. فأين كانت حينها قيمة القدس ومكانتها في قلوب اليهود كما يزعمون؟

ماذا بالنسبة إلى الأقصى؟

ربما يُفاجأ الكثيرون حين نذكر لهم أنه لا يوجد لدى اليهود في عقيدتهم ولغتهم وكتبهم شيء اسمه (هيكل)! ولا يعرفون هذه الكلمة، وإنما هم يؤمنون بشيء اسمه (بيت هاميكداش) وباللغة العبرية تكتب: (בית המקדש) ومعنى هذه الكلمة الحرفي هو: (بيت المَقدِس)! وهو الاسم المعروف لدينا في أحاديث النبي عليه السلام لوصف المسجد الأقصى المبارك..!!

وأما كلمة (هيكل) فقد جاءت عن طريق الترجمة من اللغة الإنجليزية، حيث إن اللغة الإنجليزية لم تستطع أن تترجم كلمة (בית המקדש) العبرية حرفيًّا فترجمتها إلى (Temple) أي (معبد)، ولكنها نُقلت إلى اللغة العربية بنص (هيكل) لأنه أقرب معنى تدلّ عليه كلمة Temple، وهكذا دخلت كلمة (الهيكل) لغتنا..!! وهو خطأ في الاستدلال واستقصاء المعلومة، وهنا أحب أن أنبّه إلى أهمية أنه يجب علينا كمسلمين مستقصين للحقيقة الموضوعية أن ننقل المعلومة دائمًا من المصدر الأصلي لها، ولم ولن نعجز عن ذلك بإذن الله رب العالمين. ولذلك فإننا نميل إلى استخدام كلمة (معبد) أكثر من كلمة (هيكل)، ولكننا لا نرى من الخطأ ذكر كلمة (هيكل) بالطبع بصفتها تعبيرًا ساد وانتشر استخدامه، وإنما نبحث دائمًا عن الأصوب والأصحّ علميًّا، وهو الأصل في الباحث في أيٍّ من العلوم لا سيما عند دراسة المسجد الأقصى المبارك.

اقرأ النص التالي لتعريف أصل كلمة Temple . ومصدر هذا النص هو عدة مواقع خاصة بالتعريفات الحقيقية للمصطلحات، ومنها موقع Fact Index وموقع Exodus 2006 وغيرها:

The word **Temple** is derived not from the Hebrew but from the Latin word for place of worship, templum. The name given in Scripture for the building was Beit Yahweh or "House of Yahweh" (although this name was also often used for other temples, or metaphorically). Because of the prohibition against pronouncing the holy name, the common Hebrew name for the Temple is Beit ha-Mikdash or "The Holy House", and only the Temple in Jerusalem is referred to by this name.

الترجمة: (إن كلمة (هيكل) لم تُنقل من اللغة العبرية وإنما من الكلمة اللاتينية Templum التي تعني مكان العبادة، وقد أعطي هذا الاسم في الكتاب المقدس للمبنى الذي كان يسمّى «بيت يهوه» (مع أن هذا الاسم كان أيضًا في العادة يطلق على هياكل أخرى مجازيًّا). وبسبب الحظر المفروض على التلفظ بالاسم المقدس، فإن الاسم الشائع للهيكل باللغة العبرية هو «بيت المقدس»، والهيكل الموجود في القدس فقط هو الذي يسمى بهذا الاسم). انتهت الترجمة. أي أن الاسم الأصلي للمعبد عند اليهود هو (بيت يهوه) أو (بيت الرب) و(يهوه) هو إله اليهود الخاص المعروف عندهم، وسمّي المعبد لدى اليهود باسم (بيت المقدس) بدلاً من تسميته (بيت يهوه)،وهذا النص يدلّنا بوضوح على أصل كلمة (Temple) التي ترجمت عنها للغة العربية كلمة (هيكل).

يؤمن اليهود بأنّ سيّدنا سليمان عليه السلام أراد أن يبني بيتًا للرب بعد أن مات أبوه داود عليه السلام من دون أن يتمكن من بناء ذلك المعبد طبقًا لنبوءة ناثان النبي التي قالها لداود عليه السلام: (**وإذا انتهت أيامك ورقدتَ مع آبائك، أقمت خَلَفًا لك من نسلك الذي يخرج من صلبك وثبَّتَّ ملكه، فهو يبني بيتًا لاسْمي وأنا أُثبِّتُ عرْشَه إلى الأبد**) صموئيل الثاني 7–12–13.

فقام سليمان عليه السلام وبنى بيت الرب. وتذكر التوراة أنّ المعبد قد بدأ بناؤه (في السنة الأربعمئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة من ملك سليمان على إسرائيل) الملوك الأول 6 1. واستمرّ البناء فيه سبع سنين، وتذكر التوراة أوصافًا كثيرة وتوصيفًا كاملاً لأبعاد المعبد وأطواله وأقسامه، وخاصة (قدس الأقداس)، وهو المكان الأقدس لدى اليهود.

ومن الملاحظ أن التوراة ذكرت بناء المعبد مرّتين، فذكرت أن المعبد الذي أقامه سليمان عليه السلام كان في جبل المُرَيَّا (أي هضبة موريا) في بيدر أرنان اليبوسي وذلك في سفر أخبار الأيام الثاني 3 1، ولكنها لم تذكر ذلك المكان في سفر الملوك الأول حيث الحديث عن بناء المعبد.

على أننا يجب أن ننتبه إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الواضح الصريح في مسند الإمام النَّسائي: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُد ـ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خلالاً ثَلاثًا: سَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ أَنْ لا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لا يَنْهَزُهُ إلا الصَّلاةُ فِيهِ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ (رواه ابن ماجه أيضًا). ومن هنا فإننا نقول:

لا نشكّ أبدًا في أن سيدنا سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قد أعاد بناء المسجد الأقصى المبارك وشيّده بناء تجديد وترميم من جديد، وبناه بهيئة عظيمة تتناسب وعظمة ملكه المبارك ونبوّته الشريفة، وهذا

ما لا نشكّ فيه لأنه جاء من نبينا صلى الله عليه وسلم، أمّا الخلاف بيننا وبين هؤلاء فهو في ماهية المكان الذي بناه سليمان عليه السلام، هل هو (مسجد)؟ أم (معبد ليهوه إله اليهود الخاص المزعوم)؟؟!!! والواقع أننا نحترم سليمان عليه السلام أكثر من اليهود الذين يقدّسونه كمَلِك ولا يعترفون له حتى بالنبوة. أما نحن فنؤمن بأنه عليه السلام قد بنى الأقصى المبارك على هيئة حسنة عظيمة جليلة. كما أننا نؤمن أن بناءه عليه السلام للأقصى كان بناء ترميم وتجديد، لا بناء استحداث وابتداء. وعليه فإن قول اليهود مردود عليهم، وسليمان منّا لا منهم، نحن أَوْلى وأحقّ به منهم، ويكفيهم أن توراتهم المحرّفة لم تذكر شيئًا عن مكان ذلك الهيكل المزعوم لهم، ونحن دلّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحقيقة في ماهية هذا البناء وأين وماذا كان بالضبط.

ومن الواجب هنا أن نبيّن أن بعض الباحثين المسلمين أراد أن يدافع عن المسجد الأقصى المبارك فوقع للأسف في إشكالية أخرى، فقد ذكر لي د. ناجح بكيرات يومًا رأيه القائل إن سليمان عليه السلام بنى (الهيكل) أو المعبد فعلاً، وبنى الأقصى المبارك أيضًا، ولكنه لم يبْنِ (الهيكل) في أرض الأقصى وإنما بناه في مكان آخر، هو على الأرجح نابلس! والأعجب من ذلك ما يذكره الأستاذ محمد حسن شرّاب في كتابه (القول المبين) حيث يقول إن (الهيكل) قد بناه سليمان عليه الصلاة والسلام فعلاً ولم يبن المسجد الأقصى المبارك أصلاً، وإن (الهيكل) كان عبارة عن قصرٍ لسليمان عليه الصلاة والسلام، وإنه هو المذكور في القرآن الكريم ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ ﴾ [النمل: 44]، وهذه الآراء في رأينا كلام مردود من عدة وجوه:

أولاً: إنه مسايرة لليهود في قضيّة (الهيكل) المزعوم، وإن فيه إشارة إلى حقيقة مزاعم اليهود حول الفرق بين (المسجد) و (المعبد).

وثانيًا: لأنّ فيه تَعدّيًا على نبوّة سيدنا سليمان عليه السلام وإسلاميّته، وللحقّ فإنّ مجرّد إيماننا أن سليمان عليه السلام نبيّ ينفي كونه بنى معبدًا أو (هيكلاً) يُعبد فيه غير الله على الإطلاق!

ثالثًا: لأن في هذه الأقوال تأويلاً وتحميلاً للنصوص ما لا تحتملُ، فالأمر واضح في تفسير اللغة، فاليهود يسمّون (الهيكل) في لغتهم (بيت المقدس) ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن المسجد الأقصى المبارك الذي بناه سليمان عليه السلام: (بيت المقدس) وبالتالي المقصود واحد وإن اختلف المضمون! فرسول الله صلى الله عليه وسلم قصد بكلِمة (بيت المقدس) معناها الحقيقي وهو (المسجد الأقصى المبارك) وأمّا اليهود فقصدوا معنىً آخرَ معوجًّا هو (معبد ليهوه إله اليهود المتكبر – في نظرهم – تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا)، والأصل أن نأخذ المسمّى اللغوي من أصحاب اللغة نفسها.

ولا يجوز القول عن هذا الـ(هيكل) المزعوم إنّ سليمان عليه السلام قد يكون بناه في جبل جرزيم بنابلس أو

في مدينة داود في سلوان وإنه مجرد قصر أو بيت خاص به أو شيء آخر من هذا القبيل. فما نتحدث عنه مرجعه إلى عقيدة اليهود، واليهود في عقيدتهم شيء اسمه (بيت المقدس) أي معبد! ولا يصحّ أن يكون هناك خلاف بيننا نحن المسلمين في حقيقة أيّ مسجد بناه سليمان عليه السلام بصفته نبيًّا مسلمًا، خاصة وأنّ الحديث النبوي الشريف يُثبت حقيقة أن سليمان عليه الصلاة والسلام جدّد بناء المسجد الأقصى المبارك.

وحتى لو افترضنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر في الحديث الشريف إعادة بناء سليمان عليه الصلاة والسلام للمسجد الأقصى المبارك لكنت قد قلت أيضًا إنه لا بد أن يكون قد جدّد بناء المسجد الأقصى المبارك بهيئة جليلة عظيمة تناسب عظَمة ملْكه عليه الصلاة والسلام. فليس من المعقول منطقيًا أن يكون النبي المسلم سليمان عليه الصلاة والسلام ملكًا من أعظم الملوك بل هو أعظم الملوك في تاريخ البشرية جمعاء، ويكون نبيًّا مسلمًا كريمًا،ويكون مقرّ حكمه في القدس التي يقع فيها المسجد العظيم الثاني على وجه الكرة الأرضيّة، ثم يترك هذا المسجد خواءً ولا يُعيد إعماره وبناءه ويلتفت بدلاً من ذلك إلى بناء القصور والتماثيل وغيرها...!

توضيح ذلك أنّ البعض من المسلمين يريد الدفاع عن الإسلام عن طريق (نفي) الزعم اليهودي في قضية (الهيكل) فيلجأ إلى نفي حقيقة أن سليمان عليه السلام بنى المسجد الأقصى المبارك (بغضّ النظر عن أنه بناء ابتداء أو بناء ترميم)، أو يفصل بين المسجد الأقصى المبارك الذي نعرفه وبين (المعبد) الذي يزعمه اليهود، فيقول إن سليمان عليه السلام بنى المسجد الأقصى المبارك بناء ترميم، وأيضًا بنى (هيكلاً) لليهود في مكان آخر غير مكان المسجد الأقصى المبارك!

إن هذين القولين خطأ فادح وقع فيه للأسف بعض الباحثين المسلمين بسبب خلط الدراسة العلمية بالأوضاع السياسية، والحقيقة أن الأمر بهذه الصورة لا يعدو أن يكون دفاعًا من منطق ضعف، وكأننا نحن المسلمين لسنا أحق بسليمان عليه السلام من اليهود! وهنا مكمن الخطورة.

علينا نحن المسلمين أن نناقش من منطلق قوة.. فبدلاً من أن ندافع ونحاول أن نجد تبريرات لِمُسَمَّيَي (الهيكل) و(الأقصى).. فالأصل فينا أن نتكلم من منطلق أن سليمان عليه السلام نبيّ من أنبياء المسلمين المعروفين، وبالتالي فإنّ ما بناه هو فعلاً بناء للمسجد الأقصى المبارك على هيئة عظيمة جليلة سويّة لم يكن مثلها قط، بل هي بالتأكيد أفضل وأجمل من الهيئة التي وصفها اليهود في توراتهم المحرَّفة! وهذا لا يعطي لليهود أيّ حق في الأقصى على الإطلاق.. ولا يفتح لهم أي مجال للمناقشة... فكيف يجادل في سليمان من لا يؤمن حقًّا بنبوّته؟ وكيف يجادل اليهود في نبيٍّ مسلم هو عندنا أرفع شأنًا وأعظم مكانة مما هو عندهم، فهو عندنا نبيّ،

وهو عندهم مجرّد ملك ارتدّ عن الحق في نهاية عمره ومات ملحدًا؟! وبالتالي فهو منّا وليس منهم، ولا يجوز لنا أن نناقشهم بناء على أن سليمان عليه السلام من يهود اليوم أو من منطلق أنهم ينتسبون إليه طرفة عين! فهو منّا وليس منهم، كما أنّ إبراهيم عليه السلام منّا وليس منهم.

إذن.. فلنُعِد صياغة القضية

إذن، فالقضية والمشكلة الأساسية بيننا وبين اليهود تعود إلى مسألة المبدأ، وهو (ما الذي بناه سليمان عليه السلام، وإلى أيّ الفريقين ينتسب؟) و(هل بناؤه للأقصى هو بناء ترميم أو بناء ابتداء؟)

أمّا السؤال الثاني فقد تمّت الإجابة عنه عند الحديث عن بناء المسجد الأقصى المبارك لأول مرة. وأمّا السؤال الأول، فإجابته أنّ سليمان عليه السلام بنى (بيت المقدس) أي المسجد الأقصى المبارك وذلك بناء على تعاليم شريعته عليه الصلاة والسلام، وكان بناء عظيمًا فخمًا ضخمًا بالتأكيد قياسًا على عظمة وفخامة ملكه عليه الصلاة والسلام، ولكنه لم يكن معبدًا لعبادة غير الله، وإنما كان مسجدًا لعبادة الله تعالى، وأتباعه الحقيقيّون في تلك الفترة عليه الصلاة والسلام كانوا أيضًا مسلمين صالحين، ولكن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكفروا فعاقبهم الله تعالى بسنّة الاستبدال، واستبدل بهم الأمة الخاتمة.

عقيدة اليهود في المعبد الثاني

يؤمن اليهود بأنّ المعبد الأول كان قد انهدم على يدي نبوخذنصّر عندما غزا القدس وسبى اليهود إلى بابل كما تقول التوراة: (**وفي اليوم السابع من الشهر الخامس في السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ نصّر ملك بابل، جاء نبوزرادان قائد حرسه وكبير حاشيته إلى أورشليم وأحرق فيها معبد الرب وقصر الملك وجميع بيوت الأشراف**) الملوك الثاني 25: 8–9. ولكنهم ما لبثوا أن عادوا على يدي كورش الفارسي الذي انتصر على بابل، وسمح لليهود بالعودة وإعادة بناء المعبد، تقول التوراة: (**هذا ما يقول كورش ملك الفرس: أعطاني الرب إله السماوات جميع ممالك الأرض وأوصاني أن أبني له بيتًا في أورشليم التي بيهوذا، فمَن كان منكم من شعبه فليذهب إلى أورشليم ويبني بيت الرب إله بني إسرائيل، وهو الإله الذي في أورشليم، وليكن الله معه**) عزرا 1: 2–3.

لاحِظ الجملة (الرب إله بني إسرائيل، وهو الإله الذي في أورشليم)، وهذه الآية في سفر عزرا بالتوراة الحالية دليل واضح على تحريف هذا الكتاب الذي جعل الرب إلهًا لبني إسرائيل وحدهم، وهو دليل على ما تكلّمنا

به عند الحديث عن قضية المعبد وسليمان عليه السلام وحقيقة إيماننا نحن بالمسجد وإيمانهم هم بالمعبد.

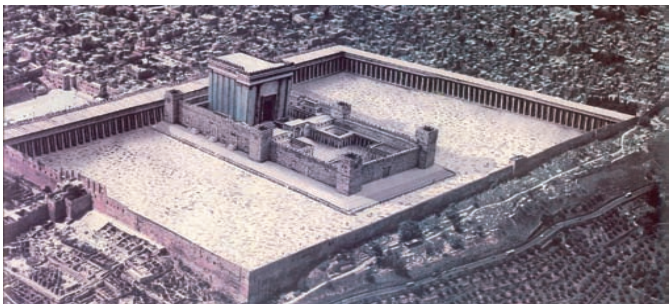

نموذج متخيل للمعبد يُغطي كامل مساحة المسجد الأقصى
المصدر: الشبكة الدولية)

وقد قام اليهود (حسب عقيدتهم) ببناء المعبد مرة أخرى بعد عودتهم من السبي، ولكن في هذه المرة أقاموا بناءً أكبر من بناء سليمان عليه السلام. وهذا المعبد المزعوم هو الذي يظهر في هذه الأيام في وسائل الإعلام الصهيونية، وهو الذي بنى الصهاينة له نموذجًا في قرية المالحة العربية في القدس، وهو الذي يروّجون له على اعتبار أن المعبد الأخير يجب أن يُبنى على شكله نفسه.

ونلاحظ أنهم شملوا مساحة المسجد الأقصى المبارك كلّه بهذا البناء، وفي الوقت نفسه حافظوا على قضية الاهتمام بموضع الصخرة المشرفة (على هضبة موريا) فوضعوا عليها (قدس الأقداس) وهو أهم قسم في المعبد.

وقد انتهى الحديث في العهد القديم عن المعبد إلى فترة ما بعد بناء المعبد الثاني، ليأتي العهد الجديد (الإنجيل) ويتحدث عن المعبد نفسه. ولكن المصادر اليهودية التاريخية هي التي تتحدث عن هدم المعبد للمرة الثانية على أيدي الرومان.

عقيدة اليهود في المعابد الثلاثة ومناقشتها

يؤمن اليهود بأن سليمان عليه الصلاة والسلام بنى المعبد الأول، وهدمه نبوخذ نصّر وأحرق معه المدينة المقدَّسة كلها ودمّر مملكة (يهوذا)، ثم عاد اليهود ليبنوا المعبد للمرة الثانية، وقد تمّ هدْمُه. ويؤمنون بأنّ المعبد لا بدّ أي يُبنى للمرة الثالثة، وهنا يختلف اليهود فيما بينهم في المعتقدات، فطائفة منهم تؤمن بأنّ بمجرّد بناء المعبد سيظهر المسيح المنتظر، وهناك غيرهم ممّن يظن أنه يجب أن يُبنيى للمرة الثالثة ليتمّ هدْمُه وإحراقهُ بعدها للمرة الثالثة، وتكون هذه علامة ظهور مسيحِهم المخلِّص من نسل داود، والذي سيحكم العالم كله، ويُخضع جميع الأمم لليهود، كما أن هناك فرقة أُخرى تؤمن بأن المعبد سينزل من السماء جاهزًا ويظهر عندها المسيح.. و لديهم أقوال ومعتقدات أخرى.

هذا هو ملخص عقيدة اليهود في المعابد الثلاثة، ولذلك نجد بعض عقلائهم غير متعجّلٍ على هدم المسجد الأقصى المبارك وبناء المعبد، ذلك لأن هذا في عقيدتهم نذير دمار إسرائيل وخرابها، وتشريد اليهود في الأرض، ولكن المتعصبين منهم يؤمنون بأنه كلما اقترب وقت الملحمة والمجزرة (التي يزعمونها) بحق اليهود والقدس اقترب وقت ظهور المسيح المنتظر المخلِّص للشعب اليهودي.

يتجه اليهود بعبادتهم إلى الصخرة المشرَّفة ويعتبرونها قبلتهم، وهي عندهم (قدس الأقداس) التي يجب أن تقع في قلب المعبد، وسبب تقديسهم للصخرة المشرَّفة أنهم يعتقدون أنها مسرح قصة الذبح والفداء، التي يعتبرون فيها أنّ الذبيح هو إسحق عليه السلام، وليس إسماعيل.

تقول التوراة: (**وبعد هذه الأحداث امتحن الله إبراهيم فقال له: (يا إبراهيم) قال: (نعم، ها أنا) قال: خُذ إسحق ابنَك وحيدك الذي تحبُّه واذهب إلى أرض موريَّة، وهناك أصعِدْه محرقةً على جبلٍ أدلُّكَ عليه**) التكوين 22: 1–2. ونلاحظ في هذا النص أنّ الذكر لإسحق عليه السلام كان على أنه (ابنك وحيدك الذي تحبّه) مع أنه (بنصّ التوراة) كان إسماعيل عليه السلام موجودًا قبل ذلك! ولكن للحق فإن نظرة التوراة المحرَّفة لإسماعيل عليه السلام كانت قاصرة وعنصريّة، ولا يُعقل أن يكون إسحق عليه السلام ابن إبراهيم الوحيد وابنه البكر (إسماعيل) موجود.. عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.

أما مناقشة هذه العقيدة والنبوءات التي لدى اليهود فنبسطها في السطور الآتية:

إنه من الثابت تاريخيًّا في المصادر التاريخية الخاصة باليهود أساسًا أن هيرودوس حاكم القدس الروماني قد أعاد بناء المعبد المقدّس كما تنصّ مصادر اليهود المختلفة، وأضاف إليه بعض الأجزاء ليكون في عهده بناءً جديدًا. وفي نظرنا فإن هذا البناء (كما يزعم اليهود أنفسهم وليس نحن) يعدّ بناءً ثالثًا للمعبد، وهذه الحقيقة مذكورة في الكثير من الوثائق التاريخية ومنها على سبيل المثال وثيقة حائط البراق التي قدّمتها اللجنة المكلفة من عصبة الأمم عام 1930 للتحقيق في ملكية حائط البراق بين المسلمين واليهود على خلفية ثورة البراق عام 1929 م[74] وقد وافق اليهود على محتويات هذا التقرير، وهذا يعني بالتأكيد موافقتهم على ما جاء فيه من بناء المعبد ثلاث مرات وليس مرتين! ولا ننسَ أن المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قد ظهر فعلاً بعد بناء هيرودوس للمعبد للمرة الثالثة، ولكن اليهود رفضوه ولم يؤمنوا به، بل حاولوا صلْبه! وبذلك يتبين لنا أن عقيدة اليهود في المسيح المنتظر هذه الأيام مغلوطة تمامًا حتى لو سلَّمنا بصحتها كنبوءة، وذلك

(74) انظر حائط البراق الشريف: تقرير اللجنة الدولية المصادق عليه من الحكومة البريطانية وعصبة الأمم عام 1931، ص: 28.

ببساطة لأن المسيح قد ظهر فعلاً بعد إعادة بناء المعبد على يدي هيرودس كما تدّعي مصادر اليهود التاريخية، وهم لم يعترفوا لا بالبناء الثالث للمعبد ولا بظهور المسيح المنتظر عليه الصلاة والسلام. وما زالوا ينتظرون المسيح الذي يأتي على هواهم.

هذا مجمل عقيدة اليهود في المسجد الأقصى المبارك ومدينة القدس ومناقشته لها، بسطناها بشكل مبسّط بما يتناسب مع طبيعة هذا الكتاب المبسّط.

النصارى والأقصى

يتعلق الأمر بالنسبة للديانة النصرانية في مدينة القدس بقصة الصلب والفداء وهي جوهر الديانة النصرانية، ولذلك نجد أن المسجد الأقصى المبارك لا يُعتبر بالنسبة إليهم مهمًّا أهمية كنيسة القيامة أو كنيسة المهد، ولا يعدو كونه تذكارًا من العهد القديم، وشاهدًا على صدق نبوءة التدمير الواردة على لسان المسيح في الإنجيل، والتي تحققت فعلاً على أيدي الرومان: (**سيجيء زمان يحيط بك أعداؤك بالمتاريس ويحاصرونك، ويطبقون عليك من كل جهة، ويهدمونك على أبنائك الذين هم فيك، ولا يتركون فيك حجرًا على حجر، لأنك ما عرفت زمان مجيء الله لخلاصك**) لوقا 19: 43-44.

ولا يختلف النصارى كثيرًا في نظرتهم للأقصى المبارك عن اليهود، فهم يؤمنون بالعهد القديم (التوراة) كما هو، ولا يختلف النصارى مع اليهود في شيء جاء فيها، ولكن نقطة الخلاف الجوهرية بينهم وبين اليهود هي أنهم يعتبرون أن المسيح ظهر بالفعل، وأنه قُتِل صلبًا وأنه سيعود في آخر الزمان للمرة الثانية. وهنا تظهر الخلافات بين الطوائف النصرانية المختلفة، فبعض الطوائف الإنجيلية المتعصبة اليوم لدولة الاحتلال في فلسطين (ومنهم على سبيل المثال ما يسمى بالمحافظين الجدد في أمريكا) يناصرون الاحتلال الصهيوني لأنهم يؤمنون بأن مجيء المسيح للمرة الثانية سيكون بعد بناء المعبد للمرة الثالثة كما يدّعي اليهود، وهؤلاء يؤمنون بمنطق اليهود في رفض الاعتراف بالبناء الثالث للمعبد على يد هيرودوس.

وكما قلنا، فإنّ هذا الأمر مختلَف عليه بين طوائف النصارى المختلفة، ولكنا نتكلم هنا عن بعض النصارى المحدثين في أيامنا الحالية، خاصة المُتَصَهْيِنين الذين يهمّهم دعم الوجود اليهودي في المدينة المقدّسة بكل قوة. إذن فالفريقان بمجموعهما متفقان على أن المعبد الثالث يجب أن يُبنى مكان الأقصى المبارك. والفرق بينهما أن اليهود يؤمنون بأن نزول المسيح سيكون للمرة الأولى، والنصارى المتصهينون عمومًا يؤمنون بأن نزوله سيكون للمرة الثانية.

ونلاحظ من تتبُّع الكتابات التأريخية للمؤرخين النصارى، وخاصة في عصر الحروب الصليبية، استخدامهم للأسماء اليهودية لوصف بعض الأماكن في الأقصى. فنجد الراهب الروسي (دانيال) وغيره في كتبهم التي تصف رحلاتهم للحج إلى الديار المقدسة أيام الاحتلال الصليبي يسمّون قبّة الصخرة المشرَّفة باسم (كنيسة أقدس المقدَّسات) وهو الاسم اليهودي للمنطقة. كما لا يخفى أن الصليبيين عندما احتلوا الأقصى وحوّلوا المصلى المرواني إلى إسطبل، سمّوا المكان ويا للعجب (إسطبلات سليمان). وهذه التسمية يهودية بحتة، ومن العجب أن بعض المسلمين لا يزال يرددها.

وبالنسبة إلى النصارى فإن رحلة الحج إلى الديار المقدسة عندهم تعني المسير على خطى المسيح وزيارة الأماكن التي زارها وله فيها أيّ أحداث، وهي كثيرة ومنتشرة في فلسطين بحدودها الانتدابية، إلا أن أهم مرحلة من مراحل الحج النصراني في القدس هي مرحلة المسير على خطى المسيح في رحلته الأخيرة (في عقيدتهم) نحو الصليب فيما يسمى (طريق الآلام) (Via Dolorosa) الموجود في القدس، ويتكون من 15 مرحلة (أي محطة) عليها علامات. وتحمل كل مرحلة منها تذكارًا من رحلة المسيح الأخيرة نحو الصليب، وترتيب المراحل يكون على الشكل الآتي (في العقيدة النصرانية):

1 – محاكمة المسيح: وتقع في ساحة المدرسة العُمَرية اليوم ملاصقة للمسجد الأقصى المبارك من الجهة الشمالية الغربية.

2 – سجن المسيح ووضع تاج الشوك وحمل الصليب.

3 – مكان وقوع المسيح للمرة الأولى.

4 – مكان رؤية المسيح لأمه مريم عليها السلام.

5 – مكان حمل سمعان الصليب مع المسيح.

6 – مكان مسح القديسة فيرونيكا لوجه المسيح.

7 – مكان سقوط المسيح للمرة الثانية.

8 – مكان كلام المسيح مع بنات أورشليم.

9 – مكان سقوط المسيح للمرة الثالثة.

10 – مكان خلع ملابس المسيح.

11 – مكان تسمير المسيح بالمسامير.

12 – مكان الصلب (ويسمى الجلجلة أي الجمجمة).

13 – مكان تمديد الجسد المصلوب بعد إنزاله من الصليب.

14 – مكان الدفن (القبر المقدس) ويقع تحت قبة كنيسة القيامة.

15 – موقع قيامة المسيح.

باب الرحمة في النصوص اليهودية والنصرانية المقدسة

يشكّل باب الرحمة في المسجد الأقصى المبارك مفصلاً هامًّا من مفاصل علاقة اليهود والنصارى بالمسجد الأقصى المبارك، فهم يسمّونه (الباب الذهبي) Golden Gate، وقصة عقيدتهم فيه أن النصارى يعتقدون أنه المكان الذي دخل منه المسيح المعبد عندما جاء إلى القدس، وبعض طوائفهم ولا سيما الإنجيليون الذين يرون أنه سيدخل منه لا بدّ عند عودته في آخر الزمان، واليهود يؤمنون بدورهم بأن هذا المكان سيدخل منه المسيح المنتظر عندما يأتي إلى القدس. وبذلك يشكّل هذا المكان رابطًا عقديًّا في مسألة المسجد الأقصى المبارك.

إلى هنا نُتمّ الحديث في هذا الموضوع بشكل مبسّط بحمد الله تعالى، حيث شرحنا حقيقة معتقدات كِلا الطرفين في المسجد الأقصى المبارك ومدينة القدس بشكل عام. نسأل الله تعالى لنا وللقارئ العزيز التوفيق والسداد.

خاتمة:

وهكذا في جولة سريعة في رحاب الأقصى المبارك، تبين لنا ما لهذا المسجد الجليل من مكانة.. فلا عجب أن يكون ثالث مكان مقدس في الإسلام، ولا غرابة أن تقتتل عليه الأمم كلها، ولا غرو في أن يكون هو الممثل للإنسانية جمعاء في ثلاثية العلاقات التي تحكم الحياة البشرية.

من خلال هذه الدراسة أرجو أن يكون الكثير من الأمور التي كانت مخفيّة عن الكثير من الباحثين والمحبّين للمسجد الأقصى المبارك قد تبيَّن، وأن يكون اللثام قد أُميط عن بعض هذه الكنوز التي يحتويها المسجد الأقصى المبارك. فالأقصى أرض عظيمة المقام والفعل، ويمكن أن نقول بعد هذا الاستعراض في خضمّ المفاهيم والتاريخ الطويل والعلاقات والعقائد والتصورات المختلفة للأقصى المبارك وأرضه الطاهرة إن الدارس للأقصى المبارك يمكنه أن يلِج دراسة المسجد الأقصى المبارك بعد أن يأخذ مفاتيح تلك الدراسات التي حاولت تقديمها من خلال هذا الكتاب.

إنّ كل ما ورد في هذا الكتاب هو عبارة عن تلخيصات ودراسات مبسّطة لمحاور دراسة المسجد الأقصى المبارك، وبالتالي فإن الباب مفتوح للمزيد من الدراسة والتفحص والبحث والتمحيص، إلا أن المفتاح الأساسي الذي حاولت التأكيد عليه خلال مراحل هذا الكتاب جميعها هو مسألة المنهجية، وهي أهم ما يميز الباحث المدقق الصحيح من الباحث المتأثر بالعواطف والأحوال السياسية. ولا نقول هنا إن الباحث في الأقصى المبارك يجب أن يكون جافّ الروح والنفس والقلب، بل إنّ دراسة المسجد الأقصى المبارك ومن ورائها الولوج في حقل دراسات بيت المقدس الكبيرِ تحتاج منك أولاً إلى حب حقيقي لهذا المكان الطاهر، والحب مبنيّ على العلم والمعرفة، فإذا عرفتَ الأقصى حقًّا أحببتَه، وإذا عرفتَ مكانة الأرض المقدسة وعظمتها أحببتَها حقًّا وهذه أولى الخطوات للدخول إلى هذا المجال بحماسة وقوة، ولكن في الوقت نفسه أؤكد أن هذه الحماسة يجب أن تكون مضبوطةً بالمنهجية العلمية السليمة. فالباحث العالم يجب أن يكون في دراسته متجردًا من أي خلفية عاطفية أو سياسية أو فكرية، ومَن لا يتمكنَ من التجرد من هذه الأمور خلال دراسته للمسجد الأقصى المبارك وبيت المقدس يعاني في الحقيقة من انعدام الثقة في ما لديه من المصادر الأساسية، وهذا أمر خطير. فالأصل في كل باحث أن يكون على ثقة بأن الحق لا يمكن تغييبه لو تمّت دراسة أيّ مادّة بتجرّد وموضوعية.

إن هذه الدراسة تبيّن بشكل لا لَبس فيه أنّ الأقصى ليس أحجارًا وخرافات من التاريخ، بل هو أشمل وأعمّ وأكبر وأجل، ويكفيه شرفًا أن يذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ،هو الذي أحبّه وحبّب فيه وصلّى إليه بل وجيَّش الجيوش وجمع الجموع لفتحه وتحريره، بل وأوصى به حتى آخر رمق من روحه الشريفة صلى الله عليه وسلم.

والآن.. ماذا بعد وماذا نفعل؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه الشباب والشيوخ عشرات المرات، بل أكاد أجزم أنه لم تكد تمرّ بي محاضرة في أي بلد من البلدان إلا وسمعتُه من الشباب اللاهث وراء رفعة هذا البيت المقدس وعزّته، فأقول: كلٌّ له دوره، وكلٌّ منّا يمكنه أن يحدّد دوره، وأهمّ ما علينا فعلُه هو النشر والتبليغ، فإنّ صورة الأقصى المبارك في أذهان المسلمين مشوّشة ضعيفة، وتحتاج إلى اليد التي تمتدّ لتعرّفهم دينَهم وأمّتهم وتاريخَهم ومستقبلَهم.. وهذا كله من وجهة نظري يحتاج إلى أن يقوم على أساس تحتاجه الأمة كلها هذه الأيام، وهو معرفة الأقصى على وجه الحقيقة.. فإن لم تعرفه لن تستطيع أن تحبه، وإن لم تتخيله فكيف تعمل لأجله؟ وإنما العمل لأجله هو العمل لأجل الإسلام والعزة التي أرادها الله.

فإذا عرفتَ الأقصى وعرفت كيف تحبّه فإني على يقين بأنكَ ستعرف الطريق إلى النصر الذي كتبه الله عزّ وجلّ لهذه الأمة.. فالنصر أكيد.. والتحرير قريب.. والعزة موشكة... ولكن تحتاج إلى صبر وعمل... وخلال هذا الطريق أذكرك بأن يكون شعارك: أقصى يمشي على الأرض.

ومن خلال هذا الشعار يكون بإمكانك أن تحّدد هدفك وأسلوب عملك.. ولا تنسَ الصحبة الصالحة على الطريق. وكم تعجبني مجموعة من الإخوة والأخوات الإيجابيّين الذين كانوا إذا سمعوا هذا وعرفوا أهمية هذا العمل بادروا وتفتّقت أذهانُهم عن أفكار ومشاريع كبيرة.

إنها ليست مجرّد قصص وحكايات من التاريخ.. بل هو دين وإيمان وعقيدة تنمو وتكبر إلى أن تصل أعلى علّيّين، فخذوا هذا المفتاح.. وافتحوا بوّابات العزة التي أرادها الله عزّ وجلّ للمؤمنين.. وسنلتقي معًا قريبًا جدًّا بإذن الله.. وموعدنا يوم التحرير عند الصخرة.. في قلب الأقصى بإذن الله.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: 51]

ثم سبِّحوا معنا ربًّا هاديًا ونصيرًا

عبد الله معروف عمر

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي (لبنان – بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، 1998).

ابن حنبل، الإمام أحمد ، المسند، تحقيق: أحمد محمد شاكر وحمزة أحمد الزين (مصر – القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولى، 1995).

ابن خلدون، عبدالرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: تركي فرحان المصطفى (لبنان – بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1999).

ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر ابن عرامة العمروي (لبنان – بيروت: دار الفكر، 1995).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم (لبنان – بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1997).

ابن ماجه، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه (ليختنشتاين – فدوز: جمعية المكنز الإسلامي، 2000).

ابن منظور، لسان العرب (لبنان – بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، 1999).

ابن هشام، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (مصر – القاهرة: دار الطلائع، 2005).

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين (لبنان – بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2002).

الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق: د. علي عمر (مصر – القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 2004).

البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري (ليختنشتاين – فدوز: جمعية المكنز الإسلامي، 2000).

حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (لبنان – بيروت: دار النفائس، الطبعة الخامسة، 1985).

خليفة، أحمد فتحي، دليل أولى القبلتين ثاني المسجدين وثالث الحرمين (فلسطين – بيت المقدس: مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية، الطبعة الثانية، 2001).

دانيال، الراهب، رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة 1106–1107م، ترجمة: سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة (الأردن – عمان: المترجمان، الطبعة الأولى، 1992).

الرطروط، هيثم فتحي، نظرية جديدة لتفسير التصميم والتخطيط الهندسي لقبة الصخرة (بريطانيا – دندي: مجمع البحوث الإسلامية في المملكة المتحدة، 2002).

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (لبنان – بيروت: المكتبة العصرية، الطبعة الثانية، 1972).

السيوطي، شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن علي ، كتاب إتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى (مخطوطة، صورة عن المخطوطة من مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي).

شراب، محمد محمد حسن، بيت المقدس والمسجد الأقصى: دراسة تاريخية موثقة (سوريا – دمشق: دار القلم، الطبعة الأولى، 1994).

شراب، محمد محمد حسن، القول المبين في تأريخ القدس وفلسطين (سوريا – دمشق: دار مؤسسة فلسطين للثقافة، الطبعة الأولى، 2006).

الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (لبنان – بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، 1999).

العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس (فلسطين – القدس: مكتبة الأندلس، الطبعة الثانية، 1986).

العارف، هشام بن فهمي، إتحاف الأنام بفضائل المسجد الأقصى والشام (قبرص – نيقوسيا: مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، الطبعة الأولى، 2004).

العسقلاني، الإمام ابن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (السعودية – الرياض: دار السلام، الطبعة الأولى، 1997).

العليمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان أبو تبانة ومحمود الكعابنة (الأردن – عمان: مكتبة دنديس، الطبعة الأولى، 1999).

العمد، عبد الرحيم محمد جعفر، مكانة المسجد الأقصى في العقيدة الإسلامية: دراسة تحليلية (الأردن – عمان: رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، 1990).

العمري، ابن فضل الله ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: د. كرافولسكي (لبنان – بيروت: المركز الإسلامي للبحوث، 1986).

العويسي، عبدالفتاح ، تقديم بيت المقدس (مصر – القاهرة: دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 2006).

العويسي، عبدالفتاح، ووليد الخالدي، حائط البراق الشريف: تقرير اللجنة الدولية لعام 1930م المصادق عليه من الحكومة البريطانية وعصبة الأمم عام 1931م (بريطانيا – دنبلين: مجمع البحوث الإسلامية في المملكة المتحدة، الطبعة الأولى، 1999).

الفني، إبراهيم، التسوية الشرقية للمسجد الأقصى (المصلى المرواني) (فلسطين – القدس: مركز القدس للأبحاث، 1997).

القاسمي، جلال الدين ، الإسراء والمعراج، تحقيق: فتحي عبد الرحمن حجازي، بذيل كتاب «النور الوهاج في الكلام على الإسراء والمعراج» لنور الدين الأجهوري (لبنان – بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2003).

القدومي، عيسى، المسجد الأقصى: الحقيقة والتاريخ (قبرص – نيقوسيا: مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، الطبعة الأولى، 2007).

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: صدقي محمد جميل (لبنان – بيروت: دار الفكر، 1998).

قطب، سيد ، في ظلال القرآن (مصر – القاهرة: دار الشروق، 1996م، الطبعة الخامسة والعشرون).

المباركفوري، صفي الرحمن ، الرحيق المختوم (لبنان – بيروت: المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، 2003).

ابن الحجاج، مسلم، صحيح مسلم (ليختنشتاين – فدوز: جمعية المكنز الإسلامي، 2000).

المقدسي، محمد بن قدامة ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: م. جوته (هولندا – ليدن: بريل، الطبعة الثانية، 1906).

النابلسي، عبد الغني، الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، تحقيق: أكرم حسن العلبي (لبنان – بيروت: المصادر، الطبعة الأولى، 1990).

النتشة، جواد بحر، مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان (فلسطين - الخليل: مركز دراسات المستقبل، الطبعة الأولى، 2006).

النسائي، أحمد بن شعيب بن علي بن سنان، سنن النسائي (ليختنشتاين - فدوز: جمعية المكنز الإسلامي، 2000).

الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، فتوح الشام (لبنان - بيروت: دار الجيل، دون سنة نشر).

الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، كتاب المغازي، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا (لبنان - بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2004).

وليم، رئيس أساقفة صور، تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار (لبنان - بيروت: دار الفكر، 2003).

المجلات والدوريات:

الرطروط، هيثم ، المسجد الأقصى في الآثار القرآنية، مجلة دراسات بيت المقدس (بريطانيا - دندي: مركز دراسات بيت المقدس بمعهد آل مكتوم للدراسات العربية والإسلامية، السنة السادسة، العدد الأول، صيف 2005).

عجين، علي إبراهيم سعود، العهدة العمرية: دراسة نقدية، مجلة الحكمة (بريطانيا - ليدز: العدد العاشر، 1417هـ/ 1996م).

المراجع الإنجليزية:

Al-Ratrout, Haithem, **The Architectural Development of Al-aqsa mosque in the Early Islamic Period. Sacred Architecture in the shape of Holy** (UK - Dundee: Al-Maktoum Institute Academic Press, 2004).

Duri, Abdul Aziz, ***Jerusalem in the Early Islamic Period 7th - 11th centuries AD*** in K.J. Asali (ed), **Jerusalem in History**. (UK - Essex: Scorpion Publishing Ltd, 1989).

El-Awaisi, Khalid, **Mapping Islamicjerusalem, A Rediscovery of Geographical Boundaries**. (U.K. - Dundee: Al-Maktoum Institute Academic Press, 2007).

Ibrahim, Ramona, **Islamicjerusalem as a Model of Conflict Resolution: A Case Study of the Negotiations between Salah al-Din and Richard the Lionheart)1191-1192 CE)** (UK - Dudee: Unpublished PHD Thesis, Al-Maktoum Institute Aberdeen University, 2005).

Nor, Mohamad Roslan Mohamad, **The Significance of Islamicjerusalem In Islam: Quranic and Hadith Perspectives.** (Uk - Dundee: Unpublished PHD Thesis, al-Maktoum Institute/ Aberdeen University, 2006).

المصادر الإلكترونية:

بكيرات، ناجح داود، دموع على أعمدة الأقصى، حلقات منشورة في موقع (أقصانا):

http://www.ouraqsa.com/?action=references&id=30

موقع :أقصانا http://www.ouraqsa.com

موقع:أخوات من أجل الأقصى http://www.foraqsa.com